الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحِكَمُ العَطائِيَّة

شرح وتحليل

الجُزءُ الأوَّل



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان





الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

ولد عام ١٩٢٩م في قرية (جيلكا) قرب جزيرة ابن عمر الواقعة في شمال شرقي سورية، والداخلة في حدود تركيا حالياً، وهاجر والده المرحوم ملارمضان إلى دمشق وله من العمر أربع سنوات.

أنهى دراسته الثانوية في معهد التوجيه الإسلامي بدمشق، التحق عام ١٩٥٣ بكلية الشريعة في جامعة الأزهر، وعين معيداً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦٠، وأوفد إلى كلية الشريعة من جامعة الأزهر للحصول على الدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية، وحصل على هذه الشهادة عام ١٩٦٥م.

عين مدرساً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦٥، ثم وكيلاً، ثم عميداً لها، وهو الآن رئيس قسم العقائد والأديان في جامعة دمشق.

اشترك في كثير من المؤتمرات العالمية، والندوات العلمية، وهو عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وهو يتقن اللغة التركية والكردية إلى جانب العربية، ويلم باللغة الإنكليزية.

له ما يقارب أربعين مؤلفاً في علوم الشريعة الإسلامية وآدابها والفلسفة والاجتماع ومشكلات الحضارة وغيرها، تُرجم بعضها إلى الإنكليزية والألمانية والفرنسية.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحكم العطائية

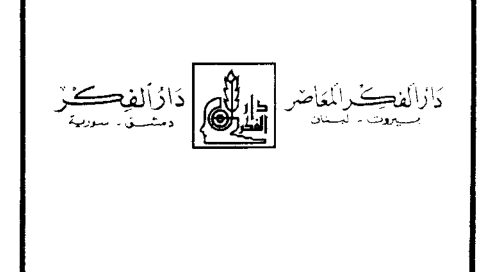
شـــرح وتحليـل

الجزء الأول

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

الحكم العطائية

شـــرح وتحليـــل



الرقم الاصطلاحي: ١٣٩٨,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-819-6
الرقم الموضوعي: ٢٦٠
الموضوع: التصوف والأخلاق
العنوان: الحكم العطائية شرح وتحليل
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ج١=٤٠٠ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

دار الفكر
٢٠٠٣
الطفولة
أمانة ومستقبل

إعادة
١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م

الإهـــــداء

ِلى كل تائه عن الله، لم تجذبه عنه عصبية لذات
ْو مذهـب، وإلى كل جاحد بالحق لم يحجبه عنه
ستكبار أو عناد، أقدم هذا الكتاب الجامع بين
موازين العقل ونفحات الروح، عسى أن يجدوا فيه
من شعاع النور والهداية مالم يجدوه في المجادلات
منطقية والصراعات الفلسفية.

والله ولي كل هداية وتوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تفضل عليّ فسخر لساني وقلمي للتعريف بدينه، وأنهضني بواجب الدعوة إلى شرعه، أسأله عز وجل أن يقدرني على الشكر الذي يرضيه على نعمته الجليلة هذه، وأن يتوجها بأجلّ نعم الدنيا بعد الإيمان، ألا وهي نعمة الإخلاص لوجهه، وأن يقصيني من حظوظ نفسي التائهة الأمارة.

وأصلي وأسلّم على عبده ونبيه محمد خاتم المرسلين وسيد ولد آدم يوم الدين، وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان.

وبعد، فقد شرفني الله عز وجل، على ضعفي وعجزي وعدم أهليتي، بقراءة حكم ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، والتعليق عليها بما فتح الله به عليّ، خلال سلسلة الدروس التي بدأت إلقاءها عام ١٩٧٤ في مسجد السنجقدار بدمشق، ثم في مسجد تنكز، ثم في مسجد الإيمان في البلدة ذاتها.

ومنذ ذلك العهد، والناس الذين سمعوا بتعليقاتي هذه، أو استمعوا إلى بعض من تسجيلاتها، يقترحون ويلحّون عليّ أن أفرغ حصيلتها في كتاب.

ولا أشك أن هذا الإلحاح الشديد الذي تطاول أمده إلى هذا اليوم، والذي كان ولا يزال يتجه إليّ من سائر البلدان والبقاع، يعود إلى الحب الساري إلى أفئدة الناس لهذه الحكم الربانية العجيبة، وهو حب

قديم متجدد.. ويرحم الله من قال: «لو جازت الصلاة بشيء غير القرآن، لجازت بحكم ابن عطاء الله»!..

وليس بدعاً أن أكون واحداً ممن عشق هذه الحكم، وأن أكون واحداً ممن أدلى بدلوه في شرحها والتعليق عليها، وإن كنت على يقين بأني لست أهلاً لبلوغ المعاني السامية والأسرار القدسية الكامنة في تضاعيفها.

واليوم، وقد بدأ إخوة كرام من موظفي دار الفكر بدمشق بتفريغ التسجيلات التي حوت سلسلة تلك الدروس، دروس الحكم العطائية، مع استمرار إلحاح الملحّين بتفريغها في كتاب، لا يسعني إلا أن أعكف على صقلها وإعادة صياغتها، وتحويلها من نسق دروس تلقى على مسامع الناس إلى نظام كتاب يبقى للقراءة والتدبر.

وهذا التحويل يحتاج إلى تغيير في الأسلوب، وحذف للمكررات، وصقل للعبارات، والله المستعان أن يبارك لي في الوقت، وأن يكرمني بمزيد من التوفيق، حتى أنهي هذا العمل، الذي طال تسويفي له، بعد عزمي القديم عليه، في أقصر وقت ممكن. إنه البر الرحيم والسميع المجيب.

* * *

كلمة عن كتاب (الحكم) وصاحبه:

هو الإمام الملقب بتاج الدين، أحمد بن محمد بن عبد الكريم.. ابن عطاء الله السكندري المالكي، المتوفى عام ٧٠٩ من الهجرة. فهو من أعيان القرن السابع الهجري. وقد بدأ فتفقه ودرس التفسير والحديث

واللغة والأدب على شيوخ له في مصر، ثم توج حياته العلمية بالسلوك التربوي والسعي إلى تزكية النفس على يد عالمين جليلين جمع كل منهما بين ضوابط العلوم الشرعية وأصول تزكية النفس من أمراضها التي سماها الله «باطن الإثم» أما أحدهما فهو الشيخ أبو العباس المرسي أحمد بن عمر الذي اشتهر إلى جانب غزارة العلم بالصلاح والتقوى. وأمّا الآخر فهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله، وهو المرجع الأول في الطريقة الشاذلية. وقد توفي الأول منهما عام ٦٨٦ هـ، أما الثاني فقد توفي عام ٦٥٦ هـ.

لمع اسم ابن عطاء الله عالماً من أجلّ علماء الشريعة، مصطبغاً بحقائقها ولبابها التي تُحَرِّرُ الإنسان من حظوظ النفس والهوى، وترقى به إلى سدة الصدق مع الله، وتمام الرضا عنه، وكمال الثقة به، والتوكل عليه. ودرّس علوم الشريعة في الأزهر، وتخرج على يديه كثير من مشاهير العلماء، من أمثال الإمام تقي الدين السبكي، والإمام القرافي..

وكان إذا جلس للنصح والوعظ والتوجيه، أخذ حديثه بمجامع القلوب، وسرى من كلامه تأثير شديد إلى النفوس. شهد له بذلك أقرانه الذين كانوا في عصره، والعلماء الذين جاؤوا من بعدهم، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

أما كتابه (الحكم) فلا أعلم كتيّباً صغيراً في حجمه انتشر في الأوساط المختلفة كانتشاره، وتقبلته العقول والنفوس كتقبلها له!..

هو مجموعة مقاطع من الكلام البليغ الجامع لأوسع المعاني بأقلّ العبارات.. كلها مستخلص من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ.

وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أما القسم الأول منها فيدور على محور التوحيد وحماية المسلم من أن يتسرب إليه شيء من المعاني الخفية الكثيرة للشرك، وأما القسم الثاني فيدور على محور الأخلاق وإلى تزكية النفس وأما القسم الثالث فيدور على محور السلوك وأحكامه المختلفة.

وقد تسابق كثير من العلماء في عصور مختلفة إلى كتابة شروح لهذا الكتيّب الصغير في حجمه والكبير في آثاره ونفعه، ويبدو أن أكثرهم إنما اندفعوا إلى ذلك ابتغاء التبرك به وأملاً في أن يناهم شيء من نفحاته، لا سيما بعد أن تأكد لهم أن كثيرين من طلاب العلم في الأزهر فتح الله عليهم ورفع لهم من حياتهم شأناً بنفحاته وبركاته.

* * *

حِكَم ابن عطاء الله والتصوف:

سيقول بعض الناس: إن العكوف على دراسة هذه الحكم إنما هو انصراف إلى (التصوف). والتصوف شيء طارئ على الإسلام متسرب إليه، فهو من البدع التي حذر منها رسول الله ﷺ إذ قال: «.. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[(١)].

وأقول في الجواب: أما الأسماء والمصطلحات فلا شأن لنا بها ولا نتعامل معها. وها أنا منذ الآن سأبعد كلمة (التصوف) هذه، من قاموس تعابيري وكلماتي، مع العلم بأن الأسماء والكلمات ليست هي

(١) رواه أبو داود والترمذي من حديث العرباض بن سارية وأوله: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب...

حتي توصف بأنهــا الإسـلام أو هـي البـدع الطارئـة عليـه، وإنمـا الـذي يوصف بهذا أو ذاك، مسميات الأسماء ومضامينها والمعاني التي جـاءت الأسماء والمصطلحات معبراً عنها وخادماً لهـا.. فالمصطلحـات والأسمـاء ليست هي المعنيّ بقول رسول الله ﷺ: «محدثات الأمـور» وإنمـا المعنيّ بهـا المعـاني والمسـميات الـتي تتمثـل في معتقـدات زائغـة أو سـلوكات باطلة.

ولكني، على الرغم من هذا، لن أتعـامل مـع الأسمـاء والمصطلحـات الحديثة الـتي تثـير حساسـية بعـض النـاس الذيـن يتعـاملون مـع الأسمـاء والمصطلحـات والشـعارات أكـثر ممـــا يقفـــون علـــى جوهـــر المعـــاني والمسميات. ولذا فلسوف أحاول أن أشـطب كلمـة (التصـوف) هـذه من ذاكرتي، فإن لم أستطع إلى ذلك سبيلاً، فلا أقل من أن أبعدها عـن قاموس تعابيري وكلماتي خلال رحلتي هذه كلها في خدمة حكم ابـن عطاء الله وتجلية معانيها.

على أن ابن عطاء الله أيضاً لم يـدن إلى هـذه الكلمـة في شـيء مـن حكمه هذه قط. بل إني لم أجده يعرّج علـى هـذه الكلمـة في أي مـن كتابيه (لطائف المنن) و(التنوير في إسقاط التدبير) وهما الكتابان اللذان أتيح لي أن أقرأهما وأستفيد منهما بالإضافة إلى الحكم.

إذن فلننظر فيما سنصغي إليه من هذه الحكـم إلى اللبـاب والمعـاني، ثم لنضع هذه المعاني كلهـــا في مـيزان كتـاب الله وسـنة رسوله. فمـا وافق من ذلك هذا الميزان قبلناه، وما خرج عليه وشرد عنه رددناه.

الإحسان وموقعه من الإسلام والإيمان:

ولرسول الله ﷺ كلام عن الإحسان وأهميته والتعريف به في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب، يقول فيه جواباً عن سؤال جبريل له: « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

فهل سَاءَل أحدنا نفسه عن وجه الحاجة إلى الإحسان، بعد أن وضعنا رسول الله ﷺ أمام حقيقة كل من الإيمان والإسلام؟

وهل تساءلنا عن موقع الإحسان وعن وظيفته بعد وجود كل من الإسلام والإيمان؟

إن سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه البررة الكرام، يبرز كل منهما وجه الحاجة إلى الإحسان، ويبرز الموقع الذي يشغله الإحسان بين قطبي كل من الإسلام والإيمان، لا سيما لدى المقارنة بين حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه من جانب، وحياتنا نحن المسلمين والمؤمنين أيضاً من جانب آخر.

من المعلوم أن أركان الإيمان إنما تغرس يقيناً في تربة العقل، في حين أن أركان الإسلام سلوك يصطبغ به الكيان والأعضاء.

ولكن فما هو السلك الذي ينقل شحنة اليقين العقلي قوة دافعة إلى الأعضاء والكيان الجسدي؟..

لعلك تقول: لا حاجة إلى هذا السلك؛ فيقين العقل بأمر ما، يكفي وحده حافزاً إلى السلوك المناسب له.

غير أن هذا التصور باطل من الناحية العلمية، وهو باطل على صعيد الواقع الدائم المرئي!!..

كثيرون هم الذين آمنت عقولهم بالله، ولكن سلوكهم ناقض مقتضيات هذا الإيمان وخاصمه.. جمع كبير من هؤلاء كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وجموع أكثر من هؤلاء أنفسهم، يملؤون اليوم رحب العالم، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ [النمل: ١٤/٢٧] .

والسبب العلمي في ذلك أن العقل ليس هو الحافز الوحيد في كيان الإنسان إلى السلوك، بل يزاحم العقلَ وينافسه في ذلك العصبيات والأهواء والأغراض، والعواطف بأنواعها، لا سيما «الدافعة»[(١)] وإذا لم يمتدّ بين العقل وكيان الإنسان هذا السلك الذي نتحدث عنه، فإن العقل لا بدّ أن يصبح هو المغلوب والمهزوم في هذا العراك. وعندئذ يصبح زمام السلوك بيد هذه العوامل الأخرى المتمثلة في العصبية والأغراض والأهواء ورياح العواطف المضادّة.

وانظر إلى واقع أكثر الناس، تجده مصداقاً لما أقول.

إذن، فلكي يمتدّ شريان (الإحسان) في عبادات المسلم وقرباته، بحيث يعبد الله كأنه يراه، لا بدّ أن يسري من العقل الذي آمن إلى الأعضاء التي استسلمت وأسلمت، سِلْكٌ من التأثير والفاعلية، بحيث يغدو المسلم يقظاً لحقائق إيمانه متفاعلاً بشعوره معها أثناء النهوض بطاعاته وعباداته.

---

(١) تنقسم العواطف إلى عاطفة دافعة وهي الحب والكراهية، وعاطفة رادعة وهي الخوف، وعاطفة ممجّدة، وهي مشاعر الانبهار بالشيء والتعظيم له.

فما هو هذا السلك؟ ومن أي شيء يتكون؟

إنه الإكثار من ذكر الله وتذكره، والإكثار من مراقبة الله والتنبه الدائم إلى مراقبة الله للعبد.. وخير سبيل إلى هذا التذكر الدائم، والوقوف المستمر تحت مظلة المراقبة الإلهية، ربط النعم بالمنعم، بحيث كلما وفدت إليه نعمة تذكر الإله الذي تفضل بها عليه، وهيهات لسلسلة النعم الإلهية أن تنقطع في لحظة من اللحظات عن العبد؛ إن هذا الإنسان الكريم على الله عز وجل، محاط من الأرض التي يعيش فوقها بآلاف النعم، ومستظل من السماء التي تعلوه بآلاف النعم، ومحشوّ من فرقه إلى قدمه بآلاف النعم، هذا كله بالإضافة إلى النعم الوافدة المتجددة التي لا حصر لأنواعها فضلاً عن عدّها وإحصائها.

فإذا عوّد العبد نفسه وأيقظ ذاكرته لتذكر الإله المنعم المتفضل، كلما أقبلت إليه نعمة منها، أو كلما تعامل مع واحدة منها، واستمر على هذا المنوال، اهتاجت بين جوانحه محبة عارمة لإلهه المنعم المتفضل، إذ إن النفوس مجبولة على حبّ من قد أحسن إليها. وكلما ازداد هذا العبد المغمور بنعم الله ذكراً وتذكراً لربه ازدادت محبته له رسوخاً وازداد تعظيماً ومهابة له.

ثم إن هذه المحبة الراسخة تلعب دوراً كبيراً في طرد محبة الأغيار من القلب، أو في تحجيمها وحصرها في زاوية ضيقة من الفؤاد الذي غدا جلّه ساحة لمحبة الله عز وجل وتجلياته. فتذوب في ضرام هذا الحب عصبيته للذات والمذهب ويتراجع سلطان أهوائه التي كانت مهيمنة على نفسه، وتذبل مشاعره الغريزية التي تتحكم بكيانه وتصرفاته.

ويغدو عندئذ هذا الإنسان مظهراً للمؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٥].

فهل تتصور أن يقبل هذا المحب إلى صلاته دون أن يكون محسناً في أدائها، أي دون أن يشعر بأن الله يراه إذ يناجيه وإذ يركع ويسجد بين يديه؟ أم هل تتصور أن تأتي مشاغله الدنيوية وأهواؤه الغريزية فتحجبه عن تذكر الله ومراقبته وتنسيه نجواه لله في صلاته؟

لا تتصور أن يكون شأن هذا العبد المحب على هذا المنوال، ما دام أن هذا السلك الذي حدثتك عنه قد امتدّ نابضاً بذكر الله عز وجل ما بين مركز الإيمان في العقل ومركز الإسلام في الأعضاء والكيان.

* * *

والآن، من ذا الذي يجهل أن هذا الإحسان الذي دعا إليه رسول الله ﷺ هو لباب الإسلام، بل هو الجامع المشترك بين الإيمان والإسلام؟!.. وهل الإسلام بدون هذا الإحسان إلا كجسد لا روح فيه، أو كتمثال لا حراك فيه؟ وهل يتعايش الازدواج بين شكل الإسلام وألفاظه، والاستغراق في حمأة الشهوات والأهواء، والخضوع للأغراض والعصبيات، في الواقع المعيشي والمرئي في حياة كثير من الناس، إلاّ لأن صلة ما بين العقل المؤمن والكيان المسلم أو المستسلم غائبة أو مقطّعة، لم يمتدّ بينهما سلك الإحسان الذي لا سبيل إليه إلا عن طريق الإكثار من ذكر الله وتذكره بالنهج الذي حدثتك عنه؟!..

وإذا ثبت أن السبيل إلى ذلك هو أن يأخذ المسلم نفسه بالإكثار من ذكر الله الذي هو سلّم الوصول إلى محبة الله، والذي هو المدخل الذي لا بدّ منه إلى تزكية النفس، فهل في المسلمين من يُهَوِّنُ من شأن هذا العلاج، فضلاً عن أن ينكره ويدفع به إلى قائمة البدع والمستحدَثات.

وكيف يتأتّى للمسلم الصادق في إسلامه أن ينكره، والقرآن مليء بالآيات الآمرة بالإكثار من ذكر الله والمحذرة من الاستسلام للغفلات، وبالآيات الآمرة بالسعي إلى تزكية النفس وتطهيرها من أوضارها التي سماها الله «باطن الإثم».

فإذا جاء من يرشد تلامذته ومريديه إلى اتباع هذا السبيل، ونبههم إلى أهمية السعي إلى تزكية النفس عن طريق نقل الإيمان بالله من مجرد قناعة أو يقين مغروس في العقل إلى عاطفة من الحب والخوف والتعظيم تهيمن على القلب، ونظّم لهم إلى ذلك منهاجاً من الأوراد والمأثورات، يأخذون بها أنفسهم، ليخرجوا بذلك من تيه الغفلة إلى صعيد الذكر؛ فالمشاهدة بعين البصيرة، وليتحققوا عندئذ بالإحسان الذي يجعلهم أثناء قرباتهم وعباداتهم كأنهم يرون الله.. أقول: إذا جاء من يرشد تلامذته ومريديه وإخوانه إلى هذا النهج، أفيكون قد أساء صنعاً من حيث إنه نفذ أوامر الله وتعاليم رسول الله في حق نفسه أولاً، وفي حق إخوانه وأصحابه ثانياً؟!..

ومن هم الذين عناهم بيان الله بقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٤١/٣٣]، والذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «لأن يهدي الله بك

رجلاً واحداً خير لك من حمْر النعم» إن لم يكن هؤلاء المرشدون ناصحون في مقدمتهم؟

ثم إذا جاء من يطلق على الالتزام بهذا النهج الرامي إلى هذا الهدف التربوي القدسي، اسم (التصوف) أو (علم السلوك) أو (فنّ التزكية) أفتكون هذه التسمية مزهقة لشرعية المضمون، موجبة لإبطال الحق، وإحقاق الباطل؟!.. على أن بوسعك أن تلتقط المنهج والمضمون وتلقي الاسم والمصطلح وراء ظهرك، أو حتى إن -شئت- تحت قدمك، وبذلك تصلح ما ترى أنه خطأ، وتقوّم ما تعتقد أنه معوج، منهم أن لا تأخذ الجار بظلم الجار، وتعاقب المسمى البريء بجريرة الاسم.

* * *

فإن جاء من يقول: ولكن هذا النهج الإرشادي تسرب إليه مع الزمن كثير من البدع التي لا يقرها قرآن ولا سنة، قلنا له: أنت مشكور على غيرتك على شرع الله أن لا يتسرب إليه دخيل وأن لا يختلط به ما ليس منه.

ولكن الغيرة على الحق لا تتمثل في أن تعود فتأخذ الجار بظلم الجار، وفي أن تزهق الحق من أجل الباطل الذي تسرب إليه.

إن استنكار المشروع من سبل تزكية النفس وبلوغ درجة الإحسان، من أجل البدع التي تسربت إليه، هو دعوة غير مباشرة إلى هذه البدع، وإغراء خفي بقبولها وبالتعامل معها. ولعل من أهم أسباب انتشار هذه البدع وعكوف فئات من الناس عليها باسم التصوف ونحوه، هذا اللون من الاستنكار الذي يهدف إلى هدم الدار كلها، من أجل أرائك غير مريحة فيها!!..

حدّد البدعة التي عثرت عليها ضمن كلٍّ من الطاعة المشروعة، ثم ركز إنكارك عليها، مدافعاً عن بقية الكل، داعياً إليه، منبهاً إلى أهميته، يذوي عندئذ العشب الدخيل، والغصن الطفيلي الضار، ويزهو النبات الأصيل صافياً عن الأوضار والشوائب.

إن المسلمين اليوم في ظمأ شديد إلى العاطفة الدينية التي حرمتهم منها قسوة المتطلبات الدنيوية وفتنة المغريات المستشرية.. فإن أتيح لهم من يهديهم إلى مواردها الشرعية الصافية عن شوائب البدع، فلسوف يركنون إليها ويسعدون بها، ويصلون منها إلى ريٍّ لا غصص فيه. وإن لم يجدوا أمامهم إلا من يصدّهم ويردّهم ويحذرهم من هذه الموارد العاطفية التي داخلتها البدع، دون أن يرشدوهم إلى أي بديل، فلسوف يستجيبون لنداء ضروراتهم الملحة، ويعرضون عن التحذيرات التي لا بديل عنها إلا الظمأ القتال.

ولا شك أن توجيه هؤلاء الظمأى إلى حِكَم ابن عطاء الله وأمثالها، إنما هو توجيه إلى مورد لعاطفة إسلامية صافية عن الشوائب، بعيدة عن عكر البدع والمنكرات، ولسوف توصلهم إن هم أخذوا أنفسهم بنصائحها إلى صعيد باسق من محبة الله وتعظيمه والمخافة منه والرضا عنه والثقة به والتوكل عليه. وهل يصلح إيمان بالله بدون هذا كله؟

والواقع المرئي أمامي خير شاهد على ذلك.. عندما استخرت الله في تدريس حكم ابن عطاء الله في لقاء عام في المسجد، ظننت أن الجمع الكثيف والكثير الذين تعودوا على حضور دروسي سيتفرقون ويعرضون.. زهداً منهم في هذه البحوث التي تنعت على ألسن كثير

من الناس بالتصوف، ولكني فوجئت بنقيض ذلك، لقد ازداد الجمع المواظب تعلقاً وثباتاً، وأقبلت من ورائهم فئات شتى من سائر المشارب والاتجاهات والطبقات، وفيهم من لم يكن ملتزماً بسلوك إسلامي قط.. ساقهم جميعاً الظمأ العاطفي الذي أشعرتهم به الفطرة الإيمانية التي لم يحرم الله منها أحداً من عباده. وكان من حسن الحظ أن المورد الذي اجتمعوا عليه مورد شرعي سلفي سليم خال من الشوائب، وحسبك أنه المورد الذي تمثل في حكم ابن عطاء الله.

فليتق الله أولئك الذين ينتقمون من البناء كله من أجل خطأ في تصميم إحدى نوافذه، أو يحرّمون الطعام الطاهر الطيب من أجل استنكارهم لاسمه!!..

وأعود في نهاية هذه المقدمة، لأذكّر بالعهد الذي قطعته على نفسي، أن لا أتعامل فيما قد فتح الله عليّ من شرح (الحكم) إلا مع المضامين والمسميات، وأن لا أعرِّج على اسم التصوف في قليل أو كثير.

والله المسؤول أن يهبنا من جذوة الإخلاص لوجهه، ومن صدق التوجه إلى معالجة أمراضنا النفسية الوبيلة المهلكة، ما يبصّرنا بضرورة سلوك النهج الذي ذكرته في هذه المقدمة، والذي ستتجلى تفاصيله في الصفحات التالية، بفضل الله وتوفيقه.

* * *

الحكـــم العطائيـــة : شـــرح وتحليـــل / مـــحـــمـــد ســعـــيـــد
رمـــضـــان البـــوطي . - دمـــشق : دار الفكر ، ٢٠٠٠ . -
ج١ ؛ ٢٤ سم .
١- ٢١٨,٩٦ ب و ط ح ٢- العنوان
٣- البوطي
مكتبة الأسد
ع : ١٦١٥ / ٩ / ٢٠٠٠

الحكمة الأولى

«من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل»

الاعتماد على العمل أهو في الشريعة أمر محمود أم مذموم؟

يقول لنا ابن عطاء الله: إياك أن تعتمد في رضا الله عنك وفي الجزاء الذي وعدك به على عمل قد فعلته ووفقت له، كالصلاة، كالصوم، كالصدقات، كالمبرات المختلفة، بل اعتمد في ذلك على لطف الله وفضله وكرمه.

هل هنالك من دليل على هذا؟ نعم، إنه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري وغيره: «لن يُدْخِلَ أحَدَكُم الجنةَ عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

إذن فالعمل ليس ثمناً لدخول الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فالمطلوب إذا وفقت لأداء الطاعات أن تطمع برضا الله وثوابه، أملاً منك بفضله وعفوه وكرمه، لا أجراً على ذات العمل الذي وفقت إليه.

وهنا يقول: ومن أبرز الدلائل على اعتمادك على العمل لا على فضل الله، نقصان رجائك بعفوه تعالى عند تلبسك بالزلل أي عندما تتورط في المعاصي والموبقات.

إن هذا يعني أنك عندما كنت ترجو كرم الله وعطاءه إنما كنت تعتمد في ذلك على عملك فلما قلَّ العمل وكثرت الذنوب غاب

الرجاء!.. فهذا هو المقياس الدال على أنك إنما تعتمد في رجائك على عملك لا على فضل الله سبحانه وتعالى وكرمه.. هذا هو باختصار معنى حكمة ابن عطاء الله رحمه الله.

ثم إن هذه الحكمة لها بُعْدٌ هام في العقيدة، وبعد هام يتجلى في السنة.. في كلام سيدنا رسول الله ﷺ، ولها بعد ذلك بُعد أخلاقي تربوي، وسنأتي على بيان ذلك كله إن شاء الله.

* * *

ولنعلم بهذه المناسبة أن حكم ابن عطاء الله **مقسمة إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول منها يدور على محور التوحيد.

القسم الثاني يدور على محور الأخلاق.

والقسم الثالث يتعلق بالسلوك وتطهير النفس من الأدران.

ولنبدأ ببيان البعد الاعتقادي وتحليله في هذه الحكمة الأولى:

يقول صاحب جوهرة التوحيد:

فإن يُثِبْنا فَبِمَحْضِ الفَضْلِ وإن يعذِّبْ فبمحضِ العَدْلِ

هذه هي العقيدة التي ينبغي أن يصطبغ بها كل إنسان مسلم.. وعلى هذا درج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

قد يقول قائل: بل الظاهر أن الثواب الذي نستحقه إنما هو على العمل الصالح الذي عملناه.

ولكننا لو تأملنا، وأمعنا النظر، في علاقة ما بين العبد وربه، لأدركنا أن الأمر ليس كذلك.

ما معنى قولك: إن الله إنما يثيبني بعملي.. وإنما يدخلني الجنة بعملي..؟ معنى هذا الكلام أن الله عز وجل رصد قيمة للجنة، لا تتمثل في دراهم أو في سيولة مالية، وإنما تتمثل في العبادات والطاعات والابتعاد عن المحرمات. فإن فعلت الطاعات واجتنبت النواهي، فقد بذلت الثمن، ومن ثم فقد أصبحت مستحقاً للبضاعة التي اشتريتها!.. عندما تقول: إنما أثاب بالعمل الذي قدمتُه، فهذا هو معنى كلامك.. فهل الأمر هكذا في حقيقته؟.. أي هل إنك عندما تؤدي الأوامر التي طلبها الله عز وجل منك تصبح مستحقاً للجنة ومالكاً لها بعرق جبينك، تماماً كما يستحق الذي اشترى بضع دونمات من أرض، بقيمة محددة دفعها لصاحبها الذي عرضها للبيع؟!.. لو تأملت لرأيت أن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً.. أنا عندما أدفع قيمة هذا البستان نقداً كما طلب البائع فأنا أمتلك بذلك هذا البستان بدون أي مِنَّةٍ له عليّ، وبطريقة آليّة يقضي بها القانون. ومن حقي أن أقول له: اخرج من أرضي فقد دفعت لك قيمتها كاملة غير منقوصة.

ذلك هو شأن علاقة العبد مع العبد.. أما عندما يأمرك الله سبحانه وتعالى بالطاعات التي ألزمك بها، وينهاك عن المحرمات التي حذرك منها، ويوفقك الله فتؤدي الواجبات وتبتعد عن المحرمات، فإن الأمر مختلف هنا بشكل كلي.. من الذي أقدرك على الصلاة التي أديتها؟ من الذي أقدرك على الصوم الذي أديته؟.. من الذي شرح صدرك

للإيمان؟ أليس هو الله عز وجل؟ وصدق الله القائل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ﴾ [الحجرات: ١٧/٤٩] .

إذن هنالك فرق كبير بين الصورتين. من الذي حبّب إليك الإيمان وكرّه إليك الكفر والفسوق والعصيان؟ من؟ هو الله سبحانه وتعالى.. من الذي شرح صدرك وأقدرك على أن تأتي إلى بيت من بيوت الله فتحضر صلاة الجماعة ثم تجلس فتستمع إلى ما يقربك إلى الله سبحانه وتعالى؟ من؟ هو الله سبحانه وتعالى.. إذن فما يخيل إليك، من أن الطاعة ثمن دفعته من ملكك مقابل امتلاكك لجنة الله تعالى قياساً على الذي دفع أقساط الثمن من ماله الحر لكي يمتلك البستان، قياس مع الفارق الكبير.

إذن فلا يجوز أن تتصور أنك تستحق (تأملوا التعبير الدقيق الذي أستعمله: لا يجوز لك أن تتصور أنك تستحق) جنة الله سبحانه وتعالىوثوابه، لأنك قد قدمت له ما قد طلب، ولأنك قد فعلت ما قد أوجب، وابتعدت عما حرم، لا يجوز لك أن تعتقد هذا. ولو اعتقدت ذلك لكان نوعاً من أخطر أنواع الشرك.

ذلك لأن هذا الاعتقاد يعني أنك تؤمن بأن صلاتك بقدرة ذاتية منك، وأنك تفضلت بها على الله، وأن طاعتك التي أمرك الله عز وجل بها بحركة من كيانك، وكيانك ملك ذاتك، وقدرتك ملك ذاتك، فعملك أنت المالك له، وقدراتك أنت مبدعها وموجدها، والباري لا علاقة له بها. إذن فكأنك فيما تتخيل قدمت له هذه

الطاعات على طبق، وقلت: ها هي ذي أوامرك قد أنجزتها كما تريد، بقدرة وطاقة ذاتية مني فأعطني الجنة التي وعدتني بها.

وهكذا تصبح العملية عملية بيع وشراء.. أعطيتك القيمة ومن حقي إذن أن أطالبك بالثمن!.. هل هذا هو منطق ما بين العبد وربه؟ أين أنت إذن من واقع عبوديتك لله؟.. أين أنت من الكلمة القدسية التي كان يعلمها رسول الله ﷺ أصحابه: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؟. أين أنت من اليقين الإيماني الذي لا ريب فيه بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعال العباد؟.. من الذي يخلق أفعالنا نحن العباد؟ أظن أن العهد لم يطل بنا، في بيان الحق الذي هو عقيدة السلف الصالح، وهم أهل السنة والجماعة الذين يمثلهم الأشاعرة والماتريديون.. إذن فأنا عندما أحمد الله سبحانه وتعالى بلساني؛ ينبغي أن أشكر الله على أن حرك لساني بهذا الحمد.. وإذا قمت من جوف الليل لأصلي، ينبغي أن أثني على الله أنه وفقني للقيام بين يديه.. لولا حبه لي، لولا عنايته بي، لولا لطفه بي، لغرقت في الرقاد، ولما أكرمني بهذا الوقوف بين يديه. ولقد حدثتكم مرة بقصة فتاة صالحة كان تخدم في أسرة، وذات ليلة قام رب الأسرة من جوف الليل فرأى الفتاة تصلي في زاوية من البيت، وسمعها تقول وهي ساجدة: اللهم إني أسألك بحبك لي أن تسعدني.. أن تعافيني أن تكرمني.. إلى آخر ما كانت تدعو به. استعظم الرجل صاحب البيت كلامها هذا، وانتظرها حتى إذا سلّمت من صلاتها، أقبل فقال لها: ما هذا الدلال على الله؟!.. قولي: اللهم إني أسألك بحبي لك أن تسعدني وأن تكرمني وأن... قالت له:

ياسيدي لولا حبه لي لما أيقظني في هذه الساعة، ولولا حبه لي لما أوقفني بين يديه، ولولا حبه لي لما أنطقني بهذه النجوى..

لاحظوا أيها الإخوة: هذا هو التوحيد الذي ينبغي أن يصطبغ به كل منا، كيف تمتن على الله بصلاتك وهو الذي وفقك إليها؟!..

فهذا هو المبدأ الذي عناه صاحب جوهرة التوحيد وكل علماء العقيدة عندما قالوا: «فإن يثبنا فبمحض الفضل» ثم قالوا: «وإن يعذب فبمحض العدل».

قد يخطر هنا في البال السؤال التالي: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢]، ولقد كرر الله تعالى هذا الكلام كثيراً في بيانه القديم؟ وأقول لكم في الجواب ما يزيدكم حباً لله، ويزيدكم انغماساً في مشاعر العبودية له:

إن هذا الكلام قرار من طرف واحد هو الله عز وجل، لا من طرفين متعاقدين.. يوفقك الله للعمل، ويلهمك السداد، وتجأر على بابه بالدعاء: تقول: اللهم لا حول ولا قوة لي إلا بك، ناصيتي بيدك، تصرفها كما تشاء، فخذ بها إلى طريق السعادة والرشاد. فيستجيب الله دعاءك، ويشرح صدرك للخير، ويوفقك للعمل الصالح، ثم يقول لك يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢]، فهل هذا الكلام منه عز وجل يعني تنفيذاً لعقد رضائي جرى بينك وبينه، كالعقد الذي يكون بين البائع والمشتري؟!..

لا، معاذ الله. إنه عز وجل عندما جعل عملك سبباً لدخول الجنة إنما فعل ذلك تفضُّلاً منه وإحساناً.

ولو أنك أبيت إلا أن تتصور أن المسألة بين الله وعباده معاوضة حق بحقٍ، وحملت هذه الدعوى معك إلى يوم القيامة، قائلاً لله تعالى: إنني أستحق الجنة والخلود فيها بأعمالي المطلوبة التي أنجزتها، وشاء الله عز وجل - بناء على دعواك هذه - أن يجرّك إلى الحساب الدقيق، لن يبقى لك عندئذ أي حق مما تدعيه. ولسوف يضمحلّ ذلك كله تحت سلطان عبوديتك لله وافتقارك إلى عونه وتوفيقه.

ولعل أقرب مثال إلى ما أقول ما ينهجه الوالد مع ابنه عندما يشجعه على الكرم وعمل الخير، يقول لابنه: إن أعطيت ذلك الفقير مبلغاً من مال فلسوف أكرمك بهدية، ويأتي الأب بالمال فيضعه خفية في جيب طفل، ويستجيب الولد لطلب أبيه متأملاً ما وعده به من الإكرام، فيعطي الفقير مبلغاً من المال الذي دسه والده في جيبه. فيستبشر والده بذلك، ويعبر عن إعجابه بالكرم الذي اتصف ابنه به، قائلاً: لقد قمت بعمل إنساني عظيم، ولا شك أنك تستحق بذلك أجراً كبيراً ومثوبة عظمى.

من الواضح أن هذا عمل تربوي لبق يأخذ به الوالد ابنه. ولا ريب أن الولد سيعلم فيما بعد، أن المال الذي كان في جيبه إنما هو مال أبيه، وأن الإكرام الذي تلقاه منه باسم المكافأة والمجازاة على عمله الطيب، إنما هو لون من التحبب إليه ابتغاء دفعه إلى مزيد من هذا العمل الإنساني الجميل. فقول الله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢] ليس إلا من هذا القبيل.

ورد في أكثر من خبر أن أحد عباد الله تعالى يقول يوم القيامة: يا رب حاسبني بعدلك وبما أستحق، فأنا عشت حياتي الدنيا كلها لم أعصك يوماً قط. فيذكّره الله بنعمة عينيه الباصرتين اللتين متعه الله بهما، هل أدّيت شكر هذه العين؟ ويوضع فضل الله عليه في ذلك في كفة، وتوضع كافة طاعاته وقرباته في الكفة الأخرى، فترجح كفة الفضل الإلهي على كفة الطاعات والقربات التي أقدره الله عليها.

لو أنك نظرت إلى نعم الله التي عشت حياتك الدنيوية تتقلب فيها لرأيت أن لحظة واحدة من لحظات تمتعك بهذه النعم أكثر وأطم من كل طاعاتك التي قمت بها.. أنت عبد لله سبحانه وتعالى، بقدرته تطيعه، برحمته تسير إليه، برحمته بك تتقرب إليه، إنني لأقول كما كان يقول والدي رحمه الله تعالى في بعض أدعيته: يا رب إني أشكرك ولكنك أنت الذي تلهمني شكري لك، فشكري لك يحتاج إلى أن أشكرك على أن وفقتني لهذا الشكر، وعندئذ يتسلسل الأمر، فأنت الخالق لكل شيء وأنت اللطيف بي في كل الأحوال.

إذن فقول الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢] قرار من طرف واحد. أما نحن فينبغي أن نعلم أننا ندخل الجنة بمحض التفضل منه عز وجل.. تؤدي ما قد كلفك به بشعور الحق المترتب عليك، حتى إذا فعلت ما قد أمرك الله عز وجل به وأنجزته على النحو المطلوب، ينبغي أن تعلم أنك تسعى إلى كرم الله عز وجل مجرداً من أي استحقاق لذلك، ليس معك إلا الطمع برحمته وصفحه. رأى بعض الصالحين في منامه رجلاً من الربانيين بعد وفاته، فقال له –

وقد علم أنه متوفى -: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال: مَ جئتني؟ فقلت: يا رب أنا عبد، والعبد لا يملك شيئاً يأتي به إلى سيده، جئتك بالطمع بعفوك والأمل في كرمك.

أرأيت إلى منطق العبودية؟.. هكذا يكون القدوم غداً على الله عز وجل. من لم يدرك ذلك اليوم، فلسوف يدركه غداً.

وهذا ما قد قرره رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ومن حديث السيدة عائشة وحديث أبي سعيد خدري أن رسول الله قال: «لن يُدْخِلَ أحدَكم الجنةَ عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته». ونلاحظ هنا دقة كلام رسول الله في التعبير عن المعنى الذي بسطناه وأوضحناه. فهو ﷺ لم يقل (لن يَدْخُلَ أحدُكم الجنةَ بعمله) لو قال ذلك، إذن لجاء كلامه مناقضاً للقرآن الذي يقرر أن الله يدخل صالحين من عباده في الجنة بأعمالهم، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢]، وإنما قال: «لن يُدْخِلَ أحَدَكم الجنةَ عملُه» أي إن اعتمادك على العمل مستقلاً عن عفو الله وصفحه، وعن مسامحته وكرمه، سيخيب آمالك ولن يحقق لك شيئاً من أحلامك. ذلك لأن الله هو الذي جعل عملك البخس، طريقاً إلى مغفرته وجنته. والباء في قوله تعالى: ﴿..بما كنتم تعملون﴾ تمد ساقتها فربطتها بالعمل، رحمة الله، كرم الله، سعة عفو الله، لا استحقاقك أنت أيها العبد أياً كنت وأياً كان شأنك ومستواك.

وانظر إلى مثال تَصَدُّقِ أحدنا بشيء من المال على فقير، وتأمل كيف يتجلى سائق الرحمة الإلهية والمغفرة الربانية للباء التي دخلت دخول السببية على العمل: من المعلوم أن المال مال الله، وليس له من مالك حقيقي إلاّ هو. ألم يقل ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣/٢٤] . ثم إنه يخاطبنا قائلاً: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥/٢]. يعطيك من ماله، ثم يفترض أنك أنت المالك الحقيقي له، ويقيم ذاته العلية مقام المقترض منك، قائلاً: أقرضني شيئاً من مالك هذا، إذن أعدك أنني سأعيده إليك أضعافاً مضاعفة!..

فهل تصدق يا هذا أنك أنت المالك حقاً، وأن الله ليس إلا محتاجاً إليك ومقترضاً منك؟!.. أفيمكن أن يبلغ منك السكر بهذا الأسلوب الرباني المتفضل الودود، أن تذهل عن الحقيقة وأن تصدق أنك أنت المالك وأن الله هو المقترض، ثم أن تزعم بأن لك أن تطالب الله بما أقرضته إياه، مضافاً إليه الفوائد التي تعاقدت معه عليها؟!..

إن كنت تتصور هذا، وتنسى أن باء السببية هنا إنما ساقها اللطف الإلهي، فأنت مجنون بكل جدارة!....

إذن فقد أدركنا وتذوقنا معنى كلام سيدنا رسول الله ﷺ: «لن يُدخِلَ أحدَكم الجنةَ عملُه..» إلى آخر الحديث.

ولكن فلنتساءل: هل من تعارض بين أن يعدك الله دخول الجنة برحمته وبين أن يأمرك في الوقت ذاته بعبادته؟

لا تعارض، لأن العبادة حق لله عليك بوصف كونك عبداً له، والجنة منحة وعطية من الله لك، بوصف كونه رحيماً بك وغفوراً لك. وقد قضى بسابق حكمه أن يكون أولى الناس برحمته أكثرهم أداء لحقوقه. وقد أعلن عن ذلك بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦] .

ولا يقولنَّ قائل: ما حاجتي إلى رحمة الله وصفحه إن كنت مؤمناً متقياً؟ لأن الإيمان والتقوى ليس شيء منهما قيمة لعطاء تناله، وإنما هو حق مترتب لله عليك. فإذا أديت الحق الذي له في عنقك، فليس لك عنده بمقابل ذلك شيء، وكل ما ينالك منه تفضل ورحمة وصفح.

والآن، نعود إلى كلام ابن عطاء الله، لنقف على نقطة هامة يحذرنا منها: ((من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل)).

أي إن من أخطر نتائج اعتمادك في مثوبة الله على العمل، نقصان رجائك بعفوه عندما تتورط في الزلل والآثام؛ فبين الأمرين تلازم مطرد. والسبيل الوحيد إلى أن لا يقل رجاؤك برحمة الله وصفحه عند التقصير، هو أن لا تعتمد على عملك عندما يحالفك التوفيق. وعندئذ تكون في كلا الحالين متطلعاً إلى جود الله وكرمه، بقدر ما تكون خائفاً من غضبه ومقته.

إذن فالخوف من غضب الله وعقابه يجب أن يكون موجوداً مع الرجاء الدائم برحمته وفضله، لأن الإنسان أياً كان، لن ينفك عن التقصير في أداء حقوق الربوبية عليه، في سائر التقلبات والأحوال.

ومن ثم فإن الذي يرى أنه من الضعف والتقصير بحيث لا يستطيع أن يؤدي شيئاً من حقوق الله عليه، يتجاذبه شعوران متساويان في كل الأحوال: أحدهما شعوره بالأمل بفضل الله وعفوه، ثانيهما شعوره بالخجل والخوف من تقصيره في جنب الله عز وجل، لا يعلو ويشتدّ الشعور الأول إن رأى نفسه موفقاً للطاعات، ولا يهتاج به الشعور الثاني إن رأى نفسه مقصراً في أدائها متهاوناً في حقوق الله عز وجل، لأنه في كل الأحوال لا يقيم لطاعاته وزناً، ولا يعتمد عليها في الأمل برحمة الله وعفوه. فهو إذن في كل الأحوال بين الخوف والرجاء.

ولعلّ الشيطان يوسوس إليك بأن الطاعات والقربات ليس لها إذن أي دور في تفضل الله على العبد، وإذن فلا فرق بين إقبال العبد إليها وإعراضه عنها!..

ولكن فلتعلم أن هذا الوسواس الشيطاني ليس نتيجة لهذا الذي نشرحه من كلام ابن عطاء الله، ولا لكلام علماء التوحيد في هذا الصدد.. لقد قال الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء..﴾ أفقال بعد ذلك: سأكتبها للناس جميعاً، أم قال: ﴿فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُون﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦] ؟..

هما أمران لا ينفك واقع عبودية الإنسان لله عنهما: أحدهما أن عليه أن يسلك مسالك الهدى والالتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، ثانيهما أن يعلم أنه برحمة الله وعفوه، لا بجهوده وأعماله ينال المثوبة والأجر.

وهذا هو المعنى الجامع الذي يتضمنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢/٢٠] أي الإيمان والعمل الصالح واجبان، والمثوبة تأتي عن طريق المغفرة والصفح لا عن طريق الأجر والاستحقاق.

إنني بحكم عبوديتي لله أنفذ أوامره، تلك ضريبة العبودية لله في عنقي. ثم أبسط كفّيَ إلى السماء قائلاً: يا رب، أنا عبدك وابن عبدك وبن أمتك، ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك رحمتك، لا تعاملني بما أنا له أهل، بل عاملني بما أنت له أهل، إنك أنت القائل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤/١٧] وشاكلتك الرحمة فارحمني، شاكلتك المغفرة فاغفر لي.

أقول مثل هذا الكلام دون أن أطالبه بأجر على عمل أرى أنني قد بذلته. بل أسترحمه بمقتضى ضعفي وشدة احتياجي، وأستجديه العطاء كما يفعل الشحاذ إذ يستجدي احتياجاته من مال أو طعام ممن يأمل منهم الجود والإحسان. هكذا تكون العبودية لله سبحانه وتعالى.

لعلك تقول: ولكن الله يحذر العاصين والمذنبين من مقته وعقابه، فكيف لا ينقص رجائي بعفوه وإحسانه إن أنا ارتكبت موجبات هذا النقصان؟.. كيف وقد شرط الله لنيل رحمته الإيمان والتقوى، عندما قال: ﴿. . فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؟ [الأعراف: ١٥٦/٧].

والجواب أن العاصي الذي يُطْلَبُ منه أن يظل راجياً كرم الله وصفحه، لا يمكن أن يُقبل على الله بالرجاء إلا إن دخل رحابه من باب التوبة.

أرأيت إلى العاصي الذي جاء يطرق باب الله متأملاً صفحه ومغفرته، أيعقل أن يفعل ذلك وهو مصرّ على معصيته مستريح إلى شروده وآثامه؟!.. لا.. من الواضح في مقاييس الأخلاق والمشاعر الإنسانية، فضلاً عن مشاعر العبودية لله، أن هذا العاصي بمقدار ما يزدهر في نفسه الأمل بصفح الله ومغفرته، تزداد لديه حوافز التوبة ومشاعر الندم وعزيمة الإقلاع عما كان عاكفاً عليه.. فإذا تاب هذه التوبة الصادقة، فلا بدّ أن يتنامى الرجاء لديه بصفح الله ولا ينقص. إذ المفروض أنه يقرأ كتاب الله تعالى ويقف فيه على مثل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ٩/١٠٤].

والمفروض أنه وقف على مثل هذا الحديث القدسي المتفق عليه، والذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: «أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

إذن فالتوبة لا بدّ منها، وهي السبيل إلى بقاء الرجاء مزدهراً في نفس العاصي. أما المستمر في عكوفه على الآثام والذي لا تخطر منه التوبة على بال، فالرجاء بصفح الله أيضاً لا يمكن أن يخطر منه على بال.

ثم إنه يتبيّن لك مما ذكرته وأوضحته أن التلبس بعكس ما ذكره ابن عطاء الله، هو الآخر دليل على الاعتماد على العمل. أي فمن ازداد رجاؤه بفضل الله ومثوبته كلما ازداد إقبالاً على الله بالعمل الصالح، فذلك دليل منه على أنه إنما يعتمد على أعماله الصالحة، لا على صفح الله ومغفرته.

وتتجلى خطورة هذا الربط بين تنامي الرجاء، وتنامي العمل الصالح، إذا تصورنا إنساناً يزداد عمله مع الزمن صلاحاً وتزداد طاعاته كثرة، وكلما ازداد ذلك منه ازداد ثقة بمثوبة الله ووعده، ذلك لأن النتيجة التي سينتهي إليها هذا الإنسان، بموجب هذا الربط، أنه في مرحلة معينة سيجزم بأنه قد أصبح من أهل الجنة ومن المكرمين بالنعيم الذي وعد الله به. إذ هو بمقتضى ذلك الربط بين العمل والأجر، لا بدّ أن يعتقد - إذا بلغ تلك المرحلة في أعماله الصالحة - أن عمله كله مبرور وأن حياته مليئة بالطاعات، إذن فهو من أهل الجنة قطعاً!. وهذا هو التألي على الله، وكم وكم حذر منه رسول الله ﷺ.

وإنما سبيل الابتعاد عن هذا المنزلق، العلم بأن حقوق الله على العباد لا تؤدّى بطاعاته مهما كثرت وعظمت، بل إن هذه الحقوق ستظل باقية. ولو أديت حقوقه عز وجل بالطاعات، لكان أولى الناس بذلك الرسل والأنبياء، ومع ذلك فما وجدنا واحداً منهم عقد رجاءه بمثوبة الله بطاعاته وقرباته، بل كانوا جميعاً يتطلعون إلى مغفرة الله وصفحه.

كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام - وهو خليل الرحمن - يرى أنه أقل من أن يكون في مستوى الصالحين من عباد الله، فكان

يسأل الله أن يلحقه بهم قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣/٢٦] وكان يتطلع إلى مغفرة الله وصفحه قائلاً: ﴿رَبَّنا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ [إبراهيم: ٤١/١٤].

وكان يوسف عليه الصلاة والسلام يرى هو الآخر أنه أقل من أن يرقى إلى درجة الصالحين، فكان يسأل الله أن يلحقه بهم وإن لم يكن منهم، أليس هو القائل فيما أخبر الله عز وجل عنه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١/١٢].

أما سيد الرسل والأنبياء فهو الذي يقول كما قد علمت: «لن يُدخِلَ أحَدَكم الجنة عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته».

* * *

إذن، فالإنسان، أياً كان، عندما يوفق للعمل الصالح، إنما يؤدي بذلك جزءاً يسيراً جداً من ضريبة عبوديته لله عز وجل ومن حقوق النعم التي أغدقها الله عليه في الدنيا، وهي نِعم كثيرة ومتنوعة لا تحصى.

فإذا كان هذا الإنسان على الرغم من طاعاته التي وفق لها، لا يزال مثقلاً تحت حقوق الربوبية لله عليه، ومثقلاً تحت حقوق النعم التي

امتنّ الله بها عليه، فأنى له وبأي حجّة يطالب الله أن يكرمه مقابل ذلك بجنان خلده، وبأن يضيف إلى نعمه الدنيوية التي لم يؤد بعد حقوقها النعم الأخروية التي وصفها وتحدث عنها في محكم كتابه؟!..

* * *

وصفوة القول أن الإنسان - بعد أن عرف الله وأدرك أنه عبد مملوك له - يجب عليه أن يعبد الله لأنه عبده ولأن الله ربه، أي سواء أثابه الله على عبادته أم لم يثبه. ثم إن عليه أن يسأله جنته تفضلاً منه وإحساناً، وأن يستعيذ به من ناره وعذابه، تلطفاً واسترحاماً. وتلك هي سيرة رسول الله ﷺ في دعائه.

فلو أن أحدنا قرر في نفسه أنه إنما يعبد الله طمعاً بجنته بحيث لو علم أنه لن ينال على عبادته له هذا الأجر، فسيقلع عن العبادة ولن يبالي بشرعته وأحكامه، فهو غير مسلم ولا مؤمن في ميزان الله وحكمه. إذ إنه يعلن بذلك أنه ليس عبداً لله وإنما هو عبد للجنة التي يبحث عن سبيل ما إليها.

وهنا ندرك سموّ مشاعر التوحيد في مناجاة رابعة العدوية لربها إذ كانت تقول له: «اللهم إني ما عبدتك حين عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك، ولكني علمت أنك ربٌّ تستحق العبادة فعبدتك».

بعض السطحيين ظنّ أن رابعة كانت تعبر بهذا عن استغنائها عن الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين، ومن ثم أطالوا العتب والتشنيع عليها. وهذا تسرع في الفهم وظلم في الحكم!.. فرابعة كانت تسأل

ا لله الجنة وتستعيذ به من النار، وكم كانت في الكثير من مناجاتها تتخوف من عقابه الذي ترى نفسها معرّضة له، وكم كانت تتشوق إلى إكرامه وجنة قربه، ولكنها لم تكن تطلب ذلك أجراً على عبادتها، وقيمة لصلاتها ونسكها. وإنما كانت تسأله ذلك لأنه الغني الكريم ولأنها الفقيرة الراغبة بجوده.

أما طاعاتها وعباداتها، فقد كانت تتقرب بها إلى ا لله لأنه ربها ولأنها أمته. إنها مدينة بحق العبودية له، ومن ثم فإن عبوديتها تلح عليها أن تعبده وأن تخضع لسلطان ربوبيته، لا لشيء إلاّ لأنها أمته ولأنه ربها. وسواء أأكرمها بنعيم جنانه أو زجها في أليم عذابه، فلن تنقض معه ميثاق هذا الالتزام. وكيف تنقضه وهي في كل الأحوال صنع يده وملك ذاته؟..

هذا هو موقف رابعة رضي ا لله عنها.. فهل في المسلمين من يقول: إنه موقف غير سديد؟!.. إذن فالموقف السديد نقيضه، وهو أن نقول: اللهم إني لم أعبدك لأنك رب تستحق العبادة، ولكن لأني طامع في جنتك!.. فهل في الناس المؤمنين با لله، حتى ولو كانوا فسقة، من يخاطب ا لله بهذه المحاكمة الوقحة؟

إننا على الرغم من تقصيرنا وبُعد ما بيننا وبين رتبة أمثال رابعة العدوية، لا يسعنا إلا أن نخاطب إلهنا وخالقنا بالمنطق ذاته الذي كانت تخاطب به ربها، إننا نقول:

اللهم أنت ربنا ونحن عبادك، نعبدك وننقاد لأوامرك جهد استطاعتنا لا لشيء إلاّ لأنك ربنا ونحن عبيدك.. ونحن نعلم أننا مهما استقمنا

عـى صراطـك فلسـوف يظـل التقصـير شـأننا المـلازم لنـا، لا بسـبب ستكبار على أمرك ولكن لأنك قضيت علينا بالضعف.

لسوف نرحل إليك من دنيانا هذه بخروق كثيرة من الزلل والإسـاءة ـ لانحراف، آملين أن نوفق لترقيعها بالتوبة الصادقة النصوح.. سـنرحل ـيك فقراء عرايا إلا من ذل عبوديتنا لك وافتقارنا إليك.

ولسوف يكون جواب كل منا إن سألت، بِمَ جئتني من دنياك الـتي ـمتك فيها؟: جئتك بالأمل في رحمتـك.. بـالأمل في كرمـك، جئتـك ـقيراً إلا من عبوديتي لك، ذلك هو رأس مالي الذي أقف به بين يديـك ـن يجرِّئني عندئذ على استجداء جنتك وكريم عطـائك إلا مـا أعلمـه ـن تفضلك وكرمك وما أعتزّ به من انتسابي بذل العبودية إليك.

وبعد فهذا هو لُبَابُ التوحيد الذي يجب أن يهيمن على مشاعر كل ـسـم بعد أن يستقر يقيناً في عقله. وتلك هي الحقيقـة الـتي عناهـا ابـن عطـاء الله بقوله: «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجـاء عنـد ـجود الزلل».

* * *

الحكمة الثانية

«إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية»

هذه الحكمة تدور على قطبين اثنين: أحدهما ما يسمونه التجريد، والآخر ما يسمونه الأسباب.. فما معنى هاتين الكلمتين؟

يتعرض الإنسان لحالتين اثنتين: الأولى أن يجد نفسه متقلباً تحت سلطان من عالم الأسباب، فأينما تحرك وجد نفسه أمام أسباب لا مناص له من التعامل معها. فهذه التي تسمى حالة الأسباب.

والثانية أن يجد نفسه معزولاً عن سلطان الأسباب، ليس له سبيل إليها، إذ تكون بعيدة عن متناوله وعن المناخ الذي أقامه الله فيه. وتسمى حالة التجرد أو التجريد.

فالمطلوب من المؤمن بالله الساعي إلى تنفيذ أوامره أن ينظر إلى الحالة التي أقامه الله فيها فيتعامل معه طبق تلك الحالة. أي ما ينبغي أن يسرع فيستجيب لمزاجه في التعامل مع نظام الأسباب آناً، والإعراض عنها آناً آخر، دون أن يتبين الحال أو المناخ الذي أقامه الله فيه. إنه -والحالة هذه- إنما يتعامل مع هواه ومزاجه وإن كانت الصورة التي يظهرها من نفسه أنه يستجيب لأوامر الله وأحكامه.

تلك هي خلاصة معنى هذه الحكمة. ولكن فلنفصل القول فيها في ضوء صور من الوقائع التي يتعرض لها كل منا. ولنبدأ **بتحليل الشطر الأول منها «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية».**

رجل أناط الله به مسؤولية أسرة، أكرمه بزوجة، أكرمه بعد الزوجة بأولاد، إذن فهو محاط بأسباب تدعوه إلى البحث عن الرزق وإلى الكدح في سبيله. تصور لو أن هذا الإنسان (وهو يحاول أن يرقى في مستوى الصلاح والتقوى وإلى صعيد التوحيد والتوكل على الله) قال في نفسه: لا حاجة بي إلى السوق والكدح فيه من أجل الرزق، لأني موقن بقول الله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧/٢٩] وموقن بأن الأسباب المادية كلها جنود بيد الله، فَلأَنْقَطِعْ عن مشاغل الدنيا وأسواقها إلى عبادة الله عز وجل. وقطع نفسه فعلاً عن السوق وعن أسباب الرزق والكدح بحجة أنه يسبح مع الله في بحار التوحيد، وأنه يرى المسبب ولا يريد أن يتعامل مع الأسباب!!.. إن هذا الإنسان ينطبق عليه هذا الجزء الأول من حكمة ابن عطاء الله. ولا بدّ أن نذكّره بها فنقول له: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية».

نقول له: عليك قبل كل شيء أن تنظر في الحال أو المناخ الذي أقامك الله.. لقد أقامك تحت سلطان من عالم الأسباب، وذلك عندما جعل منك زوجاً لزوجة، وعندما جعل منك أباً لأولاد، وعندما أناط بعنقك مسؤولية إعالتهم جميعاً. فإذا أعرضتَ عن هذه الحال التي أقامك الله فيها، لتتخذ هذا الموقف، فاعلم أنك في الظاهر تمارس

التوحيد، وفي الباطن ترعى هوى نفسك إذ تمتعها بشهوة من شهواتها الخفية غير المعلنة، متطلعاً إلى أن تتباهى بين الناس بأنك منصرف عن الدنيا إلى الله وأنك لا تتعامل مع الأسباب بل مع المسبب.. وهذا غلط كبير وخطير في ميزان الدين وشرعه. والنهج الصحيح في أوامر الله وحكمه أن تعلم أن الله عز وجل عندما جعل منك رباً لأسرة فقد حمّلك مسؤولية إعالتها. إنك لا تتعامل في هذه الحالة مع الله من أجل نفسك بناء على ثقتك الخاصة به في حق ذاتك وإنما تتعامل معه من أجل أسرتك، زوجك.. أولادك.. وإذا كان لك أن تزعم بأنك تملك من الثقة با لله في حق نفسك ما يجعلك تعرض عن الدنيا وتنقطع للعبادة والطاعة، فبأي حق تجرّ زوجك وأولادك إلى مثل هذه الثقة، وإلى مثل هذا الزهد الذي ارتضيته لنفسك؟!..

قل لهذا الإنسان: إن الله أقامك بين كفتين من ميزان شرعه، عندما قال لك: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزانَ ، أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٩] إنك لا تعيش لنفسك بل تعيش لأسرتك.. والذي يتحكم بسلوكك دينياً هو ميزان الشرع. والشرع يكلفك بأن تهيّئ لها عيشاً رغيداً جهد استطاعتك، وبأن تربي أولادك التربية الجسمية والنفسية والعقلية التامة.. ولكل ذلك أسباب أقامها الله أمامك. ولو أنك أعرضت عن هذه الأسباب، وأنت تعيش في خِضَمِّها، فمعنى ذلك أنك تسيء الأدب مع الله بإعراضك عن نظامه الكوني.. يقول لك الله: سبيلك إلى رعاية أهلك أن تطرق باب الأسباب.. فإذا قلت: لا.. أنا لا أطرق الأبواب، بل أطرق بابك مباشرة، يقول لك الله: دعك من القفز

المباشر إلى بابي، وسر إليه عن طريق ما أقول لك.. انـزل إلى السـوق، اشتغل، اكدح، تاجر، ازرع، اسلك السبل التي يفتحها الله عـز وجـل أمامك.. هذا هو النهج الذي ألزمك به.

فإذا جاء من يقول: لماذا الأسباب؟ أنا مع المسبب.. نقول له: إنك، وأنت في هذا المناخ الذي أقامك الله فيه، تسيء الأدب معه عز وجل، تحقيقاً لشهوتك الخفية، كما قال ابن عطاء الله رحمه الله.

ولهذا اللون من الانحراف صور واقعية كثيرة ونماذج شـتى. ولنذكـر منها بعض الأمثلة:

رجل ذو أسرة وأولاد، يشـتغل في السـوق ولكنـه عندمـا يـأتي إلى الدار يتجه رأساً إلى الزاوية التي أعدَّها للعبادة في بيته، دون أن يلتفـت يمنة ولا يسرة بعد السلام التقليدي يلقيه على من حولـه.. فيقبـل على القـرآن يقـرؤه، أو يتجـه إلى القبلـة يصلّـي النوافـل والسـنن؛ دون أن يباسط زوجته التي تنتظره، وصغاره الذين من حولها!..

أنا لا أتخيل.. أنا أصف واقعاً.. ما حكـم الشـرع في هـذا العمـل؟.. حكمه، هذا الذي يقوله ابن عطاء الله السكندري.

يقول له الشرع: يا هذا لو كنت منفـرداً لا زوجـة لـك، ولا أولاد ولا أرحام، وكانت دارك كمغارة تدخل إليها فلا تجد فيها أحداً تُسَلِّم عليه، إذاً لصحّ لك أن تفعل هـذا، لأن الله لم يعلّـق بعنقـك مسـؤولية أحد، لكن أما وقد أقامك الله في عالم الأسباب وأخضعك لمسؤوليّاتها عندما جعلك ربّ أسرة، فقد كلفك بسلسلة أوامـر شـرعية داخلـة في معنى الميزان الذي ألزمك الله به. استجابتك لهذه الأوامر هي عبادتك،

هي قراءتك، هي تسبيحك وتحميدك وتهليلك.. أن تدخل إلى الدار وقد رسمت البسمة الحارّة على وجهك.. أن تُسَلِّم على من حولك تسليمة الإنسان الودود المشتاق إلى أسرته وأولاده، ثم تجلس إليهم تنثر وتنشر من محبتك بينهم.. تلك هي العبادة التي ألزمك الله بها.. الصورة، صورة دنيا تتعامل بها، وشهوات تمارسها، ولهو تتقلب فيه.. لكن الواقع الكامن وراء هذه الصورة، عبادة تتقرب بها إلى الله لأن الله أقامك من هذه الأسرة في عالم الأسباب، ومن ثم فقد أخضعك لنظامها، ولو قلت: بل سأقفز فوق التعامل مع الأسباب التي لا حقيقة لها أمام سلطان الله وقدرته، وأتعامل مع المسبب، فأدعو الله لزوجتي في السجود بأن يكرمها ويدخل السرور إلى فؤادها ويغنيها عن مجاملاتي ومباسطاتي، إذن فهي قلة أدب منك مع الله عز وجل!..

علمك الله الطريقة التي بها تسعد أهلك، إذ قضى بأن يثيب الناسَ بعضَهم ببعض. يجعل الزوج من نفسه سكناً لزوجته بما ينهض به من الوظائف التي كلفه الله بها، وتجعل الزوجة من نفسها سكناً له، بما تنهض به هي الأخرى من الوظائف التي كلفها الله بها، فيؤجر الله عز وجل كلاً منهما بالآخر، ويتحقق قانونه القائل: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٠] ولو شاء الله لفكّ هذه العلاقة بينهما فلم يُحْوِجْ زوجاً إلى زوجة ولا زوجة إلى زوج، لأن سلطان الأسباب كلها بيده، كذلك شأن الأبوين مع الأولاد وشأن الأولاد مع الآباء، وشأن الخدمات السارية من الناس بعضهم لبعض. قانون أقامه الله ليبتلي الناس بعضهم ببعض، وليكون هذا الربط مصدر مثوبة لهم عند الرعاية والاهتمام، ومصدر عقاب عند الإعراض وعدم المبالاة.

فإذا جاء من يقول: بل أحيل هذه الرعاية إلى الله الذي بيده كل شيء، وأكفي نفسي مؤنة المشاغل الدنيوية التي تقصيني عن أورادي وعباداتي، فلا ريب أنه يتلبس من موقفه هذا بنوع سمج من سوء الأدب مع الله، والتطاول بالنقد على نظامه الذي قضى أن يأخذ به عباده. ولا شك أن مثل هذا الإنسان محجوب عن الله بشهوة من شهواته الدنيوية الخفية، من حيث يحسب أنه يسعى إلى الابتعاد عن الدنيا التي تحجبه عن الله.

وقِسْ على مثال رب الأسرة مع أهله وأولاده، الناس الذين شاء الله أن يقيمهم في عالم الأسباب عندما وَكَلَ إليهم مسؤولية رعاية الأمة في أي من مستوياتها المتفاوتة، أو الذين وَكَل إليهم رعاية الدين في مجتمعاتهم بالتعليم والتثقيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الذين أناط بهم عجلة الاقتصاد أو حمّلهم مسؤولية إحياء موات من الأرض..

هؤلاء وأمثالهم، من الذين أقامهم الله في عالم الأسباب، أي جعل منهم وسائل لمقاصد، إنما تتمثل عبادتهم لله في انقيادهم لما أقامهم الله فيه، وفي القيام بالمسؤوليات التي أناطها الله بهم، بعد القيام بالجامع المشترك من العبادات والطاعات التي خاطب بها الله الناس جميعاً.

ومن الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها كثير من الناس، ما يتصورونه من أن الطاعات والعبادة محصورة في أعمال محدودة معيّنة، فإذا تجاوزها أحدهم وقع في فلك الدنيا وشواغلها!..

غير أن هذه نظرة تقليدية باطلة.. والحق أن العمل الصالح كله عبادة؛ إن استقامت النية وأريد به وجه الله عز وجل.. غير أن صلاح

العمل ناظر للحال التي يمرّ بها الإنسان وللوظيفة التي أقامه الله عليها. يقول ابن عطاء الله تعبيراً عن هذه الحقيقة في واحدة من حكمه: «تنوعت الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال» أي فليس كل عمل صالح صالحاً بالنسبة إلى الناس كلهم. بل يتوقف الحكم بصلاحه أو عدم صلاحه على الحال التي يمرّ بها صاحب الفعل، وعلى الوظائف والمهام التي أقامه الله عليها.

فالعمل الصالح بالنسبة لمن قضى الله له بالانقطاع عن العلاقات الاجتماعية، والابتعاد عن مسؤوليات الأسرة، يتمثل في طاعات وعبادات شخصية تعود بالفائدة إلى ذاته وشخصه هو، أما العمل الصالح بالنسبة لمن قضى الله له بأن يتحمل إحدى المهام السياسية أو الاجتماعية فيتمثل في خدمة أمته من خلال قيامه أصدق قيام بالوظيفة التي أنيطت به، والعمل الصالح في حق من وُكِلَتْ إليه حراسة ثغر أو ردّ لغائلة عدوان، هو الإخلاص بالقيام بما قد وُكِل إليه، وهكذا.. على أن لا ننسى أن هناك قدراً مشتركاً من الطاعات الواجبة يشترك في ضرورة النهوض بها كل الفئات على اختلاف أحوالهم وأعمالهم، كالصلوات المكتوبة والصيام والقدر الأساسي من النسك والأوراد والأذكار.

فهذا هو معنى الشطر الأول من حكمة ابن عطاء الله الثانية، والتي نحن بصدد شرحها. وهو «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية».

أما الشطر الثاني منها فهو قوله:

«وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية».

هنالك أشخاص جرّدهم الله تعالى عن مجال التعامل مع الأسباب، أو هي حالة شرعية أو واقعية تمرّ بهم تبعدهم عن مجال التعامل معها. زيد من الناس مثلاً ليست في عنقه مسؤولية زوجة ولا أولاد ولا أي من الأقارب والأرحام، وعنده بُلْغَةٌ من العيش ومقوماته، يتقاذفه عاملان، يختصمان في نفسه يقول له العامل الأول: ها أنت تملك من أسباب العيش ما يكفيك فلماذا لا تكتفي بهذه البلغة؟ ولماذا لا تستعيض عن المزيد الذي لا حاجة لك إليه من الدنيا بطلب العلم والتوسع في معرفة شرائع الله عز وجل، وتوفير ما لديك من فائض الوقت والجهد للطاعات والقربات وخدمة دين الله عز وجل؟

ويقول له العامل الثاني: قم فاطرق باب المزيد من الرزق، لاحِقْ سُبُلَ الكدح والتجارة، وابحث عن الأسباب التي تزيدك رفاهية وغنى، فإن الله يكره العبد البطال، وقد كان عُمَرُ يلاحق البطالين في المسجد بدرّته.

ترى ما الذي ينبغي أن يفعله هذا الإنسان، ولأي النداءين يستجيب؟ يجيب عن هذا السؤال المقطع الثاني من حكمة ابن عطاء الله، وهو قوله:

«وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية».

معنى هذا الكلام: إذا كنت تريد أن تركن إلى الدعة والكسل عتماداً على ما عندك من بلغة العيش فتأكل وتشرب وتلهو وتنام إلى

أن تموت، فاعلم أن هذه هي حياة البهائم. أمّا إن كان قصدك أن تتجه بعد أن جعلك الله طليقاً من الأسباب وحقوقها عليك إلى دراسة دين الله عز وجل وخدمة شرائعه مستغنياً بذلك عن الوظائف الدنيوية ومسالك التوسع في الرزق فهذا هو النهج الصحيح والسلوك الأمثل، وهو الأليق بأصحاب النفوس العالية وذوي الهمم السامية. ذلك لأن الله – وقد أبعدك عن القرابة والأرحام وأغناك عن الزوجة وذيولها – أقامك من ذلك في التجريد، ولم يقمك في عالم الأسباب.. فخير لك إذن من ملاحقة الأسباب التي أبعدها الله عنك، أن تستجيب للحق الذي يلاحقك، من خدمة دينه ودراسة شرائعه، أو أن تلتحق بصفوف المجاهدين في سبيله، إن تفتحت لك إلى ذلك سبل شرعية صحيحة.

فإن قال هذا الإنسان: ولكن العمل أيضاً عبادة، وقد قال الله كذا وكذا.. وقال رسول الله ﷺ كذا وكذا.. فليعلم هذا الإنسان أن هذا الخاطر الذي يراوده إنما هو تسويل من الشيطان له. وأنه ليس إلا نتيجة انحطاط من الهمة العلية، كما قال ابن عطاء الله.

ولو كان هذا الخاطر ربانياً صحيحاً، إذن لكان علينا أن نسفّه عمل عشرات الوافدين إلى هذه البلدة في كل عام، شباب أشداء ساقهم التجرد من أثقال الأسباب المعيشية إلى التغرب عن أوطانهم، لدراسة الإسلام وأحكام الدين في هذه البلدة التي سمعوا الكثير عن فضلها وبركتها ومزاياها. لقد كان بوسعهم أن يضيقوا ذرعاً بالتجرد الذي أقامهم الله فيه، وأن يتكلفوا البحث عن وسائل لجمع المزيد من المال والثروات، ولكنهم تعاملوا مع التجرد الذي أقامهم الله فيه، وانتهزوا

فرصة تلك الحال التي قد تغيب عن حياتهم ولا تعود، فأقبلوا إلى معاهد دمشق يعكفون فيها على دراسة دين الله، ليعودوا رسل هداية وتعليم إلى أوطانهم.

هؤلاء الشباب، ما داموا لم يقطعوا أنفسهم عن مسؤوليات عائلية أو اجتماعية أو سياسية أناطها الله بهم، عندما جاؤوا ينتجعون علوم الإسلام، في هذه البلدة، فإنا لا بدّ أن ننظر إليهم بعين الإكبار، وأن نعدهم صنفاً متميزاً من البشر، نسترحم الله بهم.

ولكن لو أن رجلاً وضعه الله تحت مسؤولية زوجة وأولاد، أو تحت مسؤولية رعاية سياسية أو اجتماعية لأمته أو أهل بلدته، فترك المهمة التي أقامه الله عليها وجعل منه سبباً لإصلاح حال أو لتحقيق خير، وأقبل إلى مثل هذه البلدة يطلب العلم أو سعى إلى الاندماج في صفوف المجاهدين، فهو مخالف بذلك لنظام الإسلام وهديه، ومتكلف نقيض ما أقامه الله فيه وكلفه به.

ومن هنا نعلم أن الشرع هو الميزان الذي به يعلم حال الإنسان، أهي حال تجرد وتحرر من الأسباب، أم هي حال تقيد بها وتعامل معها. فإن تجاوز ميزان الشرع إلى اتباع ما يحلو له أو تهفو إليه نفسه، إذن لا بدّ أن ينحرف إلى ما سماه ابن عطاء الله «الشهوة الخفية» أو إلى ما سماه «الهبوط عن الهمة العلية».

وإليك طائفة من **التطبيقات التي تبصّرك بهذا القانون الشرعي الدقيق وسبل التعامل معه:**

المثال الأول: مجموعة من الناس توجهوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام. أما البعض منهم فمتحررون من سائر القيود والتبعات والمسؤوليات، متفرغون لأداء هذه الشعيرة، مقبلون إلى مزيد من العبادات والقربات. وأما بعض منهم فأطباء أنيطت بهم مسؤولية الرعاية الجسمية للحجيج ومعالجة من يتعرضون منهم للآلام أو الأسقام، أو متعهدون أنيطت بهم مسؤولية توفير عوامل الراحة والحاجات التي لا بدّ منها لهم.

أما **الطائفة الأولى** فهي تمرّ من الوضع الذي هي فيه بما سماه ابن عطاء الله حال التجرد أو التجريد، فالمطلوب منها أن تقبل إلى ما قد فرغها الله له من كثرة العبادات والقربات والأذكار والاستزادة من النوافل.

وأما **الطائفة الثانية**، فهي تمرّ من الوضع الذي هي فيه بما سماه ابن عطاء الله مرحلة الإقامة في الأسباب. فالمطلوب من أفراد هذه الطائفة التعامل مع الأسباب التي أقامهم الله فيها وألزمهم بها. فالطبيب منهم مكلف برعاية الكتلة التي كلف بالسهر على صحتها ومعالجة المرضى وأولي الأسقام فيها. ومتعهدو الخدمات الأخرى مكلفون بالقيام بما قد تعهدوا به على خير وجه.

فلو أن أحدهم تناسى المسؤولية التي أنيطت به، إذ أقامه الله سبباً لإحدى الخدمات الكثيرة للحجيج، وأمضى أوقاته كلها أو جلّها في البيت الحرام طائفاً ساعياً راكعاً ساجداً يتلو القرآن ويكرر الأذكار والأوراد، مهملاً سببيته التي أقامه الله عليها في خدمة المحتاجين وتطبيب المرضى، فهو مفتئت على شرع الله عابث بنظام هديه، ذلك لأن الله أقامه من الوضع الذي هو فيه، في عالم الأسباب، فتجاهله

وتناساه مصطنعاً لنفسه حالة التجرد التي هو، بحكم الشرع الإسلامي، بعيد عنها.

وكم في الناس من يتورط في هذا العبث، لدى توجههم حجاجاً إلى بيت الله الحرام، يتعاملون مع عناوين الإسلام وألفاظه المضيئة، ويتجاهلون مضامينه ومبادئه الإنسانية القويمة!!..

المثال الثاني: شاب قال له والده: سأقدم لك كل ما تحتاج إليه من أسباب المعيشة على اختلافها، ولن أكلفك بأي نفقة مما تريد أن تعود به إلى نفسك، على أن تتفرغ لدراسة كتاب الله وتعلم شريعته. إذن فقد أقام الله هذا الإنسان في مناخ التجريد بمقتضى ميزان الشرع وحكمه، والمطلوب منه إذن أن يتعامل مع هذا الذي أقامه الله فيه، فينصرف إلى دراسة كتاب الله وتعلم شرعه والتفقه في دينه.

ولا يقال لمثل هذا الإنسان: إن الشرع يأمرك بالتسبب للرزق وينهى عن الركون إلى البطالة.. ذلك لأن الذي يأمره الشرع بأن يغدو إلى السوق فيبحث عن مصدر لرزقه، هو الذي ليس له من يتكفل برزقه واحتياجاته، كوالد ونحوه. أما من قيض الله له متكفلاً لاحتياجاته، كهذا الإنسان فلا يخاطب من قبل الشارع بهذا الأمر، ولأن الشرع يأمر بالتسبب للرزق كي لا يجنح الإنسان عن ذلك إلى البطالة. أما هذا فلم يركن إلى البطالة، بل تحول من السعي في سبيل الرزق الذي تكفل له به والده إلى السعي من أجل معرفة الشرع والتفقه في الدين. وقد قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وأحمد، من حديث معاوية وحديث عبد الله بن عباس ورواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة.

وينطبق هذا المثال عليّ في أول عهدي بالدراسة، فقد صرفني والدي عما كان من المفروض أن أتجه إليه كسائر أندادي، من البحث عن وسائل الرزق وجمع المال، وألزم نفسه بكل احتياجاتي المالية والدنيوية، وقال لي - و لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشر بعد -: لو علمت أن الطريق إلى الله يكمن في كسح القمامة لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله إنما يكون في دراسة دينه وتعلم شرعه، فاسلك إذن هذا الطريق.

وهكذا فقد وضعني الله تعالى من قرار والدي والتزامه، في حالة التجريد بمقتضى الشرع وحكمه.

وقد أقبل إليّ جمع من الرفاق آنذاك، يدعونني إلى السير معهم في طريق الكدح والكفاح من أجل الرزق وجمع المال، ويحذرونني من أن الاسترسال في النهج الذي دفعني والدي إليه، سيجعلني عالة على المجتمع، ويزجني في طريق الاستجداء!..

ولكن الله سلّم ولطف.. فصبرت على النهج الذي سلكني فيه والدي بعد أن التزم بكل احتياجاتي، وأعرضت عن التحذير والإغراءات اللذين لاحقني بهما الرفاق.. فهل كنت بذلك متنكباً عن الشرع أم مطبقاً لحكم الشرع؟.. لم أكن أدري أي جواب عن هذا السؤال آنذاك، ولكني كنت أعلم أنني أنقاد لأمر والدي وتوجهه، وهذا ما يأمر به الله.

أما اليوم فأنا على يقين بأنني بالإضافة إلى الاستجابة لأمر والدي، كنت منسجماً في تلك الاستجابة لشرع الله وحكمه. وهيهات أن

يرضى والدي بهذا الذي اختاره لي ووجهني إليه، لو علم أنه مخالف لشرع الله عز وجل.

ولا شك أنني لم أتعرض لشيء من المخاوف التي حذرني منها بعض الرفاق، بل الذي تعرضت له وانتهيت إليه هو نقيض تلك المخاوف.. سلسلة من المكرمات الإلهية والمنح الربانية لاحقتني من حيث لا أحتسب، وغمرني الله منها بنعم ومنن لا تحصى.

المثال الثالث: رجل أقامه الله من عمله الدنيوي في حانوت أو محل تجاري، يكدح فيه من أجل الرزق يعود به إلى أسرته التي جعله الله مسؤولاً عنها. وهو يعلم أنه إن تعهد متجره هذا كل يوم من التاسعة صباحاً إلى السابعة مساء، فلسوف يكرمه الله برزق وفير ونعمة كافية. إذن فالشرع يقول له:

إن الله قد أقامك من التاسعة صباحاً إلى السابعة مساء في عالم الأسباب، وإنما واجبك التعامل والانسجام معه خلال هذه المدة من كل يوم. وأقامك فيما قبل ذلك من الصباح وما بعد ذلك من المساء في عالم التجريد، وإنما واجبك خلال هاتين الحاشيتين من عملك اليومي، أن تتعامل مع مقتضى هذا التجرد الذي أقامك الله فيه، فتقبل على معارفك الإسلامية تنميها وتتعهدها، وتقبل إلى الطاعات والعبادات والقربات تستزيد منها.

إذن فميزان الشرع هو الذي يرسم حدود الزمن الذي يخضع فيه هذا التاجر لعالم الأسباب، وحدود الزمن الذي يخضع فيه لعالم

التجريد. والمطلوب منه أن يتبين هذه الحدود ولا يفتئت على أي من المناخين أو الزمانين لمراعاة الآخر.

وإني لأذكر عهداً مضى، كان أكثر الذين يَصْفِقُونَ في الأسواق من تجار هذه البلدة، يطبقون هذه الحكمة التي يقولها ابن عطاء الله، بل يقضي بها الشرع والدين، كأدق ما يكون التطبيق، ولأضرب مثلاً بسوق مدحت باشا الذي كان الملتقى الأول لكبار تجار دمشق.

لم يكن هذا السوق يستيقظ للحركة التجارية قبل العاشرة صباحاً، ولم يكن يستمر إلاّ إلى ما قبل أذان المغرب بساعة.

في هذه الساعات من النهار كان السوق يشهد نشاطاً تجارياً عالياً.. فإذا دنت ساعة الغروب، أظلم السوق، وأغلقت الحوانيت، وغابت عنه الحركة ودبت فيه الوحشة، وتحول أقطاب تلك السوق من التجار وأرباب المال ورجال الأعمال، إلى طلاب لعلوم الشريعة تتوازعهم المساجد أو بيوت العلماء. وقد تأبط كل منهم كتابه في الفقه أو التفسير أو العقيدة، معرضاً عن مشكلات التجارة والمال، متجهاً باهتمام ودقة إلى دراسة أكثر من علم من علوم الإسلام.

فإذا أقبل الصباح بدأ كل منهم نهاره طالب علم مرة أخرى، وحضر عدة دروس متتابعة أخرى على أحد الشيوخ الأجلاء في ذلك العصر. ثم عاد كل منهم إلى داره يباسط أهله وأولاده ويتناول إفطار الصباح معهم، ويأخذ قسطه اللازم من الراحة، ليعود في العاشرة تقريباً إلى سوقه التجارية.

إذن، فقد كانت ساعات الليل والنهار في حياة أولئك التجار، مقسومة ما بين عالم التجرد وعالم الأسباب. وكانوا يعطون كل منهما حقه كاملاً غير منقوص. فلم يكن يطغى جانب منهما على جانب.

ولعلّ القارئ الكريم يتبيّن من كلامي هذا صورة غريبة عن واقع أكثر التجار ورجال الأعمال اليوم، أجل، هي فعلاً صورة غريبة، فلقد خلف من بعد أولئك الرجال خلْفٌ أغرقوا أنفسهم في حمأة الدنيا واستسلموا بشكل كلي ودائميّ لعالم الأسباب، غدوّهم ورواحهم حركة دائبة وراء التجارة والمال، ولياليهم وسهراتهم مناقشات ومشاورات حول مشكلات التجارة وعثراتها وسبل التغلب عليها، فإن فاض لديهم عن ذلك وقت، صرفوه إلى الحفلات والمآدب وسهرات الأنس الدنيوي ومتاعب القيل والقال!.. والله هو المأمول والمستعان أن يجذبهم بتوفيق منه إلى ما كان عليه سلفهم قبل أربعين عاماً لا أكثر، من تقسيم أوقاتهم بين عالمي التجريد والأسباب على النحو الذي وصفت والذي لا تزال ذكراه الفواحة العطرة ماثلة في أخيلة الشيوخ بل الكهول من أهل هذه البلدة.

مثال رابع: رجل اتجه إلى إحدى الولايات الأمريكية بقصد الدراسة. ولما انتهى من الدراسة طمع بالمال الوفير، والحياة الرغيدة، فاستمرأ مع زوجته وأولاده العيش هناك، واستجاب لمغريات الوظائف ذات المردود المالي الكبير، ومرت عليه السنوات سعيداً مبتهجاً بعيشه الدنيوي هناك.. أي إنه استجاب لمتطلبات الأسباب القائمة من حوله.

ترى أهو في ميزان الشرع وحكمه قائم في عالم التجريد أم في عالم الأسباب؟.. إن الواقع الذي يواجه هذا الرجل وأهله، هو الذي يحدد الجواب.

وإذا عدنا نتأمل الواقع الذي يتقلب هذا الرجل مع أهله في غماره، نجد أن أولاده ينشؤون هناك تنشئة أمريكية تامة، ربما كان الأبوان مشدودين إلى ماضيهما الإسلامي الملتزم، غير أن من الواضح جداً أن الأولاد مشدودون إلى التيار الأمريكي المتجرد عن أي التزام، كما قد لاحظت لدى زيارتي الأولى للولايات المتحدة واحتكاكي بكثير من الأسر الإسلامية هناك.

إذن فشرع الله يقول لهذا الرجل: ويحك إن الأسباب التي تتعامل معها هنا، غير معترف بها في هدي الله وحكمه؛ فأنت إنما تتقلب هنا في عالم التجريد، وأسبابك الشرعية التي تدعوك للتعامل معها، ليست هذه التي تركن إليها هنا، بل هي تلك التي تنتظرك في بلدك الإسلامي هناك.

وآية ذلك أولادك الذين يبتعدون عن نهجك وبقايا التزاماتك رويداً رويداً، متجهين سراعاً إلى الأفكار والحياة غيرالإسلامية، متعاملين بشغف مع تقاليد الحياة الأمريكية وفلسفتها.

ومثل هذا الرجل لا بدّ أن تصكّ أذنه ثم تسري بالتأثير إلى قلبه حكمة ابن عطاء الله: «.. وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية» إن كانت لديه بقايا من جذوة الإيمان وهديه.

والطريقة الوحيدة لتنفيذه مقتضى هذه الحكمة، هي أن يرحل إلى عالم الأسباب الشرعية التي تنتظره في بلدته الإسلامية التي رحل منها لسبب الدراسة، ثم استمرأ العيش هناك للأسباب المعيشية التي كنت قد ذكرتها.

فإن قال الرجل: ولكني لن أعثر في بلدي على شيء من هذه الأسباب التي تتاح لي هنا، والتي غمرتني بكل ألوان الرخاء، أجبناه بأن قرار الله تعالى يقضي بأن تضحي بأسباب رزقك من أجل سلامة دينك، لا بأن تضحي بسلامة دينك من أجل الحصول على أسباب رزقك.

على أن الله أكرم من أن يتركك لعواقب الحرمان، إن أنت آثرت محافظة على أوامره والالتزام بشرعه، على حظوظك المالية والدنيوية. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾ [النساء: ٤/١٠٠] ربما ابتلاك ليستبين ثباتك وصدق إيثارك، ولكنه لا بدّ أن يكرمك أخيراً بما يسعدك ويرضيك.

ودعني أحدثك بقصة شاب كان يغشى دروس الحكم العطائية هذه في مسجد السنجقدار بدمشق، كانت أسباب الدنيا مدبرة عنه وكان يتقلّب من ذلك في حالة شديدة من الضنك، أي فكان يمرّ بهذا الذي يسميه ابن عطاء الله حال التجريد.. وزيادةً في الابتلاء من الله عز وجل، كانت تواجهه فرص سانحة، الواحدة منها تلو الأخرى، متمثلة أعمال من شأنها أن تفيده برزق وفير، غير أنها لم تكن أعمالاً

مقبولة في ميزان الشرع. فكان كلما لاحت له منها فرصة جاء يسألني عن حكم الشرع في التعامل مع تلك الفرصة. ولقد كنت أقف من استفتائه بين الإشفاق الشديد على حاله من الضنك الذي يعانيه، وبين ضرورة الأمانة مع أوامر الله وأحكامه.. ولكن صدقه مع الله كان يشجعني على أن أقول له: إنك تستشيرني والمستشار مؤتمن، فلا يجوز أن أخونك من حيث أخون دينك الذي أراه غالياً عليك، إن هذا العمل الذي عرض عليك غير شرعي.. فكان يعرض عن تلك الفرصة السانحة ويواصل الصبر على بؤسه وفقره.

وتمرّ به بعد حين فرصة أخرى، ويعود فيسألني عن حكم الشرع فيها، وأنظر فأراها هي الأخرى ملغومة ومحرمة، فأعيد له الجواب ذاته، ويعود هو إلى الصبر ذاته، راضياً بحالة التجريد التي أقامه الله فيها بمقتضى ميزان شرعه.

فماذا كانت عاقبة صبره على تلك الحال؟

فتح الله أمامه نافذة إلى سبب نقي طاهر لرزق وافر كريم، من حيث لا يحتسب، انتقل بحكم ذلك إلى المدينة المنورة، وتزوج، ورزقه الله الأولاد وعاد فاشترى بيتاً فسيحاً في مسقط رأسه دمشق، ومن خلال تعامله الشرعي مع الأسباب أصبح يتردد بين مركز عمله في المدينة، وموطنه وملتقى أهله في دمشق.

استسلم للتجريد طوال المدة التي ابتلاه الله بها، ثم تقبل كرم الله له، عندما نقله من خلال شرعه إلى عالم التعامل مع الأسباب.

* * *

ألا، فلنعاهد الله أن يكون سلوكنا خاضعاً لقانون هذه الحكمة الربانية التي اعتصرها لنا ابن عطاء الله من بيان الله وهدي نبيه: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية».

* * *

الحكمة الثالثة

«سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار»

هذه الحكمة ذيل وتتمة للحكمة التي قبلها وفيها أجوبة عن أسئلة تثيرها الحكمة التي قبلها في الذهن. ودعونا نفسر أولاً هذه الحكمة تفسيراً مجملاً في حدود المعنى المتبادر منها.

«سوابق الهمم لا تخرق أسوار القدر» الهمم هي العزائم التي يمتع الله بها الناس في مجال الإقبال على شؤونهم، من تجارة وصناعة ودراسة ونحوها.. هذه الهمم أو العزائم، مهما اشتدت وقويت، في نفوس أصحابها، فإنها لا تستطيع أن تخترق أسوار الأقدار. والأسوار جمع سور، وهو السور المعروف الذي يحيط بالبلدة. شبّه ابن عطاء الله القَدر الذي قدّره الله في غيبه عليك وعليّ، بسور محكم عالٍ غليظ يحيط بالبلدة، فمهما أراد الأعداء أن يخترقوه من هنا أو هناك لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. أي فأنت لا تستطيع أن تلغي أو تقفز فوق أقدار الله تعالى بهممك ومحاولاتك مهما أوتيت من براعة الحيلة وخوارق القوة.

والمعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله هو التالي: يا ابن آدم اكدح كما تحب وابحث عن النتائج كما تشاء ومارس الأسباب في عالمها الذي أقامك الله فيه، جهد استطاعتك، ولكن فلتعلم أن الأسباب التي تتعامل معها، مهما كانت ذات مضاء وفاعلية فيما يبدو لك، تتحول إلى ظواهر ميتة، إن هي عارضت قضاء الله وحكمه المبرمين في سابق غيبه.

وبادئ ذي بدء يجب أن نتبين بدقة معنى كل من القضاء والقدر ... أكثر الذين فهموا كلاً منهما فهماً باطلاً بل منكساً. ولقد حملني حب... الذريع بحقيقتهما على أن أخرج كتابي الذي أصدرته قبل عدة ... : (الإنسان مسير أم مخير) إذ بسطت فيه هذا الموضوع وأخرجته ... دائرة التعقيد جهد استطاعتي، وأرجو أن يكون قد لعب دوره ... في إزالة الغموض الذي تطاول أمده على هذا الموضوع.

و... أنا، بهذه المناسبة، أعود إلى بيان معنى كل من القضاء والقدر، ... الذي يزيل عنهما اللبس والغموض، ويقطع دابر المشكلات ... الوهمية التي يقوم ويقعد كثير من الناس بها.

فقضاء الله عز وجل: علمه الأزلي بكل ما سيجري في المستقبل. أما ... فهو: وقوع الأشياء وجريانها، طبقاً لعلم الله الأزلي بها. إذن ... الله بالأحداث الكونية قبل وقوعها هو (القضاء) فإذا وقعت ... تقع إلا مطابقة لعلم الله) فذلك هو القدر.

... إن القضاء الذي يتحول اسمه لدى الوقوع إلى (قدر) منه ما يقع ... الله دون أن يكون للإرادة البشرية مدخل أو أثر في وجوده، مثل ... وأنواعها من موت ومرض وعاهات، ومثل الحوادث الكونية ... زلازل وخسف وإعصار وفياضانات.. ومنه ما يتم ظهوره بخلق ... لكن على إثر إرادة وقصد من الإنسان إلى ذلك، كالتصرفات ... الاختيارية التي تصدر من الإنسان والمتمثلة في أنشطته التجارية ... عية والاجتماعية على اختلافها، وفي طاعاته وقرباته الدينية من ... وصيام وحج ونحو ذلك.

والمهم أن تعلم أن كلا هذين النوعين داخل في معنى قضاء الله وقدره إذ كل ذلك إنما يجري بعلم الله وخلقه، وأن تعلم أن خضوع كل شيء لسلطان قضاء الله وقدره، لا علاقة له باختيار الإنسان وجبره. ولسنا الآن بصدد بسط القول في هذا الموضوع الذي له مجاله الخاص به.

والآن، ما علاقة كلام ابن عطاء الله هنا بالحكمة التي فرغنا الآن من شرحها؟ إليك الجواب:

ربّ شخص يعكف على سبب من أسباب الرزق مثلاً، ينصرف إليه ويتعامل معه. ويتبين لدى النظر أنه سبب غير مشروع، فإن جاء مَنْ نَصَحَهُ بالابتعاد عنه وبعدم التعامل معه لعدم شرعيته، ناقشه قائلاً: إن التسبب للرزق مشروع ومطلوب، وإن الله يكره العبد البطال. وربما قال: إنني ملتزم بحكمة ابن عطاء الله. فقد أقامني الله في عالم الأسباب، ومن ثم فلا بدّ أن أتعامل معها.

والجواب يتمثل في هذا الاستدراك الذي يأتي ذيلاً للحكمة الثانية: «سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار».

أي عندما تجد أنك تتعامل مع أسباب غير مشروعة، كأن تجد نفسك في بلدٍ يفور بالمحرمات، ونظرت، فإذا أنت منساق فيه إلى ارتكاب الموبقات، فإن عليك أن تنفض يدك عن تجاراتك وأنشطتك المالية كلها على اختلافها، وأن ترحل إلى مكان لا تلاحقك فيه المعاصي والآثام. فإذا قال لك الشيطان: وهذا السبب الذي قيضه الله لرزقك، أنّى لك البديل عنه إن أنت أغلقت السبيل إليه على نفسك؟

... ومن أين لك أن تجارتي أو وظيفتي في تلك البلدة هي مصدر
...في وهي السبب الحقيقي لنعيمي وعيشي؟!.. أنّى لهذا الوهم أن
...سيطر عليّ وأنا ما زلت أعيش مع قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ
...ق ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨] ومع قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ
... رِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٧] ومع قول رسول الله ﷺ في الحديث
...تفق عليه: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم
...كون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملَك
...ينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله،
...شقي أو سعيد..».

...ذن الرزق الذي سيأتيك مسطّر في علم الله، فهو داخل في قضائه،
... يأتيك منه إلا ما هو مسطّر لك في علمه وغيبه المكنون، وهذا هو
... لله المتفق مع قضائه.

...ما جهودك ونشاطاتك التجارية، فإنما هي خادم لما هو مسطور في
... الله وحكمه، وللقدر الذي سيقع مطابقاً لعلمه.

...ل لشيطانك الذي يوسوس إليك: إذا كان الله قد كتب لي الغنى
...رزق الوفير، فلسوف يتبعني هذا الذي كتبه الله لي أنى ذهبت
... وجدت. وإن كان الله قد كتب لي في سابق علمه رزقاً قليلاً
... محدوداً، فلسوف يبقى قليلاً كما قضى الله عز وجل، مهما
...نت وتقلبت بين المشاريع التجارية، ومهما رحلت أنتجع الرزق
... في غرب العالم وشرقه. ذلك لأن «سوابق الهمم لا تخرق أسوار
...قدار» ولعلك أدركت الآن علاقة هذه الحكمة بالتي قبلها.

غير أن هذه الحقيقة قد تثير لدى بعض الناس السؤال التالي: إذن فيمَ التعامل مع الأسباب، ما دام أنها لا تخرق أسوار الأقدار؟.. فيمَ المشي في مناكب الأرض والسعي من أجل الكدح والرزق؟

والجواب أنك من الأسباب الكونية المختلفة في إحدى حالتين: الحالة الأولى أن تكون الأسباب المشروعة كلها بعيدة عنك غير خاضعة لنشاطك وجهودك، إذن فأنت في عالم التجريد والمطلوب منك الاستسلام والانتظار.. وتكاثر الأسباب غير المشروعة في حكم العدم كما ذكرنا، فالمطلوب منك تجاهلها والابتعاد عنها.

الحالة الثانية: أن تكون الأسباب المشروعة موفورة أمامك ومن حولك، إذن فينبغي أن تقبل إليها وأن تتعامل معها، لا لأنها ذات فاعلية أو مقاومة لقضاء الله وقدره، معاذ الله!!.. بل لأن الله لما أقامك في خضمّها فقد أمرك بالتعامل معها، مع اليقين الذي يجب أن لا يبارح عقلك، من أن الفاعلية إنما هي لإرادة الله وحكمه، لا لتلك الأسباب التي تتعامل معها وكأنك تعتمد عليها. أي فالإقبال على الأسباب المشروعة بالتعامل معها والتقيد بها، إنما هو وظيفة أقامنا الله عليها وأمرنا بها، فالتعامل في الحقيقة معه، لا معها، والآثار المترتبة، إنما هي منه عز وجل، لا منها. وهذا يعني أن الأسباب خدم لقضاء الله وقدره، وليس القضاء والقدر خادمين للأسباب. وهذا هو المعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله في حكمته الثالثة هذه.

* * *

ولنقف عند هذه الحقيقة التي أعلم أن كثيراً من المسلمين لم يستيقنوها بعد، بل ربما تفاجأ باعتقاد أو تصور مخالف، لدى بعض علماء المسلمين أو المشتغلين بأعمال الدعوة الإسلامية؛ يلحّ أحدهم على أن الأسباب الكونية التي نتعامل معها، كالنار والماء والسم والدواء والطعام.. إلخ تحتوي على فاعلية كامنة في داخلها، فإن تذكر عقيدته الإيمانية وأراد أن يتجاوب معها، استدرك وقال: ولكن الله هو الذي أودع فيها تلك القوة أو الفاعلية!..

وأنا لا أريد أن أحاكم هؤلاء الناس إلى منطق علماء العقيدة والكلام لأن في هؤلاء الناس من لا يقيمون وزناً لمنطقهم ولكثير من أقوالهم.

ولكني أذكرهم بقواطع النصوص القرآنية، ثم بما تقتضيه عقيدة التوحيد، أي الاعتقاد بوحدانية الله من حيث الذات والصفات.

أما قواطع النصوص، فأذكّرُ منها بما يلي:

١ً - قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥].

وصف الله عز وجل ذاته بالقيوم، أي القائم بأمر الكون كله على الدوام والاستمرار. أي فما من شيء يتحرك أو يؤثر أو يتأثر إلا بفاعلية مباشرة منه في سائر الآنات واللحظات. فأي فاعلية إذن بقيت بعد هذا للأسباب؟

٢ً - قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٥] أي أن تتحرك الأفلاك والأرض وما بينهما وما قد أودع فيها، وأن تؤدي وظائفها التي أناطها الله بها، بتوجيه وأمر

منه عز وجل. ولا تنس أن كلمة ﴿تقوم﴾ في الآية، وهي فعل مضارع، تدل على الدوام والاستمرار. أي فكل ما تراه من الحركات والتبدلات الكونية، صغرت أم كبرت، إنما يتم لحظة فلحظة بقدرة وأمر من الله عز وجل. وإذا تأملت في هذا الكلام الرباني أدركت أن ما يتراءى لنا أنه أسباب ليس إلا جنوداً محكومة بسلطان الله وأمره، تتلقى القدرة والفاعلية من الله عز وجل لحظة فلحظة، فهل بقيت فيها - مع هذا التقرير الإلهي - فاعلية كامنة منفصلة عن الفاعل الأوحد وهو الله عز وجل؟..

٣ً - قول الله عزل وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٣٥/٤١]. تأمل مرة أخرى في كلمة ﴿يمسك﴾ التي تدل على الدوام والاستمرار. ثم انظر إلى القرار الرباني الذي تنطق به الآية. إنها تقول بصريح البيان:

كل ما تراه وما لا تراه عينك من القوانين والأنظمة الكونية التي تقيم السماوات والأرض على نسقها ونظامها المعروف أو المدروس، إنما يكتسب الدوام والاستقرار لحظة فلحظة بتدبير الله وحكمه. ولو تخلى الله عنها لحظة واحدة لتهاوى واندثر كل شيء، وهيهات عندئذ لكائن أو لسبب ما أن يحلّ محل الله في الفاعلية والتدبير. إذن فالذي يضم كل لاحق مع سابق بسلك ما نسميه السببية هو الله عز وجل، وإنما يتم ذلك، كما عرفنا الآن، لحظة فلحظة. فكيف تكون، والحالة هذه، في مخلوقات الكون أياً كانت فاعلية مستقرة كامنة؟

٤ً – قول الله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٣٦/٤١]. إذا كانت في الفلك المشحون الذي يمخر عباب البحر، فاعلية كامنة مستقرة، فلماذا نسب الله حمل الناس المحتشدين على ظهرها وفي داخلها إلى ذاته العلية، ولم ينسبه إلى السفينة التي فيها قوة مستقرة مودعة؟

إن الآية تعلن أن الحامل للسفينة ومن فيها إنما هو الله. إذن فقد امحى وهم السببية الحقيقية فيها، وآلت فاعلية الحمل والرعاية على الدوام والاستمرار إلى الله عز وجل.

٥ً – ومثله، بل أوضح منه، في الدلالة على الحقيقة ذاتها قول الله عز وجل عن سيدنا نوح: ﴿وَحَمَلْناهُ عَلَى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٥٤/١٣ـ١٤] . لاحظ أن البيان الإلهي هنا عبّر عن السفينة بما تحمله في وهمنا من قوة وفاعلية، بمجموعة ألواح خشبية ومسامير، ليهون لنا من شأنها، وليؤكد لنا بهذا التصوير البليغ أنها بحدّ ذاتها أقل من أن تحقق شيئاً أو تقلّ لاجئاً في ظهرها، ضمن ذلك الطوفان الشامل وتلك الأمواج العاتية، ولكن الله هو الذي حملهم وحفظهم وأنجاهم عليها. إذن فقد عادت السفينة شكلاً لا مضمون له أمام سلطان الله عز وجل.

٦ً – وتتجسد هذه الحقيقة التي تلتقي هذه الآيات على تقريرها وتأكيدها، في الكلمة القدسية التي علمنا إياها رسول الله ﷺ وأمرنا بتكرار النطق بها والتشبع بمعناها، وهي: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

فانظر إلى هذه الجملة الجامعة، كيف نفت جنس الحول كله والقوة كلها، عن كل شيء، وفي كل لحظة، لتحصرهما في ذات الله عز وجل. والمراد بالحول الحركة التي تنبعث من وجود القدرة، فهي مبالغة في نفي القوة التي تبعث على الحركة والتبدل، عن كل المخلوقات أياً كانت، وإثباتها لله وحده؛ فإن رأيت انتشار حركة دائبة في المكونات كلها، فإنما انبعثت فيها الحركة بقوة مرسلة إليها من الله عز وجل لحظة فلحظة. تماماً كانتشار الضوء الذي يسري نهاراً في كل ما تراه من حولك، إنما هو من سريان الأشعة التي تتجه إليها من الشمس لحظة فلحظة، فلو تقلصت عنها هذه الأشعة لاكتست من ذلك ظلاماً دامساً.

بقي أن ألفت النظر إلى المنطق العلمي الذي تقتضيه عقيدة توحيد الله عز وجل من حيث ذاته وصفاته وأفعاله. وهي العقيدة التي يجب أن يدين بها كل مسلم.. ينبغي أن يعلم أن الله واحد في ذاته فليس في الكون إله من دونه، وأن يعلم أنه واحد في صفاته فلا يشاركه مشاركة حقيقية في شيء من صفاته أحد، وأن يعلم أنه واحد في أفعاله، أي فهو وحده الخالق والصانع فلا يشاركه في الخلق والصنع أحد.

فإذا جاء من يعتقد أن في النار مثلاً قوة محرقة أودعها الله فيها، ثم تركها، فهي بهذه القوة الكامنة في داخلها تحرق، فذلك يعني أن في الكون قوة محرقة مستقلة بذاتها، كل ما في الأمر أن الله جاء بها ووضعها في النار لتمارس بها وظيفة الإحراق. إذن فقد أثبتت هذه العقيدة أن في الكون قوة غير قوة الله تشاركه في إقامة نظام الكون

وحكمه وهي قوة الإحراق. وتصبح النار عندئذ كالعقل الأليكتروني الذي يلقَّم المعلومات ليعود فينطق أو يذكِّر بها. ويصبح عندئذ القول في الدواء وفاعليته، والقول في السم وفاعليته، والقول في الطعام وفاعليته، كهذا الذي قلناه عن النار والإحراق، في وهم هؤلاء الناس.. وتصبح سائر القوى والقدر عندئذ مستقلة في وجودها وتأثيرها عن الله عز وجل. وإنما يكون عمل الله تجاهها مجرد الاستعانة بها إذ يوزعها بين الأشياء ويودع كلاً منها في المكان الذي يراه مناسباً له!.. وهل هذا إلاّ شرك صارخ وصريح؟

وهل تقف النصوص القرآنية التي أتينا عليها من هذا التصور، إلا موقف النقيض من النقيض؟!..

* * *

وقد علمت الجواب عن سؤال من قد يقول: ففيمَ التعامل مع الأسباب إذن؟ ولماذا لا نخترقها جميعاً لنتعامل بدلاً منها مع الله، وننتظر حكمه وسلطانه في كل ما نحتاج إليه من غذاء ودواء، ونجاة مما نتوهمه سبباً للمصائب أو الآلام؟

إن الجواب يتلخص في أن التعامل مع الله إنما يكون بالانسجام مع أوامره والتعامل مع نظامه الذي أقام هذا الكون على أساسه.

وقد أمرنا إذا جعنا أن نأكل، وإذا ظمئنا أن نشرب، وإذا مرضنا أن نبحث عن الدواء، وأن نأخذ حذرنا مما يبدو أنه سبب للآلام أو الهلاك أو الأسقام. ثم أمرنا أن نعلم علم اليقين أن لا فاعلية إلا لله،

وأن لا تأثير إلا بحكم الله، وأن نعلم أن الله هو الخالق لكل شيء والآمر له بأداء الوظيفة التي وكلت إليه: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤].

أمرنا أن نتعامل مع ما يبدو لنا أنه سبب وعلة، وأمرنا في الوقت ذاته أن نعلم أن «سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار».

وكم يتجلى انسجام هذه الشريعة التي كلفنا الله بها، مع الحقيقة الاعتقادية التي علمنا الله إياها، في خطاب الله لمريم عندما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿..وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ [مريم: ١٩/٢٥] كانت النخلة السحوق عارية إذذاك من أي ثمر عليها، فأنبت الله فيها للتوّ الرطب الجنيّ أي الطازج، ولاشك أن إلَهها الذي أكرمها بهذه الخارقة قفزاً فوق نظام الأسباب والمسببات، كان قادراً على أن يسقط في حجرها من ذلك الرطب الجني، ما شاء في الوقت المناسب. ولكنه على الرغم من يقيننا جميعاً بقدرته هذه، قال لها: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾!!.. فماذا عسى أن تؤثر يدها الضعيفة بالجذع الراسخ في تخوم الأرض المتصلّب الثابت كدعامة البناء؟!.. مجرد وظيفة كلفها الله بها، ينبغي أن تنفذها في مجال التشريع والنظام، تأدباً مع التوجيه الرباني وتجاوباً مع مقتضيات العبودية لله. أما اليقين.. أما الحقيقة الاعتقادية، فهي أن خالق الرطب في أعلى شجرة النخل الباسقة في غير ميعاده هو الله، وأن الذي يسقطها في حجر مريم ثمراً طيباً جنياً هو الله.

* * *

وانظر إلى الأثر التربوي الذي يتركه التعامل الشرعي مع الأسباب، مع الاعتقاد الجازم بأن لا فاعلية فيها وبأنها خادم لقضاء الله وقدره، إنه أثر تربوي رائع يحققه هذا الانسجام على مستوى كل من النفس والصحة الجسمية، وراحة الفكر والبال.

إن كان في قضاء الله وقدره أن يثمر تعاملك مع الأسباب، وأن تصل من ورائه إلى ما تبتغيه، فاض فؤادك يقيناً بأن المتفضل هو الله، ومن ثم لا بدّ أن يلهج لسانك بشكره وحمده والثناء عليه.

وإن كان في قضائه عز وجل أن لا تصل من وراء تعاملك مع الأسباب إلى ما تبتغيه، فلسوف تعلم أن المسألة عائدة إلى قضاء الله وحكمه، ومن ثم فلن تحيل الأمر إلى جهل منك باستخدام الأسباب على نحو أدق، أو إلى عجز منك في التحايل على الموانع والمشكلات التي واجهتك، أو إلى افتراضات بأنك لو فعلت كذا.. لما كان كذا.. وأنك لو تداركت الأمر على النحو الذي فعله فلان لنجحت كما نجح، ولما وقعت في مغبة العجلة التي داهمتك.

وكم في هذه الأوهام التي تهيمن على أفكار كثير من الناس، ما يزجهم في أمراض جسدية، أو كآبة نفسية، أو إرهاق فكري.

ولكن المؤمن الذي جمع بين الانقياد السلوكي لأحكام الشرع واليقين الاعتقادي بحقيقة القضاء الإلهي، يبقى في نجوة وسلامة من هذه المصائب والآلام. إذ يعلم أن هذا الذي وقع إنما هو نتيجة لقضاء الله وحكمه الذي لا بدّ أن يلحقه ويقع به أينما ذهب وبأي حيلة أو سبب تمسك. فإذا كان ذا ثقة بالله ورضا عنه؛ ازداد راحة وطمأنينة ويقيناً بأن ما انتهى إليه هو الخير.

ولسوف يكون عندئذ مظهر انقياد لوصية رسول الله ﷺ التي يقول فيها: «.. استعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان. ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل»[1].

أخيراً يجب أن تعلم أن خضوع الأسباب لقضاء الله وقدره، لا يعني أن الإنسان لا يملك إذن أي اختيار أمام قضاء الله عز وجل، بل إن مسألة القضاء والقدر لا علاقة لها باختيار الإنسان ولا بعدم اختياره.

ولعلك تبينت هذا من فاتحة حديثنا عن هذه الحكمة، عندما عرّفنا كلاً من القضاء والقدر، ونبهنا إلى الوهم الذي يقع فيه كثير من الناس في فهم معنى كل منهما.

ومع ذلك فإن الأمر يحتاج إلى بيان أكثر تفصيلاً. غير أن المجال هنا لا يتسع لأكثر مما ذكرنا. فإن كنت لم تصل إلى قناعة تامة في هذه المسألة بعد، فارجع في الوقوف على تفصيل وافٍ لها، وابتغاء الوصول إلى فهمٍ ثم قناعة تامة بالحق الذي أوجزت بيانه بشأنها، إلى كتابي (الإنسان مسير أم مخير).

* * *

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. وأوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

الحكمة الرابعة

«أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك»

قد يرى بعض الناس في هذه الحكمة ما يعارض، قول ابن عطاء الله في الحكمة السابقة: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية» إذ هو هناك يدعو إلى التعامل مع الأسباب التي تواجه الإنسان في حياته، والتي يكون التعامل معها بشكل شرعي.. ولكنه هنا يحذره منها ويدعوه إلى أن يريح نفسه من عناء الإقبال إليها، وينصحه بأن لا يتعب نفسه بجهد قد أراحه الله منه.

والواقع أنه لا تعارض في كلام ابن عطاء الله. بل بين ما ذكره في الحكمة السابقة وكلامه هنا منتهى التوافق والانسجام.

هنالك فرق كبير بين التعامل مع الأسباب، وتدبير الإنسان أمور نفسه من خلال الأسباب..

التعامل مع الأسباب جهد عضلي مادي يبذله المتعامل معها، يذهب إلى السوق ليتاجر.. يذهب إلى الجامعة ليتعلم.. يتجه إلى الطبيب ليتداوى.. يبتعد عن أسباب الضر التي حذر الله منها..

أما التدبير فعمل فكري، وقرار عقلي، معناه أن يحدث الإنسان نفسه بأنه بتعامله مع الأسباب قد رتب لنفسه خطة الربح والنجاح وضمن لنفسه النتائج، فالأسباب في نظره خدم تحت سلطانه وأدوات

لتدبيره، وعقله هو مفتاح نجاحه ومصدر تدبيره. ألا تراه يقول: أرح نفسك، بدلاً من أن يقول: أرح جسمك أو أبعد جسمك.

فالتعامل مصدره الجسم والأعضاء، وهو مطلوب ومرغوب.

والتدبير مصدره النفس والفكر، وهو مرفوض ومكروه.

ومن تلاقي هاتين النصيحتين: الإيجابية والسلبية يتكوّن النهج الإسلامي في حياة المسلم. يخرج إلى السوق فيعمل كما يعمل الآخرون، ويقبل على الأسباب التي تنتصب في طريقه فيقدرها ويتعامل معها طبق التعاليم الشرعية.. فإذا جاء من يسأله: ماذا تتوقع من وراء أنشطتك وأعمالك هذه، قال له: واجبات كلفني الله بها، أديتها كما طلب. ما الذي سيخلقه الله من وراء ذلك؟ إنه عائد إلى تدبير الله وحكمه. وأنا مستسلم لقضائه راض بحكمه.

هذا هو النهج الإسلامي الذي يذكّر به ابن عطاء الله. تعاملٌ مع الأسباب القائمة، بما يتفق مع الشرع، وتسليم لحكم الله وتدبيره مع ذلك وبعد ذلك.

وبوسعك أن تتبين هذا النهج في حياة قدوتنا المصطفى ﷺ.. انظر إلى شأنه يوم هاجر إلى المدينة المنورة مصطحباً معه صاحبه أبا بكر رضي الله عنه.. تعامل في هجرته هذه مع الأسباب كلها، حتى لكأنه يوقن بأنها الشرط الذي لا بدّ منه لنجاح هجرته. خرج متخفياً، ترك علياً رضي الله عنه ينام في فراشه حتى يظن المشركون أنه رسول الله ﷺ فلا يتعقبونه ويبحثون عنه، ترك راعي أبي بكر يسير بأغنامه وراءهما لتعفي الأغنام على آثار مشي رسول الله ﷺ وصاحبه، أقاما

ثلاثة أيام في غار ثور، ريثما ينقطع الطلب في الطرقات عنهما، عهدا إلى رجل من المشركين مأمون الجانب أن يلقاهما في ميقات معين عند غار ثور، وهو (عبد الله بن أرقط) ليدلّهما على الطرق الخلفية إلى المدينة.. فهذا هو التعامل التام مع الأسباب.

وفي أثناء اختفائهما في الغار، وصل جمع من المشركين في أثناء بحثهم عن رسول الله ﷺ إلى الغار، وأصبحت فتحة الغار تحت أبصارهم، واضطرب أبو بكر، وهمس في أذن رسول الله ﷺ قائلاً له: لو أن أحدهم نظر عند قدمه لرآنا، فقال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».. ولما خرجا من الغار وواصلا سيرهما متجهين إلى المدينة، أدركهما سراقة على فرسه قاصداً بهما الشر، كما ورد في الصحيح، وأخذ يتلفت أبو بكر إليه وقد داخله من ذلك الخوف على رسول الله ﷺ، ورسول الله ماض في سيره لا يلتفت يسرة ولا يمنة، يواصل قراءته، معتمداً على حماية الله وتدبيره.. وهذا هو إسقاط التدبير والاعتماد على تدبير الله.

مارس الأسباب وتعامل معها خضوعاً لأمر الله وانسجاماً مع النظام الكوني الذي أقامه الله عز وجل، ثم نسي الأسباب وقيمتها، وربط النتائج، في يقينه الاعتقادي، بحكم الله ولطفه، مع ثقته التامة بحكمته ورحمته وتوفيقه.

إذن، فهذا المشهد النبوي يشرح لك قول ابن عطاء الله: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك» ويوضح مدى الانسجام بينه وبين قوله: «إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية».

ورد أن عليّ بن الحسين رضي ا لله عنهما كان له متجر في السوق، وكان ذا تجارة واسعة، وكان إذا حان وقت الصلاة ترك متجره واتجه إلى المسجد للصلاة. وذات يوم، وبينما هو في المسجد يصلي إذ جاءه من يخبره أن النيران اشتعلت في السوق، وأنها بدأت تلتهم متجره!..

لم يكترث عليّ رضي ا لله عنه بالخبر وظل مقبلاً على صلاته فرضاً ونافلة وذكراً وتسبيحاً، كعادته دائماً. ثم أقبل عائداً إلى السوق آمناً مطمئن البال.

فانظر إلى تعامله مع الأسباب كيف يتجلى في نشاطه التجاري في متجره وسوقه التجارية. وهي الوظيفة التي أقام ا لله عباده عليها.

ثم انظر، كيف جرّد نفسه من التدبير وإمكاناته، وأحال ذلك، بقناعة تامة مطلقة إلى تدبير ا لله وحكمه، عندما أدى وظيفته التي كلفه ا لله بها، ثم اتجه إلى الوظيفة الكبرى التي خلق ا لله الإنسان من أجلها، وهي الصلاة والعبادة.

لم يلتفت عندئذ إلى الأسباب، ولم يكترث بها، لأنه كان قد انتقل آنذاك من مجال الأسباب والتعامل معها إلى ساحة التجريد. فأعطى كلاً من الحالين حقه، ولم يخلط واحداً منهما بالآخر، ووكل في سائر الأحوال التدبير - أي خلق النتائج - إلى ا لله عز وجل.

أراح رضي ا لله عنه نفسه من التدبير، بعد أن اطمأنّ إلى أنه لم يدّخر وسعاً في التعامل مع الأسباب، موقناً بأنه لن يجري في السوق كله، بما فيه محله، إلا ما قد قضاه ا لله. ولن تخترق محاولاته التي قد يُدْعَى إليها على أمرٍ قد أبرم ا لله فيه حكمه وبتّ فيه قضاءه، ومطمئناً

إلى أن الخير فيما قد قضاه الله، ففيم الجزع والاضطراب والانصراف عن الإقبال على الخالق الرازق المدبر لأداء العبادة التي خلق من أجلها، إلى جهد من الأسباب لن تعود إليه بأي طائل؟!..

ربّ مجادل يقول: ألم يكن عليه وقد جاءه الخبر بالنار التي أخذت تسري إلى محله، أن يختصر صلاته، ويكتفي بالفريضة دون النوافل وذيولها، ليحاول بما يمكن، حجز متجره عن النيران؟

والجواب أنه لو كان آنذاك منصرفاً إلى بعض شؤونه الدنيوية، إذن كان عليه فعلاً أن يبذل جهده في استخدام الأسباب التي تصون متجره، لأنه يتحرك في عالم الأسباب ومن ثم فإن عليه أن يتعامل معها.

ولكنه كان -كما علمنا- منصرفاً إلى أداء حق الله، متجهاً إلى وظيفة العظمى التي خلق من أجلها، إنه إذن مع الله في عالم التجريد. وقد انتهى من وظيفة التعامل مع الأسباب، إلى وظيفة الواجبات التي كلفه الله بأدائها، وما قد يتبعها من سنن ومندوبات. وقد علم أن التدبير ليس عائداً إليه ولا إلى شيء من جهوده ولكنه عائد إلى الله عز وجل.. إذن فليس ثمة أي مبرر (وقد أقبل يباشر وظائف عباداته) أن يعرض عنها بعد إقبال، وأن يتجه إلى دنياه ومتجره بعد إعراض.

* * *

ولكن هل من اليسير أن يخضع أحدنا شعوره وسلوكه لهذه الحكمة؟

هل من اليسير أن تستجيب مشاعري وأعصابي، بعد اقتناعي، لنصيحته هذه: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك، لا تقم به لنفسك»؟!..

قد يقتنع عقلي نظرياً بهذا النصح، بعد الذي شرحناه وبيناه. ولكن استجابة المشاعر والأعصاب والوجدان له، عسير جداً. إذ الإنسان نزَّاع دائماً إلى وضع ذاته، من شؤونه كلها، في موضع المدبر والمحقق للنتائج والأهداف. فإذا لاحت له بوادر لا ترضي ولا تتفق مع طموحاته وأهدافه، أخذ القلق بمجامع نفسه، وأخذت المشاعر والأفكار تطوف برأسه، باحثاً في نفسه عن كل ما يملك وما لا يملك من السبل والأسباب، فلا تصفو له في هذه الحال عبادة، ولا يذوق لذّةً لذكر أو طاعة أو قراءة قرآن. هذا إن كان لديه ما يشده إلى القربات والعبادات في مثل هذه الحال. بل لا يصفو له، والحالة هذه، عيش مع أهله، ولا يهنأ له رقاد في عينيه.

فما العلاج الذي ييسر هذا العسير؟ ما العلاج الذي يجعل المشاعر والوجدان تتشرب هذه الحكمة تفاعلاً معها، كما خضع لها العقل إيماناً بها؟

علاج ذلك يتمثل في الإكثار من ذكر الله، أي تذكره ومراقبته، وخير سبيل لذلك ربط النعم بالمنعم جلّ جلاله، والتزام ورد دائم منتظم من قراءة القرآن بتدبر وتأمل.. هذا العلاج ينمي محبة الله في القلب، ويزيد الإنسان ثقة بحكمة الله ورحمته ولطفه. فإذا داوم المسلم على هذا العلاج وأخذ نفسه به، وابتعد جهد استطاعته عن الفواحش

والآثام، فإن مشاعره الوجدانية تتشرب نصيحة ابن عطاء الله هذه ويتذوقها ويركن إليها.

إذن فالمسافة الفاصلة بين الإيمان النظري بهذه الحكمة، والتفاعل السلوكي معها، تتمثل في العكوف على هذا العلاج والمداومة عليه.

فإذا قطعت هذه المسافة، ذقت حلاوة هذه الحكمة، وتعاملت معها بسعادة وطمأنينة بال!.. إذا طرق بابك طارق يخبرك بمشكلة وقعت في متجرك أو بمشروعك، فلسوف تعود بذاكرتك إلى ماضي علاقتك مع متجرك أو مشروعك، متسائلاً: هل قصرت في النهوض بالوسائل والأسباب التي كان عليّ أن أنهض بها؟.. وتتبين أنك بحمد الله وتوفيقه لم تقصر في شيء من ذلك، وأنك نفذت أوامر الله في التعامل مع الأسباب واستخدامها إلى النهاية، إذن فلسوف تنام قرير العين هادئ البال، مطمئناً إلى أن المشكلة ليست مسؤوليتك، وإلى أن حلها ليس بيدك، وإنما الأمر كله بيد الله. أما وقد قمت بواجبك ونهضت بالاحتياطات التي هداك الله إليها، فلسوف تحملك الثقة بحكمة الله ورحمته، مع الحب الذي تنامى بين جوانحك لذاته العلية، على الاستسلام لحكمه وقضائه موقناً أنه لن يختار لك إلاّ الخير، إن لم يكن كذلك في ظاهره، فهو بلا شك خير في باطنه ومآله.. وبذلك توفر لنفسك سكينة القلب وراحة الأعصاب وسرور القلب وبشاشة الوجه... واستمرار العافية رهن بهذه الأسباب.

ولست أنسى يوماً كنت عائداً فيه إلى دمشق، وأدركتني صلاة المغرب في مشارف حمص، فصليت المغرب في جامع سيدنا خالد بن

الوليد، ولما انتهيت من الصلاة، واتجهت للخروج من المسجد، واجهني داخلاً إليه رجل أسمر اللون ذو ثياب رثة، واحد من هؤلاء (الدراويش) الذين لا يؤبه بهم.. أقبل إليّ بابتسامة تغمر وجهه، وقد بدت الفرحة على أساريره، قائلاً: ما لك؟.. ما لك لا ترقص فرحاً؟ ألا تعلم أن الله مولانا؟ ألا تعلم؟.. إننا لسنا يتامى في جنبات هذا الكون!.. ثم تركني وهو يتمتم منتشياً بهذا الكلام!.. ووقفت أتأمل، وتذكرت قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١/٤٧]. فداخلني من هذه الآية التي ذكرني بها كلام هذا (الدرويش) طرب هزّ كياني كله، تصورت كيف أني منسوب إلى الله بولايته لي، وهي تعني الحماية والرعاية والرحمة والتربية.. وكيف أن المعرضين عن الله والمستكبرين عليه بالجحود، يتامى قد انبتت عنهم ولاية الله عز وجل، تتقاذفهم أمواج الوحشة الكونية وترهق أعصابهم مجاهل الغيوب التي لا مفرّ لهم من داخل أقطارها.

لقد اتخذت من كلام ذلك الرجل، ومظهره الذي كان كتلة فرح وطرب وابتهاج، واستسلام لعذوبة ولاية الله له - اتخذت من لقياه عبرة ودرساً لي، وآمل أن يكون درساً لأمثالي وإخواني جميعاً، نحن الذين يشملنا شرف التلاقي تحت مظلة الولاية الربانية، والمثول تحت جناح رحماته وألطافه العلوية.

أجل.. ما الذي يخيفك ويقلقك، من تقلبات الدنيا وأحوالها - بعد أن تؤدي وظيفتك في التعامل مع الوسائل والأسباب المشروعة - إن

كنت قد وقفت وقفة المستيقن بقول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١١] وبقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]؟..

عندما تتمتع بهذا اليقين، ستغمرك النشوة بهذا التحبب الرباني إليك، ولسوف يقيمك الطرب ثم لا يقعدكَ، عندما تسمع هذه الأبيات التي كثيراً ما يتغنى بها المنشدون، دون أن تحدث أي أثر في نفوس أكثر المستمعين:

كُنْ مع اللهِ تَرَ الله مَعَكْ   واتركِ الكُلَّ وحاذِرْ طَمَعَكْ
لا تُعَلِّقْ بسواهُ أَمَلاً   إنما يَسْقيكَ من قد زَرَعَكْ
فإذا أعطاكَ؛ مَنْ يَمْنَعُهُ؟   ثُمَّ مَنْ يُعْطي إذا ما مَنَعَكْ؟

* * *

الحكمة الخامسة

«اجتهادك فيما ضُمِنَ لك، وتقصيرك فيما طُلِبَ منك، دليل على انطماس البصيرة منك»

دعونا، قبل أن نبدأ بشرح هذه الحكمة، نجب عن سؤال أخٍ استشكل ما قلناه في الدرس الماضي أو الذي قبله، من أن هذه الأشياء التي نسميها أسباباً، ليست فيها قوة أودعها الله فيها، فبها تؤثر في الأشياء، وبها تتحقق سببيتها، بل إن التأثير آتٍ من عند الله لحظة فلحظة، أي عندما تقترن بمسبباتها. يقول هذا الأخ: فإذا كانت النار مثلاً باردة في أصلها لا تحرق، فلماذا أخبرنا الله بأنه قال لها، يوم قذف بسيدنا إبراهيم فيها: ﴿..يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْراهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٩].

أقول لهذا السائل: إن النار بطبعها، أي قبل أن يوجهها الله إلى أي وظيفة، ليست فيها حرارة ذاتية ولا برودة ذاتية. ولكنها تتلقى من الله تعالى الأمر بالإحراق عندما يشاء فتحرق، وتتلقى منه الأمر عندما يشاء بغير ذلك فتستجيب لأمر الله وحكمه.

فإذا توجه أمر الله إلى النار بأن تكون برداً وسلاماً، فليس في ذلك دلالة على أنها كانت قبل ذلك تختزن طبيعة الإحراق في داخلها.

أرأيت إلى قوله لها: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْراهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٩] ، هل يستلزم ذلك أن تستقر فيها طبيعة البرودة النسبية هذه على الدوام؟ ليست في هذا الخطاب ما يستلزم ذلك قط. بل العكس

هو المفهوم، خلق البرودة فيها عندما شاء ذلك، واستمرت البرودة فيها، بخلق مستمر لها، طوال مشيئة الله ذلك.

فكذلك الحرارة المحرقة. هي الأخرى تتحقق بأمر صادر من الله عز وجل، وتستمر الحرارة والإحراق، مع استمرار توجه الإرادة الإلهية النافذة إلى هذا الحكم. ولو تخلّى الله عز وجل بحكمه عن النار، ولم يوجه إليها أمره بمهمة ما، في أي لحظة من اللحظات، إذن لما رأيت فيها أياً من معاني الحرارة ولا البرودة، ولتخلّت عما توهمته وظائف وأوصافاً لها.

وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: أصدق ما قاله لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أي يكفي - كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى - لبطلانها وتلاشيها مجرد تخلّي الله عنها[1].

فلا تخدعنك أوهام المعتزلة الذين أخذوا دهراً من الزمن بسمادير الفلاسفة، ثم أنقذهم الله منها وأيقظهم إلى بطلانها.

* * *

نعود الآن إلى الحكمة الخامسة، ونستلهم الله عز وجل ما ينبغي أن نقوله في شرحها.

يقول الله عز وجل: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُون ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦-٥٨].

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله: ٢/٤٢٥ .

ويقول عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ [طه: ١٣٢/٢٠].

تنطق هاتان الآيتان بما يلي: أقام الله الإنسان على وظيفة يؤديها لذاته العلية، هي أن يمارس عبوديته لله عز وجل بالسلوك الاختياري، كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري.. وأقام الله عز وجل ذاته العلية على وظيفة يؤديها تجاه الإنسان، يضمن له بها مقومات حياته ورغد عيشه.

فما الذي تقتضيه هذه القسمة من المسؤوليات؟

مقتضى هذه القسمة أن ينصرف الإنسان (المؤمن بالله طبعاً) إلى الوظيفة التي عهدت إليه وكلف بها، مقابل التزام الله عز وجل بما قد تعهد له به، من توفير مقومات عيشه وتسخير المكونات التي حوله لمصالحه ورغائبه. ذلك لأن هنالك شيئاً طلبه الله منا، وشيئاً آخر ضمنه الله لنا. ومن أوضح البدهيات أن علينا في هذه الحالة أن نصرف الجهد ونرهق الفكر في أداء الوظيفة التي كلفنا بها، وأن نطمئن بالاً إلى الضمانات التي ألزم الله ذاته العلية لنا بها. فلا نشغل بذلك فكراً ولا نحمل أنفسنا منه عنتاً أو اضطراباً.

ولكن في الناس من يجتهدون ويجدون ويرهقون أنفسهم فيما قد ضمنه الله لهم، ويعرضون عن الوظيفة التي طلبها الله في مقابل ذلك منهم. وهذا دليل - كما قال ابن عطاء الله - على انطماس البصيرة من هؤلاء الناس.

وهو إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على عدم الثقة بوعد الله وما قد ضمنه للإنسان كما يدلّ على الرعونة النفسية التي تهيمن على كيانه وتفكيره.

* * *

ومن أهم ما يجب علمه أنه ما من مخلوق، حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً إلا وأقامه الله تعالى على وظيفة، فهو منصرف إليها عاكف عليها. تأمل في أصغر الذرات أو الجزيئات التي لا تتبينها إلا بالمجهر، ثم تدرج منها إلى ما هو أكبر فأكبر، إلى أن تصل إلى أكبر الأجرام من الكواكب والمجرات، وسرح نظرك في عالم البهائم على اختلافها، وفي عالم الطيور وحيوان البحار، تجد كلاً من هذه المخلوقات قائماً على وظيفة أقامه الله عليها، لا يشرد عنها ولا يتمرد عليها. وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٢٤/٤١] وهو معنى قوله عز وجل على لسان موسى خطاباً لفرعون: ﴿ رَبُّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٢٠/٥٠] أي أعطى كل شيء مظهره الذي أفرغه فيه، ثم هداه إلى المهمة التي كلفه بها.

والإنسان ليس بدعاً من هذه المخلوقات، فهو الآخر هُدِيَ إلى المهمة التي خلق من أجلها. إلا أن سائر المخلوقات الأخرى من دون الإنسان تمارس وظيفتها بالقهر والاضطرار أو بالغريزة والطبع. أما الإنسان فقد قضى الله عز وجل أن يخلق مختاراً ذا حرية وإرادة، وأن يسعى بعد ذلك إلى أداء وظيفته والقيام بمهامّه من خلال حريته واختياره، دون أن يكون للغريزة سلطان قاهر عليه. وذلك تكريماً

وتنزيهاً له عن أن يساق كالحيوانات العجماوات، إلى وظيفته، بعصا الغريزة القاهرة.

ولذا فإن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يكثر فيه الشاردون بل المتمردون على الوظيفة التي كلف بالنهوض بها، في حين أن سائر المخلوقات الأخرى على اختلافها ماضية في العكوف على وظائفها والمهامّ التي خلقت من أجلها. إذ الإنسان يمارس وظيفته من خلال حريته ومدى رغبته، فظروف الإعراض عنها، كظروف الإقبال إليها، سانحة. أما غيره من المخلوقات الأخرى فيمارس وظيفته من خلال القسر التكويني كما هو شأن الجمادات والنباتات، أو من خلال الدافع الغريزي كما هو شأن الحيوانات العجماوات، فظروف الإعراض عنها مغلقة غير سانحة. وانظر إلى مصداق هذا في قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ..﴾ [الحج: ١٨/٢٢] .

من الواضح أن المراد بالسجود الخضوع للوظائف التي أقام الله المخلوقات عليها. فانظر إلى بيان الله عز وجل كيف عمّم خضوع المخلوقات كلها بأنواعها التي ذكرها، للوظائف التي أقامها الله عليها، حتى إذا تحدث عن الإنسان، أوضح أن في هذا الجنس الطائع والعاصي.. فيهم الخاضع لحكم الله وأمره، وفيهم المتأبي على حكمه الشارد عن المهام التي كلفه الله بها، ولذا عطف على سائر المخلوقات الساجدة لله عز وجل كثيراً من الناس، و لم يعطف عليها كل الناس،

وأكد هذه البعضية بقوله بعد ذلك: ﴿..وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ [الحج: ٢٢/١٨].

* * *

والعجيب في حال الإنسان أنه بدلاً من أن يزداد إقبالاً على المهام والوظائف التي كلّفه الله بها، وأن يكون أكثر انقياداً لها من الحيوانات العجماوات التي لم يمتعها الله بحرية السلوك والقدرة على الاختيار، يتخذ في كثير من الأحيان هذه المزية التي متّعه واختصه بها، سبيلاً للشرود عن أمره والتمرد على حكمه.

وما هي الوظيفة التي أقام الله الإنسان عليها؟

هي أن ينهض بعمارة الأرض التي أحياه الله عليها على النحو الذي بيّنه وشرعه له، طبقاً لقوله عز وجل: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ [هود: ١١/٦١].

واتباعه في ذلك للنهج الذي شرعه الله تعالى **يحقق أمرين اثنين**:

أحدهما ممارسة العبودية لله بسلوكه الاختياري كما قد خلق عبداً له، بواقعه الاضطراري.

ثانيهما أن الأرض تُعْمَرُ عندئذ عمراناً مادياً وحضارياً على وجه سليم يسعد الناس مجتمعاً وأفراداً، ويمدّ فيما بينهم جسور الود، وينشر فوقهم مظلة العدالة والأمن.

يضاف إلى هذا كله أن الله الذي أقام الإنسان على هذه الوظيفة التي ما أقامه عليها إلاّ لخيره وإسعاده، ضمن له في مقابل ذلك مقومات عيشه وأسباب رغده وأدار الكون الذي من حوله لخدمته ورعايته!..

أليس من أعجب العجب، ومن أشد ما يبعث على الحياء والأسف، أن يعرض الإنسان - بعد هذا - عن الوظيفة التي لم يكلّف بها إلا لخيره ومصلحته، وأن يقبل بدلاً عنها إلى ما قد ضمنه الله له من أسباب رزقه ورغد عيشه، فيضحي بوظائفه سعياً وراء ما قد تكفل له الله به من ذلك كله؟

يقول الله له: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ [طه: ١٣٢/٢٠] فيعرض عن أهله وأولاده، غير مبال بتربيتهم ورعاية دينهم وسلوكهم، معتذراً بأنه لا يملك مزيداً من الوقت الذي يصرفه لتجارته وملاحقة رزقه، لرعايتهم وتربيتهم.

يقول الله له: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥/١٧] فيتلاعب بالكيل والوزن، ويمعن في الغش وأسبابه، أملاً في أن يصل إلى ما قد وعده الله به، إن استقام على العدل، ولكنه يأمل ذلك عن طريق الظلم والفساد والغش.

يقول الله عز وجل للإنسان: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧/١٦].

فيعرض عن العمل الصالح الذي أمره الله به، ثم يبحث عن الحياة الطيبة، في مراتع اللهو ومنعرجات الفسوق والعصيان.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً..﴾ [النور: ٢٤/٥٥].

وتتأمل في حال فريق كبير من الناس، وإذا هم معرضون عن وعد الله بهذا الاستخلاف إن هم أنجزوا أوامره ونفذوا وصاياه وأحكامه، ويبحثون للوصول إلى هذا الاستخلاف والحكم في الأرض، عن كل ما يتخيلونه من الوسائل والأسباب الأخرى، وربما وضعوا أنفسهم موضع المهانة في استجداء هذا الذي وعدهم الله به، من أعدائهم ومن الأمم أو الدول المتسلطة عليهم!!..

والغريب أن تجربة هذا الإعراض عن الوفاء بعهد الله، مقابل ما ألزم الله به ذاته العلية من الوفاء بعهدهم، يتجلى للعيان سوء نتائجها، وخيبة آمال أصحابها بها، ومع ذلك فإنهم يمعنون، في هذا الإعراض عما كلفهم الله به من الوظائف، ويواصلون المضيّ في تجاربهم الفاشلة، التي تنقلهم من ذل إلى ذل، وتزيدهم بعداً عن الهدف الذي يطمحون إليه. فهل في التصرفات التائهة ما هو أعجب من هذا التصرف؟

ولو أن أحداث التاريخ لم تكن شاهداً عملياً لصِدْق وعد الله عباده، إن هم صدقوا معه في إنجاز ما قد كلفهم به، لربما كان في الوعد النظري ما يبعث على الريبة والشك، نظراً لضعف ثقة المسلمين اليوم بوعود خالقهم ومولاهم.

ولكن تاريخ هذه الأمة، ينطق واقعه بشهادة تجلجل على أسماع الدنيا كلها، بصدق وعد الله عز وجل فيما أخبر والتزم!..

كان المسلمون في صدر الإسلام حفنة من عرب الصحراء، فلما أصغوا إلى خطاب الله لهم، وتبينوا الوظيفة التي حمّلهم الله إياها، وآمنوا بألوهيته ووحدانيته، ووثقوا بوعده وحكمه، وسعوا سعيهم الجاد إلى أداء وظائفهم التي كلفوا بها فمارسوا عبوديتهم لله بالسلوك الاختياري، كما قد فطروا عليها بالواقع الاضطراري، أنجز الله لهم الوعد الذي ألزم به ذاته العلية (ولا ملزم له جلّ جلاله) في مثل قوله عز وجل: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤].

فأزاح عن طريقهم امبراطوريات الروم والفرس واليونان، وأقام من تلك الحفنة من عرب الصحراء قادة وحكاماً لشعوب تلك البلاد، وأورثهم أرضهم وديارهم بكل ما فيها من ذخر وخيرات!..

وإن المتأمل في تاريخ ذلك الرعيل، ليعجب بالوفاء الذي بادل الله به وفاءهم، في أحداث ناطقة بهذه الحقيقة لا تحتمل أي ريب.

وإن من أبرز مظاهر هذا الوفاء وآثاره، قول عمر لأبي عبيدة، وقد وصل عمر إلى مشارف الشام مرتدياً مرقعته المعروفة التي كانت تحوي ما لا يقل عن اثنتي عشرة رقعة، والتي أثارت عتباً خفياً همس به أبو عبيدة في أذن عمر:

«نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»!..

ألا، فلتعلم هذه الأمة، أن كل حرف من هذه الكلمات، يرتل نشيد وفاء مع الله عز وجل، تجاه ما قد أنجزه لتلك الحفنة من الوعد الذي

قطعه على ذاته العلية لها.. هذا بالإضافة إلى الذوق العالي الذي تتألق
به هذه الكلمات وتزدان به معانيها. لو أن عمر كسا جسمه ثياب
الأبهة والفخار، وأقبل إلى أباطرة الشام مزهواً بها، لكان في ذلك ما
يشعر بأن العرب (وإنما عمر ممثل لهم في ذلك الموقف) إنما انتصروا
وتغلبوا، بهذه الفخامة والمظاهر، وفي ذلك تزييف للسبب الحقيقي،
وتناسٍ للفضل الإلهي الذي نصرهم مع ضعفهم، وأغناهم من فقر،
وأعزهم من ذل. إذن يجب أن يراهم أباطرة الشام على حالتهم التي
كانوا عليها، حتى يعلموا أن اليد التي انتشلتهم وسمت بهم إلى هذا
الشأو الباسق، إنما هي يد الله عز وجل. وحتى يكون ذلك بمثابة
إعلان منهم، بأنهم ليسوا مدينين في ذلك كله إلا لمنة الله وفضله!..

ذلك هو الشعور العالي الذي كان يساور عمر الذي أصرّ أن لا يراه
زعماء الشام وأباطرته إلا بتلك المرقعة التي تنطق لهم بحقيقتين اثنتين:

أولاهما: افتقار العرب إلى أدنى مقومات النصر وتجرُّدُهم عن كل
أسبابها المادية الطبيعية.

الثانية: اليد الإلهية التي رفعت لهم شأناً وخلدت لهم ذكراً وأورثتهم
(وهم يتمرغون في ضعفهم وفقرهم) أجلّ درجات القوة والغنى.

أما نحن اليوم، أحفاد ذلك الرعيل، فلا نحن بالوظيفة التي كلفنا الله
بها ننهض، ولا بوعده الذي قطعه لنا نثق، ولا بذلك الواقع التاريخي
الناطق نعتبر!.. نتطوح ذات اليمين وذات الشمال، ونطرق كل
أبواب المذلة ما عدا باب الله المعزّ!.. وتزيدنا التجارب التائهة
خسارة إثر خسارة، دون أن نعود من هذه التجارب الخائبة والمخيبة،

إلى الباب الذي دلنا عليه الله، وإلى العكوف على الوظيفة التي خلقنا الله لها وأقامنا عليها!..

وكأني ببعض من يطلع على ما أقول يستشكل أو ينتقد قائلاً.

ألم تقل في شرحك المطول للحكمة الثانية: إن على المسلم أن يمارس الأسباب وأن لا يعطلها؟.. ألم تؤكد أن الإعراض عن الأسباب مع انتظار أن يخلق الله النتائج من دونها، سوء أدب مع الله عز وجل؟..

إذن فلا بدّ من الاجتهاد فيما ضُمِنَ لنا، وذلك بأن نسعى وراء أرزاقِنا ومصالحنا الدنيوية عن طريق الأسباب التي أقامها الله أمامنا.

والجواب يتلخص في أن الاجتهاد المذموم في نيل ما قد ضمنه الله للعبد، يتمثل في أن يجعل من انشغاله بأسباب دنياه صارفاً له عن القيام بوظائفه وواجباته الدينية المختلفة.. يدعو الداعي إلى المسجد لشهود صلاة الجماعة فيعرض عن الداعي وعن صلاة الجماعة لانشغاله بأسباب تجارته أو زراعته أو وظيفته، حتى إذا أوشك وقتها أن يزول، أقبل إليها إقبال من يريد التخلص منها بأقل ما يمكن من دقائق، هذا إن تذكرها ووجد لديه حافزاً لتداركها قبل الفوات!.. تلاحقه أوامر الله بأن يربي أولاده، وأن ينشئهم في ظل التعاليم الإسلامية، وأن يدخل حب الله وتعظيمه في قلوبهم، وأن يراقب سلوكهم أن لا يشرد عما قد أمر الله به، وأن لا يجنح إلى ما قد نهى الله عنه، فيعرض عن هذه الوظيفة، محتجاً بأن مشاغله الدنيوية، أياً كانت، لا تترك له وقتاً كافياً لذلك، ويترك أهله وأولاده لرياح المجتمع وتخبطاته ومغريات الشهوات

والأهواء!.. يطلب الله عز وجل منه أن يتعلم إسلامه وأن يتفقه في دينه وأن يتلو كتاب الله تلاوة صحيحة متقنة بتدبر وتمعن، فيعود إلى الإعراض والاعتذار بأن المشاغل التي تلاحقه لا تترك له فضلة وقت يلتفت فيها إلى تلاوة القرآن أو التفقه في الدين أو دراسة شيء من علوم الإسلام!.. ومن المعلوم أن مشاغله هي الدنيا التي تكفل الله له بها، وما يلح في الإعراض والاعتذار عنه، هو الوظيفة التي خلقه الله عز وجل من أجلها!..

فهذا هو مراد ابن عطاء الله باجتهاد المسلم فيما قد ضمنه الله له، وإعراضه عما قد كلفه الله به.. أن يضحي بالتكاليف التي خلق من أجلها، لحاقاً وراء الدنيا التي ضمنها الله له.

أما الذي يقبل إلى واجباته الدينية التي كلفه الله بها في حق نفسه وفي حق أهله وأولاده، فيتعلم أحكام دينه ويتشبع بمعرفة عقائد الإسلام ودلائلها، ويتعلم القرآن تلاوة ثم دراية وتفسيراً، ويقبل إلى أهله وأولاده فيربيهم التربية الإسلامية التي أمره الله بها، ثم يقبل إلى الدنيا فيمارس أسباب رزقه حسب ما قد أقامه الله فيه، وينشط في اكتساب رزقه بالطرق المشروعة التي أمكنه الله منها، فإن مما لا ريب فيه أن نشاطه هذا وإن كان في ظاهره دنيوياً إلا أنه في حقيقته جزء لا يتجزأ من الوظيفة التي كلفه الله بها. لا سيما إن اتجه منه القصد إلى تلبية أمر الله عز وجل بالكدح والسعي من أجل الرزق، وذلك في مثل قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ٦٧/١٥].

بل إن هذه الأنشطة بهذا الضابط الذي أوضحته، وبالقصد الذي ذكرته، تغدو نوعاً من الجهاد في سبيل الله.

روى الطبراني في معجمه الصغير والكبير من حديث كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ خرج ومعه جمع من الصحابة فرأوا رجلاً قد بكر إلى العمل، ورأوا من جَلَدِهِ ونشاطه ما أعجبهم، فقال أحدهم: ويح هذا، لو كان في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

«إن كان خرج يسعى على ولدٍ له صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أهله فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى تفاخراً أو تكاثراً فهو في سبيل الشيطان».

إن اسم العبادة ليس خاصاً بالصلاة والصيام والحج وما هو معروف ومحفوظ من أحكام الإسلام وتوابعه من نوافل القراءات والأذكار، بل هو شامل لكل سعي يُبتغى منه التقرب إلى الله. فإذا تحقق هذا القصد فإن كافة أنواع التجارات والصناعات وكل أنواع الفلاحة والزراعة والبناء، جزء لا يتجزأ من العبادة، بل إن خوض غمار السياسة والنهوض بمسؤولياتها المتفاوتة، من جوهر العبادة ولبها.

ولكن فلتعلم أن القصد إلى بلوغ مرضاة الله بذلك؛ لا يكون إلا حيث تكون هذه الأعمال والأنشطة كلها مشروعة مباحة، ثم إنه لا يكون أيضاً إلا بعد التنسيق مع الواجبات الأساسية الأخرى، من سائر أنواع العبادات والنسك التي تمثل أركان الإسلام وذيوله وآدابه، وفي

مقدمة ذلك كله العكوف على معرفة الإسلام متمثلاً في مصدرَيْه القرآن والسنة، وفي معرفة أحكام الشريعة الإسلامية الأساسية والمتعلقة بكل فرد.

وإلا فكيف يكون السعي اللاهث وراء التجارة أو الصناعة أو الأنشطة السياسية، سعياً في سبيل الله أو لوناً من ألوان العبادات والقربات، إذا كان صاحب هذا السعي غافلاً عن صلواته ونسكه، معرضاً عن دراسة الإسلام وتعلم عقائده وأحكامه؟!.

مثل هذا الإنسان لا يعقل أن يكون قصده من أعماله وأنشطته الدنيوية التقرب إلى الله عز وجل، إذ لو وجد هذا القصد لديه حقاً، لساقه سوقاً، إلى حضور الجمعات والجماعات، وإلى مجالس العلم وحلق الذكر.

إن أكثر الأنشطة الدنيوية التي يلهث وراءها أبطالها اليوم، بعيدة كل البعد عن حال من وصفه رسول الله ﷺ بأنه في سبيل الله. إنك تنظر فتراهم يعرضون ناسين أو متناسين أوامر الله تعالى ووظائفهم الأولى التي خلقوا من أجلها. يقدحون زناد الفكر للتفنن في السباق اللاهث إلى أعلى درجات الغنى، والفوز بأبهى أنواع البذخ والمتع، وهم بأبسط أحكام دينهم جاهلون، والرسالة القرآنية المبعوثة إليهم من الله عز وجل مطروحة ومنسية وراء ظهورهم، غريبة ألفاظها عن ألسنتهم، مجهولة المعاني من عقولهم.. إنهم حقاً مظهر صادق لقول ابن عطاء الله: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك».

ودعوني أقل لكم ما يلي:

يلاحقني كثير من هؤلاء الأغنياء المترفين، بالدعوات المتلاحقة إلى حضور حفلات يقيمونها بمناسبة عقود نكاح أو أفراح أخرى، في بعض من هذه الصالات الفخمة التي تعرفون.. فأستجيب لما تتاح لي الاستجابة إليه منها.. غير أني أقول لهؤلاء الداعين وأمثالهم الموجودين في الحفل، من خلال الكلمة التي أدعى إلى إلقائها:

ها أنا أستجيب جهد استطاعتي لدعواتكم، فهلاّ استجبتم لحفلاتي التي أدعوكم إليها، مع العلم بأن دعواتكم تستبطن غاية دنيوية ونجاحاً في سباق إلى حظ من حظوظ النفس، أما دعوتي فهي متجهة إليكم باسم الله عز وجل، إلى حضور درس من الدروس العلمية التي تقربكم إلى الله، وتصعد بكم من حمأة هذه الدنيا ومنافساتها وصراعاتها، إلى صعيد من النشوة والانتعاش بذكر الله.

ثم إني أحسن الظن وأنتظر الاستجابة، وألتفت باحثاً بين وجوه الآلاف الذين يغشون درسي في شرح هذه الحكم أو غيره، فلا أرى إلا المقبلين إلى الله من الشباب وذوي الدخل المحدود من عامة الناس. أما تلك الطبقة المتميزة، فلا أجد منها أحداً في مثل هذه المجالس، إنهم يتقنون فن الدعوة إلى حفلاتهم الباذخة، وأسلوب النقد والعتب الشديد إن تغيبت و لم أستجب، ولكنهم لا يعرفون أبداً السبيل إلى المجالس التي من خلالها يمكنهم النهوض بالوظيفة القدسية الكبرى التي خلقوا من أجلها.

* * *

وصفوة القول في فهم هذه الحكمة على الوجه الشرعي السليم، تتمثل في قول الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ ، رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٦ - ٣٨].

لاحظ أن الله وصف هذه النخبة من الناس بقوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع..﴾ أي إنهم أولئك الذين لا تصدّهم تجاراتهم وأسواقهم ولا تشغلهم عن وظائفهم الدينية التي أقامهم الله عليها وكلفهم بها. والمعنى أنهم يعطون هذه الوظائف حقها من جهودهم وأوقاتهم، دون أي إعراض عنها أو تقصير فيها، فإذا انتهوا من أداء هذا الحق كاملاً غير منقوص، تحولوا بعد ذلك إلى دنياهم وشؤونهم التجارية، يؤدون من خلال أنشطتهم فيها واجباً كلفهم الله به.

كل هذا تدركه من قوله جلّ جلاله: ﴿لا تلهيهم﴾ وكم من فرق بينه وبين ما لو قال: «لا يشتغلون بتجارة ولا بيع..».

الكلمة القرآنية: ﴿لا تلهيهم﴾ تقول ببيان مركّز وبليغ موجز: اجعلوا وظائفكم الدنيوية دائرة في فلك واجباتكم الدينية.. وعندئذ تتحول دنياكم التي كانت تشغلكم عن الله إلى دين يقربكم إلى الله عز وجل.

ثم إن هذا الحكم الرباني الذي يتجلى في هذا النص القرآني، قبل أن يبرز حكمة في كلام ابن عطاء الله، ينطبق على الأفراد، وعلى المجتمعات متمثلة في القادة والحكام.

في كلا الحالين يجب أن تدور الأنشطة الدنيوية المختلفة في فلك الواجبات والوظائف الدينية التي أقام الله عباده عليها.

والضمانة التي ألزم الله بها ذاته العلية، لمن سعى بجدٍّ في تنفيذ الوظائف التي كلفه الله بها، تنطبق على المجتمعات كما تنطبق على الأفراد.

وإن تاريخ هذه الأمة خير مظهر لهذا التطبيق، في كل من حالتي الطرد والعكس.

انظر إلى شأن الرعيل الأول من قادة هذه الأمة وحكامها: فتح الله أمامهم مغاليق الدنيا، وأخضع لهم الحضارات، وبدد أمامهم القوى، وفجر لهم عوامل الغنى من داخل الفقر، ونسج فيما بينهم وحدة ظلت مضرب المثل؛ عندما أقاموا من أنفسهم خدماً لدين الله، وجعلوا من أنفسهم جنوداً لأداء الوظيفة التي كلفهم الله بها، وصدقوا الله فيما بايعوه عليه وألزموا أنفسهم به. فصدق فيهم قول الله عز وجل:

﴿..لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤/١٣-١٤] وينطبق هذا على كل الذين جاؤوا بعد ذلك الرعيل الأول، سائرين على نهجهم، في القيام بالوظائف التي أقامهم الله عليها وكلفهم بها، من أمثال نور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، وعثمان أرطغرل مؤسس الخلافة العثمانية، ومحمد الفاتح معجزة عصره -كما يقول الأوربيون- وفاتح القسطنطينية، وعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في قلب الديار الأوربية.. إلخ.

ثم انظر إلى أولئك الذين ذاقوا لذة الدنيا، ممن جاؤوا على أعقابهم، أو سبقوا بعضاً منهم، فسكروا بها وركنوا إليها، ونسوا الوظائف المقدسية التي كلفهم وشرفهم الله بها، فجعلوا ديدنهم جمع المزيد ثم المزيد من المال، وتشييد القصور الباذخة، والتقلب في فنون المتع والنعيم، متوهمين أن مفاتيح الأبواب إلى متعهم وشهواتهم، هي ذاتها مفاتيح الأبواب إلى قوتهم وانتصاراتهم!.. إلام آلت عاقبتهم؟

كانت عاقبة أمرهم خسراً، كما قال الله تعالى، أفقرهم الله على الرغم من الأموال المكتنزة في باطن أراضيهم، وأذلهم الله على الرغم من القوة المادية وأشعّة الأبهة التي تزدان بها قصورهم وجباههم، ومزق الله شملهم وأقام عوامل النزاع فيهم محل نسيج الوحدة الذي كان جامعاً لأشتاتهم. ثم إن الله أقصاهم من ساحة الأحلام والآمال الدنيوية التي جعلوا منها بديلاً للنهوض الجادّ بما قد كلفهم الله به، وسلّط عليهم أعداءهم الذين توجهوا إليهم من كل نافذة وصوب!.. فلا هم بالأمانة القدسية التي عهد الله بها إليهم نهضوا، ولا على أحلامهم وأمانيهم الوردية الضبابية عثروا. ودونك فتأمل في جنبات العالم العربي والإسلامي، هل تجد إلا مصداقاً بيناً دقيقاً لما أقول؟!..

والمصيبة كل المصيبة تتمثل في انطماس البصيرة الذي أودى بقادة الأمة إلى سوء هذا المنقلب. إذ أنساهم مصدر عزهم الذي هو الإسلام، فتنكروا له وأعرضوا عنه، ثم إنهم بحثوا وبحثوا عن البديل الذي يعزهم، فلم يعثروا على شيء. فها هم أولاء يجترون عواقب تيههم الذي تطوحوا فيه. وتُوقِّع الليالي والأيام بتوقيع من النور على

حكمة ابن عطاء الله التي تصيدها من كتاب الله: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك».

* * *

الحكمة السادسة

«لا يكن أمد تأخر العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد»

هذه الحكمة ذيل للتي قبلها.. إذ ربما قال قائل، وقد سمع قول ابن عطاء الله: «اجتهادك فيما ضمن لك..» إلخ، ها قد تفرغت لما طلب مني. ووكلت حاجاتي الدنيوية إلى ضمانة الله وصادق وعده، ودعوته وألححت في الدعاء، فلم أجد إلى اليوم استجابة لدعائي، وقد وثقت بوعد الله وانتظرت طويلاً فلم تتحقق إلى اليوم حاجاتي التي طلبتها.

يجيب ابن عطاء الله عن هذا السؤال أو الاستشكال بقوله:

«لا يكن أمد تأخر العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد».

أولاً: تعالوا نتساءل عن معنى الدعاء، إذ كثيرون هم الذين يلتبس عليهم الطلب بالدعاء، وبينهما فرق كبير.

الطلب وصف للفظ ينطق به الطالب، أما الدعاء فعبارة عن حالة نفسية تعتري الطالب فيسمى طلبه عند ذلك دعاء.

والحالة النفسية التي من أجلها يسمى الطلب دعاء، تلك التي يتحقق فيها **أمران اثنان:**

أولهما: يقظة القلب والمشاعر، واتجاه كل منهما بانكسار وتذلل إلى الله عز وجل. فأما إن لم يكن القلب يقظاً ولا المشاعر متفاعلة مع الطلب اللساني، في حالة من التذلل والانكسار، وإنما كان اللسان ينطق بكلمات محفوظة مع امتداد آليّ للكفين حسب الطقوس والعادة، مع شرود الذهن وانصراف المشاعر إلى أفكار أخرى، فإن هذا لا يسمى دعاء بالمعنى الشرعي المطلوب الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله في هذه الحكمة. وإنما يسمى طلباً، وهي تسمية لغوية يصطلح عليها علماء اللغة العربية، عند حديثهم عن الإخبار والإنشاء.

إذن، فلا تقل والحالة هذه: إن فلاناً قد دعا الله. ولكن قل: قد طلب. وإذا لم يكن هناك دعاء فلماذا تنتظر الاستجابة؟

كثيرون هم الذين يتحرقون سعياً وراء أحلام ورغائب دنيوية يطمحون إليها، يسمع أحدهم أن ثمة أدعية معينة إن دعا بها الإنسان استجيب دعاؤه، فيتتبع صيغ هذه الأدعية من بطون الكتب، أو يسأل عنها من يرجو أن يكون لديهم علم بها، من العلماء أو طلاب العلم الشرعي، ثم إنه يقبل إلى هذه الصيغ يحفظها كما يحفظ التلميذ درسه، ثم يسرد ألفاظها في حركة طقوسية مجردة، وتنظر إلى حاله مع الله، وإذا هو من المعرضين عنه وعن وصاياه وأوامره وتعليماته. ولكنها الرعونة التي عبر عنها المثل العربي القائل: «صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها».

فإذا كرر هذه الألفاظ التي حفظها، ونظر فلم يجد استجابة لطلبه وبقيت أحلامه وهماً حبيساً في ذهنه وفكره، أعلن الشكوى والعتب

على الله وقال: ها أنا قد دعوت فلم يستجب لي، فأين أنا من مصداق الآية القائلة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] .

ثانيهما: أن يبدأ الداعي فيتوب إلى الله من المعاصي التي ارتكبها في حقه. ويجعل من توبته الصادقة شفيعاً بين يدي دعائه.

فأما الذي يواصل العكوف على معاصيه، ويتجه في الوقت ذاته إلى الإله الذي يعصيه، يطلب منه تحقيق أحلامه وحاجاته، فهو لا يتعامل مع عقله فضلاً عن كونه بعيداً عن التعامل المنطقي مع ربه!..

تصور - و لله المثل الأعلى - رجلاً قد أساء إلى مسؤول ذي شأن كبير، وجاء في الوقت ذاته يسأله قضاء بعض حوائجه، دون أن يبدأ فيعتذر عن إساءاته وسوء تصرفه، لا السائل يعدّ منطقياً في سؤاله، ولا مسؤول يُتوقع منه أن يستجيب لطلبه. والإنسان أخو الإنسان أياً كانت الصلة بينهما، أما الإنسان مع الله: فمملوك مع مالك، ومخلوق مع خالق، وعبد ذليل مع معبوده الواحد بالحق.

فكيف يقبل كلٌّ من الرشد والمنطق أن يدخل العبد رحاب الله عز وجل وهو مثقل بالأوزار التي ارتكبها في حقه عز وجل، دون أن يبدأ فيلقيها عن كاهله بتوبة صادقة نصوح، ثم يطلب منه قائمة طلباته؟!.. طلب الله منه أن لا يعصيه فعصاه، ثم طلب الله منه بعد التورط في عصيان أن يتوب إليه فأبى. ومن خلال عصيانه وإصراره على عصيان، وعزمه على الاستمرار، جاء يقدم إلى الله قائمة طلباته، ثم أخذ يلحف في الطلب.. ثم أخذ يعتب على الله أنه دعاه فلم يستجب، خلافاً لما قد وعد!!..

أيعقل أن يقدم على هذا إنسان ذو إنسانية مستيقظة؟

إن هذا العمل يسمى طلباً، ولا يسمى دعاء، كما قد أوضحت، ولكي يتحول الطلب إلى دعاء لا بدّ من توافر هذين الشرطين فيه: أولهما يقظة القلب والمشاعر إلى مناجاة الله تعالى في تذلل وانكسار حقيقيين، ثانيهما التوبة الصادقة النصوح إلى الله تعالى من سائر الذنوب والآثام. والله عز وجل إنما وعد باستجابة الدعاء ولم يعد باستجابة ما يسمى طلباً.

وهذا هو السبب في أن الإنسان كثيراً ما يدعو الله لنفسه فيستجاب له، ويدعو لعامة الناس فلا يستجاب له. إذ من اليسير عندما يدعو أحدنا لنفسه أن يقدم بين يدي دعوته توبة صادقة لله عز وجل من جميع سيئاته وأوزاره، ولكن ليس من اليسير أن يتحقق هذا الشرط عندما يدعو أحدنا للمجتمع بأسره، إذ المجتمع مليء بالتائهين والعاصين والمستكبرين، ودعاؤنا لهم جميعاً تبقى استجابته معلقة على شرط التوبة، على أن يتمثل في توبة الداعي وتوبة من ندعو لهم. وأنى لك بتوبة الكثرة الكاثرة من هؤلاء التائهين والعاصين؟

إذا دعوت الله عز وجل أن يرفع الشدة عن المجتمع الذي أنا فيه، وأن يمدّنا بمزيد من العطاء والرخاء، وأن يكرم الأمة بالغيث، فلأعلم أن خطاباً يوجه إليّ قائلاً: ذكّر الأمة التي تدعو لها أن يتوب أفرادها وفئاتها عن المعاصي والظلم وأن يتحققوا بالشروط التي لا بدّ منها لاستجابة الدعاء، فإن هم أقلعوا عن المعاصي وتحققوا بالشروط، فادع الله لهم، يُسْتَجَبْ دعاؤك. فإن أعجزك هذا الأمر، فادع الله لنفسك

بعد التقييد بالشروط، (وإن بوسعك أن تلزم نفسك بها)، يَسْتَجِبِ لله لك.

فإذا تحققت الشروط، والآداب المطلوبة كلها، فإن الله سيستجيب الدعاء ويحقق المطلوب. ولكن إياك أن تتصور بأن الاستجابة تعني أن يحقق الله لك حرفية ما طلبته منه.. بل اعلم أن الاستجابة التي وعد الله بها عباده أعم وأوسع من ذلك.

إن استجابة الله لك تعني أن يحقق لك هدفك، وليس من لوازم ذلك أن يحقق لك حرفية ما قد طلبت، لظنك أنه هو السبيل الذي يوصلك إلى هدفك.

طلبتُ من الله تعالى شيئاً بمواصفات معينة، ظناً مني أنها الضمانة لهدف أو الخير الذي أبتغيه. ولكن الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما قد تأتي به التقلبات والأحداث، قد يعلم أن هذا الشيء الذي طلبته وتعلقت به لظني أنه يتضمن الخير الذي أبتغيه، لا ينطوي في الواقع على هذا الخير، بل ربما كان سبباً لنقيضه. فيصرف الله عني حرفية ما طلبت، لطفاً منه ورحمة بي، ويحقق لي الهدف البعيد الذي أبتغيه بوسيلة أخرى لم تكن تخطر مني على بال.. وهذا هو معنى قول الله عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

وإلى هذا يشير ابن عطاء الله في هذه الحكمة السادسة، إذ يقول: «فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك».

وكم في حياة كل منا نماذج تجسد هذه الحقيقة التي أقولها. كم من إنسان تعلق قلبه بمهنة أو بوظيفة خيل إليه أنها تحقق له أهدافه وأحلامه، وبات يدعو الله ويلحف في الدعاء أن تتحقق له تلك الوظيفة، وانتظر وانتظر.. دون أن تتحقق له تلك الوظيفة، حتى خيل إليه أن الله لن يستجيب دعاءه، وما هي إلا أيام حتى خلق الله له أسباباً أخرى أوصلته إلى بغيته من حيث لم يكن يحتسب، وتأمل في الأسباب التي اختارها الله له، وإذا هي خير من الوظيفة التي كان قد تعلق بها، بأضعاف!.. فأخذ يحمد الله أن صرفه عما كان متعلقاً به، وأكرمه بما لم يكن يخطر منه على بال.

وأني لأذكر، ولا أنسى، أنني في كثير من الأيام الخوالي من عمري، تعلقت برغائب خيل إليّ أن سعادتي متوقفة عليها، وأخذت أدعو الله وأسأله ليل نهار أن يحققها لي، ولكنها لم تتحقق، وقبل أن ينال الشيطان مني فرصة إساءة الظن بالله عز وجل، عوّضني عن تلك الرغائب بما هو خير منها. فأخذت أحمد الله عز وجل أن لم يحقق لي حرفية ما كنت أطلب، إذ لو تحققت لي تلك الرغائب الحرفية لجرّتني إلى مصائب لا حدّ لها. وإنه لَلُطْفٌ كبير وعجيب من الله بالعبد أن يراه لجهالته يتعلق ببوارق ظاهرها الخير وباطنها البلاء الكبير، فيقصيه الله برائع لطفه ورحمته عن تلك البوارق، ويكرمه بما يتأمله ويبتغيه من ورائها، من الآمال التي تسعده وتبعده عن أسباب الشقاء.

* * *

خطأ ثان، يقع فيه بعض الناس. يدعو أحدهم وقد التزم بالشروط حتى لا بدّ منها: تاب إلى الله، أعاد الحقوق إلى أصحابها، دعا بشعور يقظ وبقلب واجف منكسر.. ثم أخذ يحسب على الله الليالي والأيام، وربما الساعات، منتظراً أن يلقى الاستجابة في أقرب وقت، فإذا مضت على دعائه مدة يحسبها في نظره طويلة، دون أن يجد الاستجابة المطلوبة، ضاق ذرعاً، وقال في سره أو جهره: ها أنا ذا دعوت، فلم يُسْتَجَبْ لي!..

وذلك هو شأن الرعونة التي تهيمن على كثير من الناس نتيجة لشدة تعلقهم بالرغائب والأحلام والآمال التي يطمحون إليها.

فما هو موضع الخطأ في هذا الأمر؟

موضع الخطأ أن هؤلاء الناس يظنون أن الدعاء الذي أمر الله به، إنما هو وسيلة إلى غاية، أي أن اللجوء إلى الدعاء إنما يكون - فيما يظنون - لعارض يتمثل في حاجة طرأت أو مصيبة وقعت، فإذا تحققت الحاجة وزالت المصيبة لم تبق حاجة إلى الدعاء.. ثم إن هذا الظن يحمل أصحابه على أن ينتظروا متلهفين، بعد الدعاء، فإن لم يجدوا سرعة الاستجابة، أيقنوا أن الدعاء إذن لا فائدة منه، فتفتر عندئذ عزائمهم عن استمرار السؤال والدوام على الدعاء. إذ إنهم ينظرون إلى الدعاء على أنه -كما قلت- وسيلة إلى غاية، ولا يعلمون أنه غاية بحدّ ذاتها.

وهذا خطأ كبير، بل وقتّال ربما!..

الدعاء عبادة قائمة بذاتها.. فهو غاية لا وسيلة. الإنسان عبد مملوك لله. والعبد محتاج في كل لحظة إلى سيده بالنسبة لسائر أموره المتنوعة والمختلفة. ومن أهم وظائف العبد أن يعلن عن عبوديته لسيده، وذلك

بأن يعبر عن احتياجه الدائم إليه، وتوقف حياته ومقومات عيشه وسعادته على الرعاية التي تفد إليه منه.. وسواء رأى العبد آثار سؤاله ودعائه وإعلان احتياجاته، أو لم ير شيئاً من ذلك، فإن شأن العبودية أن يظل العبد واقفاً على الأبواب متذللاً عند الأعتاب.. ولْتَعْلَمْ أن هذا لا ينطبق إلا على عبودية واحدة لا ثاني لها، هي عبودية الإنسان لله.

ولا يوهمنَّك خلافَ هذا الذي أقول أن الله قرن الدعاء بالاستجابة عندما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] بحيث يخيل إليك أن مبرر الدعاء منك، الاستجابة من الله، فإذا لم تتحقق الاستجابة لم يبق مبرر للدعاء.

لا.. ليس معنى الآية كذلك، وليس بين الجملتين شيء من هذا الربط أو العلاقة التي قد تسري إلى وهمك.

الآية تتضمن أمراً اقتضته عبودية الإنسان لله، وهو قوله: ﴿ادعوني﴾. وهو أمر مطلق غير مقيد بحال دون حال، ولا مرتبط بشرط.. وتتضمن بعد ذلك وعداً، اقتضته رحمة الله وتفضله على عباده بالمنن والنعم التي لا تحصى. فلا الأمر مقيد حكمه بإنجاز هذا الوعد، ولا الوعد سلعة يستحقها العبد ببذله لثمن الدعاء.

وهذا هو السبب في قوله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يُسْتَجَبْ لي»[1].

ومعنى قوله ﷺ هذا: يستجاب لأحدكم ما لم يظن أن له على الله حقاً أن يستجيب دعاءه إن دعاه، ويقل في نفسه، وها أنا مع ذلك قد دعوت ولم أنل حقي في الاستجابة!!..

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

إذن. هما أمران كل منهما منفصل عن الآخر. الدعاء عبادة يجب على من علم عبوديته لله أن يؤدي حقها عليه، بقطع النظر عن النتائج التي يتوقعها. وهذا معنى قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[١] والاستجابة تفضل وإكرام من الله عز وجل.

والنتيجة السلوكية التي يجب أن يلتزم بها المسلم بناء على هذا، هي أن عليه أن يمدّ يد الافتقار إلى الله عز وجل في كل الأحوال، وأن يعلن بالذل والانكسار عن كل احتياجاته التي لا حدود ولا نهاية لها، بقطع النظر عن النتائج التي قد تواجهه. ولكن عليه في الوقت ذاته أن يثق بكرم الله وإحسانه، وبأنه سيستجيب دعاءه، وما الحكمة في تأخر ظهور الاستجابة في كثير من الأحيان، إلا أن يُربَّى العبد على فهم هذه الحقيقة، وأن لا يتصور أن الاستجابة نتيجة آلية أو حتمية للدعاء. وعندئذ يصبح كل من الدعاء وانتظار الاستجابة دون ضجر ولا قلق، جزءاً لا يتجزأ من العبادة، بل هو لب العبادة وروحها. ولذا ورد في الحديث قوله ﷺ: «انتظار الفرج عبادة»[٢].

فهذا هو معنى **الجزء الثاني من حكمة ابن عطاء الله** هذه، وهو قوله: «... **وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد**» أي ضَمِنَ لك الإجابة في الوقت الذي يحبه هو طبق الحكمة التي يراها، لا في الوقت الذي تريد طبق الرعونة التي تهتاج بك وتضطرب في كيانك.

---

١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك والبخاري في الأدب المفرد من حديث النعمان بن بشير.

٢) رواه ابن أبي الدنيا، وابن عساكر من حديث علي. ورواه القضاعي من حديث ابن عمر وابن عباس، ورواه ابن عدي في الكامل والخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس. وهو وإن كان ضعيفاً إلا أن هذه الطرق يقوي بعضها بعضاً.

الحكمة السابعة

«لا يشككنّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه، لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك»

يفيض كتاب الله عز وجل بوعود ألزم بها ذاته العلية للمسلمين. دون أن يقيد إنجازها بمسألة ودعاء، بل ألزم الله بها ذاته العلية ابتداء. إن وفى المسلمون بالأوامر والمتطلبات التي كلفهم بها.

من ذلك هذه الوعود القاطعة التي ألزم الله عز وجل بها ذاته لعباده الذين أنجزوا ما قد أوصاهم وكلفهم به:

- ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١/٤٠].

- ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤].

- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٥].

- ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً..﴾ [النحل: ١٦/٩٧].

- ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧].

والـذي يحصـل أن كثيراً مـن النـاس قـد يمـرون علـى هـذه الآيـات وأمثالها، ويقفون على هذه الوعود الـتي ألـزم الله عـز وجـل ذاتـه بهـا لعباده الذين طبقوا أوامره.. وينظر فيجد أن هذه الوعـود، أو أكثرهـا، غير ناجزة اليوم. فالمسلمون ليسـوا منصوريـن كمـا قـد وعدهـم الله، والظالمون يسرحون ويمرحون ويستلبون الحقوق، ولم يهلكهم الله كما قد وعد، وتوعّد. والمسـلمون فيهـم الكثير ممـن لم تتحقـق لهـم الحيـاة الطيبة كما قد وعدهم الله عز وجل.. إلخ.

فابن عطاء الله يخاطب هؤلاء المرتابين في وعود الله عز وجل قائلاً:

«لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعـود وإن تعـين زمنـه، لئـلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك».

* * *

غير أن لأحدنا أن يسأل قائلاً: كيف لا أشك في الوعـد، وأنـا أرى أمامي الواقع المخالف له؟

والجواب هو أن الذي تُداخله الريبة في صدق وعود الله عز وجـل، (وقد ذكرت نماذج عنها)، هو ذاك الذي يلاحق دائماً ما له من حقوق عند الله، ولا يلاحق نفسه بشيء من الواجبات الثابتة لله عليه.

إنه يقول مثلاً: ها نحن مؤمنون مسلمون، مساجدنا عامرة بالمصلين، نستقبل شهر رمضـان بالصيـام، نهـرع إلى الحـج في أيامـه، إذن فنحـن ننتصر لدين الله، فأين هو نصره لنا؟ ما له يسلط علينا الأعداء من كل جهة، يستلبون حقوقنا ويحتلون أوطاننا؟

يقول هذا من خلال المناظير المكبرة التي يضعها على حقوقه وحقوق الأمة جمعاء، دون أن يتتبع الواجبات التي كلفه الله بها فضيعها، من خلال منظار ضعيف واحد!..

يمتن على الله بأن شعائر الإسلام لا تزال قائمة، فالمساجد تشهد مصلين فيها، ورمضان يشهد الصائمين والقائمين، ومكة تزدحم بالحجيج في كل عام. غير أنه لا يخترق هذه الشعائر العامة ليقف على أخلاق الناس وسلوكهم، وليدخل البيوت ويشهد غربة الإسلام فيها، وانصراف الأسر إلى ليالي الشهوات والأهواء، وليطل على الأفكار التي تستهين بالإسلام كله من جذوره إلى فروعه، وتقف من أحكامه وأنظمته موقف المتبرم من القديم الذي ملّه واجتواه أهله، وليتبين التيار المستغرب الذي ينادي بالحداثة آناً وبالعلمانية آناً، وبالحرية التي تهدف إلى الانعتاق من أَسْرِ الدين آناً آخر، ولا يتأمل ليرى أن هذا المزيج المعرض عن الله وأحكامه هو النسيج الذي يشكّل كسوة المجتمع في الجملة، وهو الذي يفرزه مسرح الأنشطة والأحداث التي تموج فيه. أما الشعائر التي يمتن بها على الله ليطالبه من خلالها بحقوقه، فهي كما يعلم الجميع قشرة رقيقة وضاءة تغطي واقعاً مظلماً مخيفاً.

وآية هذا الذي أقول، أن جلّ الذين يقولون هذا الكلام ويحتجون على الله بوعوده، تجدهم من الشاردين عن هديه والمستهترين بأحكامه، والبعيدين حتى عن معرفة الأساسيات من دينه. وعندما يحتجون على الله بهذا الذي يقولون، إنما يتذكرون في الشعارات الإسلامية العامة، التزامات غيرهم!..

فما هو الأساس الذي يتفرع عنه هذا الواقع الذي وصفت؟

أساس ذلك أن الإنسان كلما كان بعيداً عن الله مستغرقاً في المشاغل الدنيوية تقل وتضمر أمام بصيرته حقوق الله عليه، وتتكاثر رغباته وأمنياته التي قد يرى فيها حقاً له على الله!!..

مثل هذا الإنسان إن رأى نفسه يؤدي الفرائض الخمس ويتجه مع الناس في موسم الحج إلى بيت الله الحرام، وينساق مع الناس للصيام في شهر رمضان، يجزم بأنه قد أدى كل ما لله من حق عليه، وإنما بقي أن تصله حقوقه التي وعد الله بها عباده الصالحين في محكم كتابه.

وكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالله وصفاته، وأبعد عن الاستغراق في المشاغل الدنيوية، تعظم وتتكاثر أمام بصيرته حقوق الله عليه، وتضمر بل تذوب حقوقه التي يرى أنه قد غدا أهلاً لها.

تصور حال شاب حديث العهد بالإنابة والتوجه إلى الله، إنه إن وجد نفسه موفقاً لأداء الفرائض الخمس بأي أشكال الأداء، قادراً على الإقلاع عن الفواحش والكبائر التي كان عاكفاً عليها، يظن أنه قد بلغ بذلك درجة الصديقين.

فإذا ازداد تشبعاً بحقائق الإسلام وازداد معرفة بالله وصفاته، أخذ يشعر بتقصيره، وأصبح يرى في صلاته الثغرات الكثيرة من الغفلة وعدم الحضور فيها، ومن الاكتفاء بالفرائض وإهمال ما يتممها من نوافل، ويحفزه هذا الشعور على أن يحمل نفسه على مزيد من الطاعات وعلى مزيد من الإتقان في أدائها.. فإذا ازداد تذوقاً لحقائق

الإسلام وازداد حباً لله وتعظيماً له، عاد إلى قرباته وطاعاته ينظر إليها وإذا هي في عينه تافهة قليلة لا تساوي شيئاً أمام عظيم حق الله عليه وأمام نعمه الكثيرة التي يتقلب منها في يمّ لا حدود له، فيضاعف عندئذ من قرباته وطاعاته، ويبالغ في رعايتها أن تكون صافية عن الشوائب.

فأنى لهذا الإنسان والحالة هذه أن يرى لنفسه حقاً على الله يطالب به؟ وكيف يتأتى له، وهو مغمور بمشاعر تقصيره، أن يطالب الله بالحياة الطيبة التي وعد بها عباده الصالحين؟

ولما كان سيدنا محمد رسول الله ﷺ أكثر الناس معرفة بربه وأكثرهم حباً وتعظيماً له ومهابة ومخافة منه، فقد كان أكثرهم شعوراً بالتقصير في جنبه والعجز عن شكره وأداء حقوقه.. ولقد كانت تنتابه من ذلك حالات من الضيق الآتي من تصور بعده عن الوفاء بحقوق الله فيستغرق في الاستغفار، شأن العاصي الذي جاء يطلب من الله الصفح عما اجترح. وهذا معنى قوله ﷺ:

«إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرة»[1].

وقد عبر عن هذه الحقيقة بعض الصالحين بقوله: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

وبوسعك أن تتبين جليّ ما قد أوضحت، في هذه الأسطر التي أنقلها لك من كلام الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات:

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم، ورواه البخاري بلفظ: «فأستغفر الله أكثر من سبعين مرة».

«فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان، من غير زيادة. والثاني حاله حال من يعمل بحكم غلبة التعظيم والخوف والرجاء والمحبة. فالخوف سوط سائق، والرجاء حادٍ قائد، والمحبة تيارٌ حامل.. والخائف يعمل مع وجود المشقة، غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون وإن كان شاقاً.. والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب، فيسهل عليه الصعب، ويقرب عليه البعيد، وتفنى القوى ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة»[1].

* * *

والنتيجة التي ننتهي إليها من معرفة هذا الأساس، هي أن الله لا يخلف عهداً أو وعداً قطعه على ذاته العلية لمن أدوا شروطه بصدق وإخلاص.

غير أن الذين يعرفون هذه الشروط ويقدرونها حق قدرها هم الذين عرفوا الله حق معرفته وفاضت أفئدتهم حباً وتعظيماً له، لا الذين يتعاملون مع الله على أساس من عقد الإسلام فقط كما قال الشاطبي، يخصون على الله حقوق أنفسهم دون أن يتذكروا حقاً على أنفسهم ـه. إن هؤلاء لن يدركوا أي معنى لقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ من قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣ـ١٤] ولن يدركوا أي معنى

(١) الموافقات للشاطبي ٢/١٤١.

لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة : ٢/ ٤٠] لأن من يتعاملون مع الله على أساس من التزامهم بعقد الإسلام وحده، لا يقيمون وزناً لما وراء انتمائهم إلى الإسلام.

أخبرني أحد الجنود الذين كانوا في هزيمة حرب عام ٦٧، أنه كان عائداً إلى دمشق مع ثلة من زملائه الجنود، وفي الطريق حان وقت الصلاة، فبحثوا عن مكان مناسب، ووقفوا يصلون.. وفي تلك الأثناء مرّ بهم خبراء من العسكريين الأجانب، فوقفوا ينظرون إليهم.. ولما أتموا صلاتهم قالوا لهم: إن الله لم ينصركم في الحرب فلماذا تصلون له؟..

قلت للجندي الذي أخبرني بهذه القصة: كان عليكم أن تقولوا لهم: إننا نصلّي شكراً له أنه لم يعاقبنا على آثامنا وإعراضنا عن أوامره، وارتكابنا للمنكرات الكثيرة التي تفور بها معسكراتنا، بخسف ولا بمحق ولا بزلزال، ولا بحجارة يمكن أن يرسلها علينا من السماء، إذ إننا نستحق أكثر من هذا الذي أصابنا.

إن أولئك الخبراء الذين طرحوا سؤالهم ذلك، لم يكونوا جاهلين بحقوق الربوبية، بل كانوا جاهلين بالذات الإلهية، ناسين وجوده من حيث هو!..

وإني لأذكر أن أحد الصالحين سئل - وكان مظنة ولاية وقرب من الله عز وجل -: ألا ترينا يا سيدي بعضاً من كراماتك التي تزيدنا إيماناً وثقة بالله عز وجل؟

قال لهم: ألا ترون أعاجيب الخوارق والكرامات التي يكرمني الله بها في كل لحظة؟

قالوا له: لم نر شيئاً منها بعد..

قال: أفلا ترون أني أسير فوق الأرض دون أن تخسف بي، ودون أن تنهمر عليّ النيازك والشهب؟.. أليس من الإكرام الإلهي - وأنا أستحق الهلاك بسبب تقصيري الدائم وتفريطي في أوامره وحقوقه - أن يحيطني بحمايته ورعايته فلا يهلكني كما قد أهلك الكثير ممن كانوا قبلي؟!..

إن هذا الذي قاله هذا الرجل الصالح كان صادراً من صادق مشاعره، ولم يكن يقوله تصنعاً أو تكلفاً.. بل هو شأن كل من فاض قلبه تعظيماً لله ومهابة له وخوفاً منه وإدراكاً لآلائه ونعمه التي يتقلب في غمارها، لا سيما عندما يقف على مثل قوله عز وجل: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإذا هِيَ تَمُورُ، أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/١٦ - ١٧].

* * *

ثم إن على كل من يتعامل مع الله عز وجل، أن يبدأ فيقف على سنن الله في عباده والقواعد التي يتعامل معهم على أساسها، كي لا يخطئ في فهم ما قد يراه من الأحداث.

إن من بعض هذه القواعد والسنن، أنه جلّ جلاله قد يأخذ الكلّ بجريرة البعض، وقد نص البيان الإلهي على هذا في قوله عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ وأكده رسول الله

ﷺ عندما سألته زينب رضي الله عنها قائلة: «أنهلك وفينا الصالحون؟» فأجابها قائلاً: «نعم، إذا كثر الخبث».

فلا يقولن قائل: ما جريرتنا نحن الملتزمين والمستقيمين، أن يصيبنا البلاء أو يحيق بنا الهلاك بسبب غيرنا.

وقد نفذت هذه القاعدة، بقدر كبير من الشدة والدقة، في عهد رسول الله ﷺ، يوم أحد، ويوم حنين.

في غزوة أحد أمر رسول الله ﷺ الرماة، وكانوا زهاء خمسين، أن لا يبارحوا أماكنهم حتى يأذن لهم رسول الله ﷺ، وكان رسول الله قد أقامهم فوق رابية يحمون فيها ظهور المسلمين.

فلما بدأ القتال ودارت رحى الحرب على المشركين، وأيّد الله المسلمين بالنصر، فهُزم المشركون شرّ هزيمة، وتركوا وراءهم كثيراً من الأموال والغنائم، نظر الرماة من أماكنهم إلى ما حلّ بالمشركين، فلم يشكّوا في أن الحرب قد وضعت أوزارها، وتشاوروا في أن ينزلوا فينالوا نصيبهم من الغنائم.. فأيد بعضهم ذلك وخالف آخرون محذرين من مخالفة أمر رسول الله. فنزل الذين اجتهدوا ورأوا النزول قبل أن يأذن لهم رسول الله بذلك. فماذا كانت النتيجة؟

أدخل الله في أفئدة فلول المشركين العزيمة والجرأة، بعد الخوف والرعب، فاستدار بعض منهم يرأسهم خالد إلى جبل الرماة الذي خلا من أكثر الذين كانوا عليه، فقتلوا البقية المرابطين عليه، وانحطوا بسهامهم في ظهور المسلمين الذين أدخل الله في أفئدتهم الاضطراب والرعب، بعد الذي كانت تفيض به من الصمود ونشوة الظفر.. وما

هو إلا أن تحول النصر إلى هزيمة، راح ضحيتها كثير من المسلمين، بل أصاب رشاشها شخص رسول الله ﷺ الذي كسرت رباعيته ووقع في كمين أعده له المشركون.

كل ذلك، من أجل خطأ أو معصية تورط فيها بعض الجنود من أصحابه ﷺ، ولم يشفع وجود رسول الله في الغض عن تلك المعصية وطيّها عن الاعتبار. ونزل في ذلك بيان من الله عز وجل يرسِّخ في أذهان الناس هذه السنة الإلهية التي يأخذ بها عباده، كي يأخذوا حذرهم ولا يعودوا إلى مثلها. وهو قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢/٣].

فتأمل، يرحمك الله، وقارن بين تلك الغلطة أو المعصية التي تورط فيها بضع عشرات في جيش معهم رسول الله ﷺ، والمعاصي الكبيرة والكثيرة التي تفيض بها المعسكرات اليوم، والتي يكاد يصل البعض منها إلى قريب من الكفر. ثم قارن بين عصا التأديب التي أصابت رسول الله وأصحابه من جراء تلك الغلطة، وعصيّ التأديب التي تصيبنا نحن المسلمين اليوم، من جراء الآثام الخطيرة التي استسلمنا راضين مطمئنين لتياراتها، تجد أننا مغمورون بدلال عجيب وبألطاف كبيرة من الله عز وجل.

فإذا جاء، مع هذا كله، من يرتاب في وعود الله عز وجل، ويرى أنه يستحق تكريماً لم يمنحه الله إياه، أو يرى أن مجتمعاتنا اليوم تستأهل

النصر الذي وعد الله به عباده الصالحين، فإن ارتيابه هذا لدليل على انطماس بصيرته وخمود نور سريرته، كما يقول ابن عطاء الله.

* * *

وإن من هذه السنن والقواعد الإلهية، ما يعامل الله به الطغاة والعتاة الذين قطعوا آخر خيوط الصلة بخالقهم، وأزهقوا أوهى الآمال المتبقية بعود حميد إلى الله، من فتح أبواب المتع كلها أمامهم، وتسخير الدنيا كلها لمطامعهم وأهوائهم، ليزدادوا بذلك عتواً وسكراً، فيكون العقاب الذي أعدّه الله لهم أشدّ وأقسى!.. فإذا أخذهم الله بعد ذلك، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

تأمل في هذه النصوص القرآنية التي ترسخ هذه السنة الإلهية وتؤكدها:

- ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ ، ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٢-٣].

- ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٢-١٨٣].

- ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢].

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ، فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ، فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا

عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٤٢ - ٤٤].

وهذه السنة الإلهية، مع هذه النصوص القرآنية الناطقة بها، هي التفسير لما قد تراه، ويعجب له كثير من السذج والجاهلين، من تقلب أمم البغي والضلال، في النعم والمتع التي لا حصر لها. إنها، كما قال الله تعالى متاع قليل لا دوام له، ثم إنه متاع وإن بدا للناظر باعثاً على السعادة ناشراً للأمن والسرور، إلا أنه في الواقع الحقيقي، يحمل في داخله بذور الشقاء والآلام. فإذا حان الميقات الخفي الذي لا يعلمه إلا الله، تفجرت هذه البذور بالشقاء والدمار على أولئك الذين كانوا يعكفون منها على متع ولذائذ لا حصر لها.. ومصداق هذا قول الله عز وجل: ﴿..حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُون﴾ [الأنعام: ٦/٤٤] أي هالكون.

فإذا جاء اليوم من يقول: نحن المسلمين يحجب الله عنا وعوده التي نتزم لنا بها، وأولئك الجاحدون العتاة الظالمون يكرمهم الله بما لم يعدهم به من الأعطيات والانتصارات، فما مردّ قوله هذا إلا إلى نطماس بصيرته، وإعراضه عن خطاب الله الذي لو تأمل فيه، لعرف قواعده وسننه التي يتعامل على أساسها مع عباده المؤمنين والجاحدين، والمهتدين والتائهين.

* * *

الحكمة الثامنة

«إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قلّ عملك. فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك. ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك»

يمكن أن يرقى الإنسان من وهدة الضياع والضلال إلى صعيد الهداية ومعرفة الله، من خلال أحد طريقين لا ثالث لهما:

أحدهما يتجه به الإنسان إلى الله، وهو طريق طويل وشاق، يبدؤه الإنسان بغرس حقائق الإيمان وأركانه في عقله، ثم يوجه قلبه إلى محبة الله وتعظيمه والخوف منه، ثم يقبل إلى أوامر الله عز وجل فيأتمر بها، وينتهي عن المنكرات التي حذر منها، ويستعين على ذلك بالإكثار من ذكر الله والإكثار من تلاوة القرآن. والنتيجة التي ينتهي إليها سالك هذا الطريق هي تضاؤل الدنيا شيئاً فشيئاً أمام بصره وبصيرته، وتعاظم الآخرة وما فيها شيئاً فشيئاً في نفسه وفؤاده، فيهتم لما هو مقبل إليه أكثر من اهتمامه للدنيا التي يعبرها ويمرّ بها. وهذا الطريق يسمى طريق الهداية والإنابة.

ثانيهما طريق يتجه به الله إلى العبد. أي فالطريق الأول يكون البدء فيه منك إلى الله، كما قد بينت لك، أما هذا الطريق الثاني فيكون البدء فيه من الله إليك. ويسمى طريق الاجتباء.. يكون الإنسان

مستغرقاً في شروده وبعده عن الله، منصرفاً إلى أهوائه ورغائبه الدنيوية، وفجأة تدركه رحمة من الله تعالى لسبب من الأسباب التي قد لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلّي لطف وإيقاظ، فيجذبه إليه، ويسمو به إلى صعيد معرفته فحبه وتعظيمه. وقد يتم ذلك كله في لحظة واحدة.

ويعبّر البيان الإلهي عن هذين الطريقين للخروج من التيه والضلال، إلى الهداية والرشد بقوله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[الشورى: ١٣/٤٢].

اجتباء وهداية.. أولهما يكون باصطفاء وجذب من الله عز وجل، لمن شاء من عباده كما قال.. وثانيهما يكون بإنابة فسير من العبد إلى الله تعالى خلال طريق طويل من المعارف والطاعات والأذكار والقربات.

وارتباط الاجتباء بمن شاء الله أن يجتبيهم ويجتذبهم إليه، فيه دلالة على أن الإنسان ليس له أي دور في اختيار هذا الطريق، وإنما هو خصيصة واصطفاء من الله لمن شاء. والطريق الثاني الذي سماه الله طريق الإنابة والهداية هو الذي أناطه الله بسلوك الناس واختيارهم، وتأتي الهداية في أعقابه ثمرة لجهادهم وجهودهم.

فابن عطاء الله السكندري رحمه الله، يلفت النظر في هذه الحكمة، إلى أحد هذين الطريقين، وهو طريق الاجتباء الذي يأتي نتيجة اصطفاء من الله لبعض عباده، فينتشلهم في لحظة واحدة من أقصى أودية الضياع والبعد عن الله، إلى أعلى قمم العرفان والقرب من الله عز وجل.

يقول: «إذا فتح لك» أي الله عز وجل «وجهة من التعرف» أي نافذة يعرفك من خلالها على ذاته، وذلك بعامل من عوامل الجذب والفتح، التي تطوي الأزمنة في لحظات أو دقائق معدودة، يغنيك الله بها عن دراسة تستغرق أشهراً أو سنوات. «فلا تبال معها أن قلّ عملك» أي فلا تعجب عجباً قد يزجك في ريب، من أنك قد بلغت هذا الأوج من التوجه إلى الله والتعلق به، دون أن تستعين على ذلك بكثير من العبادات والنوافل والأذكار والقربات، كما هو الشأن في العادة. ذلك لأن طريق الفتح الإلهي مختلف عن طريق السير الإنساني، وهو جلّ جلاله «ما فتحها» أي تلك الوجهة «لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك» أي إلا وهو يريد أن يعرفك على ذاته. وهذه الإرادة التي شرفك الله بها من شأنها أن تملأ كيانك معرفة وحباً وتعظيماً له ومهابة منه، حتى وإن قل أو فقد قبل ذلك عملك المقرب إلى الله. ثم إن ابن عطاء الله يقارن بين الطريقين قائلاً: «ألم تعلم أن التعرف هو مورده إليك، والأعمالَ أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك»؟.. أي تأمل، كم هو الفرق كبير بين سلّم الأعمال التي ترقى بها إلى الله وجلّها لا يخلو من الشوائب والحظوظ، وبين الألطاف التي تهبط وترد إليك من حضرة الله عز وجل!.. لا شك أن قوة الجذب في هذه الألطاف الإلهية الهابطة إليك أجلّ وأفعل، من قوة الطاعات الصاعدة منك إلى الله.

هذا هو باختصار الفرق ما بين ما ترسله إلى الله من قربات وأعمال، وما يرسله هو إليك من تجليات وألطاف. وتلك هي الخلاصة السريعة لمعنى هذه الحكمة. ولكن فلنعد إليها بشيء من التفصيل.

في التاريخ الإسلامي كثير ممن جذبهم الله بنقلة واحدة من التيه إلى الرشد، ومن الشرود إلى الالتزام، ومن محبة الأغيار إلى محبة الله عز وجل.

في أصحاب رسول الله ﷺ منهم كثير.. يفد الأعرابي الجلف من البادية إلى المدينة، فما تكاد عيناه تبصران رسول الله ﷺ، وما تكاد أذناه تسمعان شيئاً من نصائحه وحديثه، حتى يتحول وهو في مجلسه ذلك من حال إلى أخرى، تغيب عنه جلافة طبعه وقسوة قلبه، ويولد ولادة جديدة في كل ما يتعلق بدخائل نفسه ثم لا يخرج من مجلس رسول الله ﷺ إلا وقد عزفت نفسه عن الدنيا، وفاض قلبه حباً ومهابة لله عز وجل.. كثيرون هم أولئك الذين نُقلوا من أصحاب رسول الله ﷺ إلى صعيد الالتزام والرشد عن طريق الاجتباء السريع، لا عن طريق التربية والممارسة الطويلة.

وفي الناس الذين جاؤوا من بعد، من اجتذبهم الله إليه عن طريق الاجتباء، فانتقلوا من الانحراف الشديد إلى الاستقامة التامة طفرة وبدون توقع. منهم الفضيل بن عياض الذي تحول خلال دقائق في جوف ليل مظلم من فتاك قاطع طريق إلى متنسّك رباني فرغ قلبه من كل شيء إلا من تعظيم الله وحبه والخوف منه. ومنهم عبد الله بن المبارك الذي كان مولعاً بالطرب والسماع والعزف على الأوتار، بعيداً عن الالتفات إلى أوامر الله وحقوقه، فما هو إلا أن تحول في سواد ليلة واحدة، هو الآخر، إلى نموذج عجيب نادر للعالم الرباني الذي جعل دنياه كلها فداء لرضا الله عنه وسبيلاً لقربه منه[1]. ومنهم مالك ابن

---

(١) اقرأ سيرة وافية لحياة كل منهما في كتابي (شخصيات استوقفتني).

دينار الذي تحول فجأة من شرطي يتعاطى اللهو والسكر إلى واحد من كبار الربانيين الذين كانت تغشى دروسه الآلاف، وهدى الله على يديه الكثير من التائهين والمارقين.

ومن المهم أن نعلم أن سبيل الاجتباء هذا ليس وقفاً على أجيال أو على عصور بعينها، بل هو سبيل مفتوح في كل عصر إلى أن تقوم الساعة، أي إن لله عباداً من النساء والرجال يجتذبهم إليه من التيه إلى الرشد، في كل عصر وربما في كل بقعة وصقع.

كان لي جار مسرف على نفسه ممعن في ارتكاب الموبقات، وكان يعشق الخمرة، لا بدّ أن ينال حظه منها في كل ليلة. ولم يكن بينه وبين الهداية أي جسر أو خيط ممتدّ، إذ كان كلُّ ما حوله وكل من يتعامل معهم، من شأنهم أن يزيدوه بعداً عن الله وإمعاناً في اللهو والآثام.

وصباح ذات يوم دخلت المسجد كالعادة لأداء صلاة الفجر، وإذا بي أرى العجب الذي رأته عيني ولم يصدقه عقلي، رأيت جارنا السكير يجلس في الصف الأول جلسة إنسان متبتل متعبد ينتظر إقامة الصلاة.. وهكذا تحول الرجل في ظلام ليلة واحدة إلى واحد من أفضل من عرفت رشداً والتزاماً وحباً لله وبغضاً للمنكرات. كانت اليد التي جذبته هي يد الله، وكانت البداية التفاتة لطف واجتباء من الله عز وجل.

وقصة أكثر الفنانين والفنانات الذين تحولوا واللائي تحولن إلى طريق جديدة من الحب، ولكنه حب الله، وإلى جاذب جديد من الشوق

ولكنه الشوق إلى الله، بل إلى سكر جديد من العشق ولكنه عشق الذات الإلهية.. إنها هي الأخرى قصة الاجتباء الإلهي، كانت اللفتة الأولى من الله، وكانت اليد الأولى هي يد الله، وكان الحب الأول هابطاً إليهم وإليهن من الله[1]. وصدق الله القائل:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥٤].

ولكن حذار من أن يقول قائل من التائهين والشاردين عن صراط الله: إنني أفضل الوصول إلى الله والاستقامة على الرشد، بهذا الطريق، طريق الجلب والاجتباء، فذلك أيسر وأسرع. ذلك لأن أمر الاختيار في هذا عائد إلى الله وليس عائداً إليك. ألم تتأمل في قوله ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٢/١٣] أي من يشاء الله اجتباءه. فما أدراك أن الله عز وجل قد شاء لك هذا الاجتباء؟

ولا يقولن قائل أيضاً: فما هو مصدر هذا الحظ الذي يناله بعض الناس دون بعض؟ مصدره فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، على أن الذي أحبه الله فاجتباه، إنما أحبه لخصلة أو خلق أو سبب ما علمه الله منه ولم تعلمه.

ثم إياك أن تفهم قول ابن عطاء الله: «فلا تبال معها أن قلّ عملك» على غير وجهه، وإليك المعنى الذي يريده ابن عطاء الله والمثبت في كتاب الله:

---

[1] يلاحظ أن حظ هذا الاجتباء في حياة الفنانين والفنانات، يكاد يكون محصوراً في مصر دون غيرها!.. فما الحكمة ترى؟ أين هو حظ الاجتباء من الفنانين والفنانات في سورية مثلاً؟!.. الله أعلم، والله هو المسؤول أن يتولى الجميع بألطافه وفضله.

الذين يجتبيهم الله عز وجل ممن تحدثنا عنهم وذكرنا نماذج منهم، لا يشترط في اجتباء الله لهم أن يأخذوا أنفسهم بمقدمات من العبادات والقربات أو الأوراد والأذكار، كما هو الشأن بالنسبة لغيرهم ممن يأخذون أنفسهم بأعمال التزكية. بل إن الله ينتشلهم من وهدة الضياع والتقلب في حمأة المعاصي، طفرة وبدون مقدمات، إلى صعيد العرفان والالتزام ويمتعهم خلال دقائق، وربما لحظات، بتزكية النفس والفؤاد.

فإذا استقر بهم الحال على هذا الصعيد الذي جذبهم الله إليه، أقبلوا إلى أوامر الله ووصاياه ينفذونها ويلتزمون بها، واتجهوا إلى العبادات والقربات والأذكار يستزيدون منها، هذا فضلاً عن ابتعادهم التام عن المحرمات والمنهيات كلها.

فالحديث هنا عن قلة العمل، وعن عدم أهميته وأهمية فقده، إنما هو بالنظر إلى حال هذا الإنسان قبل أن يجتبيه الله. هل العمل والتوبة عن المعاصي آنذاك مقدمات ضرورية؟ هي ضرورية للذين يريدون أن يسلكوا سبل الهداية بجهود وأسباب يبدؤونها من عندهم، وهو الشأن بالنسبة لأكثر الناس.. ولكنها ليست ضرورية بالنسبة لمن اجتباهم الله ونظر إليهم نظرة لطف واصطفاء.. فقد رأيت كيف نقل الفضيل بن عياض ومالك بن دينار وأمثالهما، من أقصى أودية التفلت والشرود إلى أعلى درجات الرشد والالتزام، دون واسطة من قربات أو أدعية أو أذكار أو أي مقدمات من الطاعات.

ولكنهم ما إن ذاقوا لذة معرفة الله ونعيم القرب منه والحب له. حتى شمروا عن ساعد الجدّ وحمّلوا أنفسهم أعباء كبيرة من العبادات

والطاعات. ولم يكن يصلح شأنهم بعد التحول السريع الذي أكرمهم الله به إلا بذلك.

فإياك أن تفهم من قول ابن عطاء الله هذا ما يحلو لبعض محترفي أعمال الإرشاد ومهامّه أن يفهموه، من أن الذين اجتباهم الله لهم خصوصية من القرب والحب، تغنيهم عن كثرة الطاعات والعبادات والتنزه عن المحرمات!.. تلك هي وساوس الشياطين لأوليائهم من الزنادقة.. وهي وسوسة تناقض الحقيقة تماماً. فالمجتبون هم أكثر الناس تعلقاً بالطاعات والعبادات، وأكثرهم ابتعاداً عن المحرمات والشبهات، ولو كان في المقربين إلى الله من قد حطّ الله عنهم مسؤولية الالتزام بالأوامر والابتعاد عن النواهي، لكان رسول الله ﷺ أولاهم بذلك.. وإنما كان عليه الصلاة والسلام، أكثر الناس تحملاً لعزائم الطاعات وصبراً على النوافل والعبادات وابتعاداً عن الشبهات. ألم يكن هو الذي تتورم قدماه من طول القيام في الصلاة؟.. أولم يكن أول الناس في أصحابه زهداً في الدنيا واخشيشاناً في المعيشة؟.. كذلك سائر المجتَبْين من بعده، كانوا أكثر الناس إقبالاً على وصايا الله وأوامره وأشدهم ورعاً في فهم الحلال والحرام، وأدومهم على النوافل والأذكار.

إذن فكلمة «لا تبال معها أن قلّ عملك» حديث عما قبل التحول من التيه إلى الرشد، وليس إغراء بالإعراض عن العمل، بعد التحول الذي جاء نتيجة اجتباء من الله عز وجل.

* * *

ونعود للحديث عن هؤلاء القلة الذين ينتقلون طفرة إلى صعيد الهداية والرشد بجاذب من الاجتباء الإلهي، من هم؟ وما هي المزية التي تؤهلهم لهذه النقلة اليسيرة والسريعة؟

أعود فأقول: إنها تجليات ربانية لا تنضبط بمقاييس معارفنا، ولا تنضبط بحدود قواعدنا. ولا بدّ أن لها أسباباً إلا أنها أخفى من أن تدركها اجتهاداتنا.

ولكن أليس ثمة صفات يتصف بها بعض الناس، تكون هي مظنة تنزُّل هذا اللطف الرباني إليهم ومن ثم تكون هي سبب هذا الاجتباء لهم؟..

الذي أستطيع أن أقوله جواباً عن هذا السؤال، هو أن كل من أضاف إلى شروده وضلاله عن صراط الله تعالى، الاستكبار عليه. ومعاندة الحق على الرغم من معرفة أنه حق، فهو محجوب قطعاً عن التعرض لهذا اللطف الإلهي، وهيهات أن تفتح له وجهة من التعرف على الذات الإلهية، على حدّ تعبير ابن عطاء الله. وكيف تفتح لهم هذه الوجهة، وهم الذين قال الله عنهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٤٠].

والمفهوم المخالف لهذه الحقيقة هو أن كل من فاض قلبه شعوراً بالذل لله عز وجل، وكان دور المعاصي في حياته تكريس مشاعر الذل

لله بين جوانحه، بحيث يرى نفسه كالمتلوث بالأقذار من فرقه إلى قدمه، فهو أينما ظهر ووجد يخجل من حاله، ويخيل إليه أن كل الناس الذين من حوله خير منه، يكون في مقدمة المتعرضين لهذه الألطاف الإلهية التي تجذبهم إلى سبيل الهداية والرشد.

ولقد رأيت كلاماً أظنه للسيد أحمد الرفاعي رحمه الله (٥١٢ - ٥٧٨ هـ) يقول فيه: نظرت إلى الطرق الموصلة إلى الله، فرأيتها جميعاً مزدحمة، ونظرت إلى طريق التذلل والانكسار، فإذا هو فارغ لا زدحام عليه!..

أي إن طرق الطاعات والقربات الظاهرة، كالعلوم الشرعية والاشتغال بها وأعمال الدعوة إلى الله، والدخول في مسالك الجهاد، والتردد إلى بيت الله الحرام للحج والعمرة، تتسرب إليها في كثير من حالات حظوظ هامة وكبيرة للنفس، ومن ثم يكثر الوافدون إلى هذه الطرق، كل له بغيته أو غرضه الذي يرمي إليه. أما التوجه إلى طريق التذلل والانكسار لله عز وجل، بحيث يرى السالك نفسه بعيداً عن الله موغلاً في الموبقات، ويظن أن الناس كلهم خير منه، فيتعامل معهم على هذا الأساس، فقلّ أن يصبر عليه إلا المخلصون لله والصادقون معه، إذ إن النفس ليس لها أي حظ في هذا التذلل والانكسار واتهام الذات، على مرأى من الناس.

فأصحاب هذه النفوس المنكسرة بصدق دون تمثيل وتكلف، هم في مقدمة من يتعرضون لنفحات الله ولألطافه التي تجذبهم إليه، وإن كانوا موغلين في الانحرافات والآثام.

وعندما فوجئت بتوبة جارنا السكير الذي اجتباه الله، على نحو ما حدثتك عنه قبل قليل، زرته في داره لأول مرة لأهنئه على حياته الجديدة التي أكرمه الله بها. فقال لي: لقد كنت أخاطب الله في أنصاف الليالي وأخرياتها، وأنا وحيد في غرفتي هذه، والشراب أمامي، قائلاً: يا رب، إنه ليسوءني أن يبقى هذا الجدار قائماً بيني وبينك، وكم أود أن أزيله، ولكني ضعيف لا أقوى على ذلك، فما لك يا رب لا تزيله وأنت الرب القادر على كل شيء؟..

تأمل في هذا التذلل.. في هذا التدخل على الله، في هذه المناشدة التي تعبر عن أدق معاني العبودية لله.. إنه العامل الأوحد ربما، أو لعله أهم العوامل التي كانت السبب في أن ينظر الله إليه نظرة رحمة ولطف واستجابة، انتشلته في دقائق معدودات من أوحال تيهه إلى صعيد الحب والاجتباء. وصدق القائلون: الصلح مع الله بلمحة واحدة.

* * *

بقي أن نتأمل في هذا المقطع الدقيق والبليغ من حكمة ابن عطاء الله هذه، تأمل في قوله:

«ألم تعلم أن التعرف هو مُورده عليك، والأعمالَ أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مُورده عليك».

سلّم الأعمال والقربات والرياضات والأذكار التي يحاول أحدنا أن يتقرب بها إلى الله، سلم طويل وكثير الدرجات، لا بدّ لبلوغ أعلاه من الصبر على اجتياز الزمن الطويل.. هذا بالإضافة إلى أن القربات

والأعمال الصالحة مهما كانت مفيدة ومقربة إلى الله بحدّ ذاتها، فإنها لا تكاد تصدر من النفس الإنسانية التي يغلب عليها أن تكون أمّارة بالسوء، إلا وهي متأثرة بالكثير من حظوظها وأغراضها، فتتحول بذلك تلك الأعمال الصالحة، أو كثير منها، إلى مطايا لأهواء النفس ورغائبها. ومن ثم فإن هذه الأعمال الصالحة على تنوعها واختلافها لا تملك إلا قدرة محدودة على تحويل صاحبها كلياً من وهدة الشرور والانحرافات إلى صعيد الانضباط الدائم بأوامر الله. وكم في هؤلاء الناس من يسيرون إلى الله اعتماداً على هذه الأعمال، بضع خطوات، ثم ما هو إلا أن يعودوا إلى مثل ما كانوا عليه من السوء. ومردّ ذلك إلى عدم صفاء الأعمال من آفات النفس وحظوظها الدنيوية، وهي آفة قلما يستطيع الإنسان التخلص منها.

أما إن أقبل الله إليك بطائف جاذب من لطفه ورحمته بك، فسوف تتكون من ذلك تكويناً جديداً، ولسوف يغيّبك هذا اللطف الرباني عن الأكوان، لتعيش مع المكون، ولسوف تنظر إلى الأشياء بعين غير التي كنت تنظر بها من قبل، ولسوف تسبر غورها بعقل غير فكرك السطحي الذي كنت تدرك به من قبل، ولسوف تستيقظ من الغفلة النفسية وتنطلق من سجن الوقوف عند ظواهر الأشياء، فتتجاوز دائرة من قال الله عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٧].

تنظر إلى كواكب السماء في الليل فلا ترى نفسك من ذلك إلا أمام يد الصانع المبدع، يسيح عقلك حائراً مع عظيم إبداعه، وتنظر إلى اخضرار النبات في النهار وإلى نمنمة الزهور فيما بينها فتغيب عن دنيا

الخضرة وألوان الزهور الناطقة فيما بينها، لتجد نفسك أمام الخلاق الذي حيّر العقول في عجيب خلقه وجمال إبداعه، وتتأمل في عجيب أنواع الثمار اليانعة فوق أشجارها، أو النائمة مع الأغصان المتعرجة على نفسها، وتنظر في عالم الغابات والأدغال المحشوة بعجائب حيواناتها ودقيق نظامها، وتلتفت إلى عالم البحار الهادرة والمحشوة بعالمها ذي النظام الهائل المتفرد، فلا تبصر من خلال هذه اللوحات الكونية إلا المكون، ولا ترى نفسك من ذلك كله إلا أمام يد الله!.. فالمشاهد الكونية أو الطبيعية، كما يقولون، تتحول أمام ناظريك إلى ما يشبه ألواحاً زجاجية شفافة صافية، هل ترى فيها إلا ما ينشط ويتحرك وراءها.. فكذلك هذه اللوحات الكونية تغيب عنك كثافتها ووجودها المادي، لتظهر لك من ورائها صفات الخالق المبدع ووحدانية الإله الصانع.

كل ذلك يتم خلال دقائق، بل ربما خلال لحظات، على أعقاب الوجهة التي فتحها الله من سمائه إليك ليكرمك برائحة من معرفة ذاته.. فيخلعك هذا الشعور الجديد الغامر من حال، ليزجك في حال أخرى، وليجعلك تتقلب من أحداث الدنيا كلها في رؤية مشهود واحد هو الله عز وجل. وتلك هي الحال التي يسميها أصحاب هذا الاجتباء الإلهي بوحدة الشهود.

كانت الأكوان كلها من قبل، حجاباً يغيبك عن الله، بما فيها من مغريات ورغائب وأهواء، فلما تجلى الله عليك تجلّيه الآسر الجاذب، أصبح شهوده هو الحجاب الذي يغيبك عن المكونات وينسيك ما قد كان لك فيها من رغائب ومغريات.

هذا كله يتم خلال دقائق أو لحظات لمن اجتباهم الله تعالى وفتح عليهم وجهة من تعريفهم بذاته.. وهو يتم أيضاً عن طريق الإكثار من الطاعات والعبادات، وأخذ النفس بمنهاج طويل من التزكية، والعكوف على أوراد دائمة من الأذكار.

غير أن هذا طريق طويل يحتاج إلى زمن وجهد، وهو الطريق الذي لا بديل عنه بالنسبة لأكثر الناس.

أما طريق الاجتباء والجذب، فسريع وسهل، ولكن لا حيلة للإنسان في اختياره. إذ مردّه إلى فضل الله الذي يميز به من شاء من عباده.

إذن فلنردد مع ابن عطاء الله هذه الفقرة الدقيقة والبليغة من حكمته هذه، إذ يقول:

«ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمالَ أنت مهديها إليه. وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك»؟

* * *

الحكمة التاسعة

«تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال»

الأحوال جمع حال، والحال هو الوضع الذي يمرّ بالإنسان ثم يتجاوزه دون أن يستقرّ لديه.

والأحوال تنقسم إلى قسمين: أحوال نفسية، وأخرى اجتماعية. ونبدأ بالأول منهما:

وإنما نعني بالأحوال النفسية ما اصطلح عليه علماء السلوك أو المهتمون بالتربية القلبية الموصلة إلى الله.. وهي عبارة عن مشاعر داخلية تمرّ ولا تستقر، تأتي نتيجة وقوف وتأمل، عند بعض صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، إذ تتأثر النفس بتلك الصفات، مما يدفع صاحبها إلى الأعمال التي تتناسب وذلك التأثير الذي هيمن على نفسه، كما تأتي نتيجة وضع مرّ به الإنسان شرد فيه عن أوامر الله وانغمس في بعض المحرمات، ثم انجاب عنه ذلك الوضع فأورثه مزيداً من الخوف من عقاب الله، وألماً من تذكر ماضيه في جنب الله عز وجل.

ففي الصالحين مثلاً من يغلب عليهم الوقوف عند صفات الرحمة والكرم والإحسان والمغفرة وسعة العفو، وكلها صفات منبثقة من بعض أسماء الله الحسنى، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جمالي قائمة على أساس راسخ من حسن الظن بالله، وإذا ذكّر الناس بالله لم يذكّرهم إلا بالكثير من فضله وعطائه وآلائه ومغفرته وعفوه، وإذا اتجه

إلى الطاعات والعبادات فبدافع من هذا الشعور يتجه، ويغلب على صاحب هذه الحال أن يكون اجتماعي النزعة وأن ينعكس إليه طيف من هذه الصفات نفسها. فتكون أعماله منبثقة عنها.

وفي الصالحين من يغلب عليهم الوقوف عند صفات القهر والعقاب والسلطة الإلهية الواسعة النافذة، والعقاب الذي توعد به المسرفين والظالمين، فيتصرف تصرفات دينية ذات طابع جلالي قائمة على أساس من تغلب الخوف، والشعور بالتقصير وسوء الحال. لا سيما إن كان ممن له ماض يتصف بالشرود والابتعاد عن أوامر الله والانغماس في الآثام والموبقات.

فهذه الأوضاع النفسية تسمى أحوالاً، إذ هي تعرض لصاحبها فتتلبث لديه ثم تمرّ وتمضي، ثم قد تعاوده مرة أخرى. على أنه لا يوجد ميقات محدد لبقائها، فقد يطول أمد بقائها وقد يقصر.

كان في الصالحين مثلاً من تمرّ به الليالي الكثيرة دون أن تغمض له عين لرقاد كداود الطائي الذي كان يقول: «إلهي، همّك عطّل عليّ همومي الدنيوية وحال بيني وبين الرقاد»[1].

وفيهم مثل فضيل بن عياض الذي وقف في عرفة مع الحجيج، دون أن يدعو كما كانوا يدعون، أو أن يردد الأذكار والأوراد المأثورة في ذلك الموقف، إذ كانت قد انتابته حالة من تذكره لماضيه يوم كان مسرفاً على نفسه، جعلته نهباً لمشاعر من الخجل من الله عز وجل، حجبته عن الانشغال بالدعاء والأوراد والأذكار. روى إسحاق بن

[1] الرسالة القشيرية: ٩٩/١ على هامش حاشية الشيخ زكريا الأنصاري.

إبراهيم الطبري أنه وقف مع الفضيل بن عياض بعرفات، فلم يسمع منه دعاء، إلا أنه وضع يده اليمنى على خده، وطأطأ رأسه يبكي خفياً، فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام، فرفع رأسه إلى السماء يقول: واسوأتاه وا لله منك، وإن غفرت لي، قالها ثلاثاً[١].

وفيهم من حملته هذه الحال، على الاستغفار مما يعدّ في الظاهر عبادة وطاعة، مثل سريّ السقطي الذي كان يقول: منذ ثلاثين سنة، وأنا أستغفر ا لله من قولي مرة، الحمد لله!.. قيل له: كيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل، فقال لي: لقد نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا إلى الآن نادم على ما قلت، إذ أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين[٢].

وفيهم من حملته حاله التي ذكرت صوراً ونماذج منها على أن يفطر وهو صائم، مثل معروف الكرخي الذي مرّ بسقّاء وهو صائم، فسمعه يقول: رحم ا لله من يشرب مني، فتقدم إليه وشرب من يده، فقيل له: ألم تكن صائماً؟ قال: بلى، ولكني رجوت دعاءه[٣].

فهذه التصرفات وأمثالها، قد تكون محل نقد، ممن ينظر إلى ظاهر الطاعات والعبادات مفصولة عن الأحوال الداخلية لأصحابها. فيرى ظواهر الطاعات طاعات في كل الأحوال والظروف وبالنسبة لسائر الناس، ويرى ظواهر الأعمال والأمور المخالفة انحرافاً عن الشرع

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي: ٢٣٩/٢ ومختصر تاريخ ابن عساكر: ٣١٦/٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية: ٨٦/١ .

(٣) الرسالة القشيرية: ٨٢/١ .

والجادة الدينية في كل الظروف والأحوال. ولكن هذه النظرة السطحية نظرة خاطئة، بل خطيرة، يجب التنبه إليها والحذر منها. وهذا ما يبينه ابن عطاء الله في هذه الحكمة، إذ يقول: «تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال».

إذن فليس عنوان العمل في ظاهره الاسمي، هو مناط المثوبة والقبول من الله عز وجل، ولكن مناط ذلك ما تفرزه الحالة التي يمرّ بها المسلم المتجه بكليته إلى الله.

ولقد كان نوع العمل الذي أفرزته حال فضيل بن عياض إذ كان يقف في عرفة مع جموع الحجيج، هو ذلك الاستغراق في مشاعر الخجل والحياء من الله، إذ كان يذكر ماضي سلوكه في شروده عن الله!.. فما من ريب أن ثواب ذلك الاستغراق بالنسبة لحاله هو ثواب الذاكرين والداعين والمرددين للأوراد المأثورة في ذلك المقام.

وكان نوع العمل الذي أفرزته حال سريّ السقطي المتمثلة في ندمه وحيائه من الله إذ جعل حمده له ترجمة لسروره بما امتاز به عن إخوته الآخرين في السوق، إذ احترقت حوانيتهم، وبقي حانوته سالماً لم يمسه سوء، الاستغفارَ من ذلك الحمد الذي رأى أنه ليس أكثر من غلاف لما رضيه من حال الآخرين ما دام هو سالماً!..

وكان نوع العمل الذي أفرزته حال داود الطائي من الهم الواصب الذي منعه من الرقاد ليالي متوالية، هو ذلك الهم ذاته!.. ولاحظ كيف أن ذلك الهم الذي انتابه لم يترك له خياراً في أن يرقد وينام، أي فلا يجوز أن يقال في حقه: إنه خالف هدي رسول الله ﷺ القائل: «أما أنا

فأصوم وأفطر وأنام الليل وأتزوج النساء». إذ هو لم يختر لنفسه عملاً يخالف هدي رسول الله هذا، ولكن حاله التي انتابته اضطرته إلى وضعه الذي وصفه عن ذاته.

كذلك كان نوع العمل الذي أفرزته حال معروف الكرخي عندما سمع السقاء يقول: يرحم الله من يشرب مني، إذ أيقن بصلاح السقاء. وهزّه الشوق إلى أن يكون واحداً ممن يرحمه الله بدعائه، هو هذا الذي أقدم عليه من قطع صومه والشرب من يد السقاء. لا يقال: ولكن في الفقهاء من قالوا إن البدء بالعبادات النافلة يستوجب المضيّ فيها، لأن أولئك الفقهاء كما اجتهدوا فرأوا ذلك، كذلك معروف الكرخي دلّه حاله التي هيمنت عليه على اجتهاده الذي مال إليه.

وإذا أدركت هذه الحقيقة التي ينبِّه إليها ابن عطاء الله، والتي شرحتها وأوضحتها لك بهذه الأمثلة من أحوال الصالحين، لن يمتد لسانك بنقد أو بقالة سوء في حق كثير من الصالحين الربانيين الذين ساقتهم أحوالهم مع الله إلى أعمال وتصرفات، قد تراها - في الظاهر - غير سديدة أو غير موافقة لظواهر الأحكام.

ولتعلم أنه يدخل في تنوع أجناس الأعمال بسبب الأحوال النفسية، تفاوت الناس في مدى قربهم إلى الله ومدى شهودهم لصفات الله تعالى واستغراقهم في مشاعر عظمته وجلاله.. قد ترى فيهم من يبتعد عن تناول الطيبات من الطعام ويعرض عن تتبع ما لذّ من الشراب، وقد ترى فيهم من إذا ساق الله إليه دون تكلف منه شيئاً من تلك الطيبات، أقبل إليها وتمتع بها وتضلّع منها.

إن الصنف الأول ليس له خيار فيما فعل، إذ إن حاله التي تهيمن عليه تجعله يغصّ باللذيذ من الطعام والشراب، كالخائف الذي سيق إلى ساحة الإعدام لينفذ فيه حكمه، أفيطيب له أم أيهنأ بتناول الطعام اللذيذ إذ يوضع بين يديه؟!.. إن في الربانيين الذين هيمنت عليهم هذه الحال التي وصفت، من يكونون من الأطعمة والمشتهيات اللذيذة في مثل شعور هذا الذي سيق إلى الإعدام.

أما الصنف الثاني، فيملك خياره وإرادته، إذ إن الحال التي هو فيها، هي حال سرور بشهود صفات اللطف والرحمة والعفو والإكرام من الله تعالى.. ومن ثم فليس في مشاعره الداخلية ما يصدّه عن التعامل والتفاعل مع قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧].

وهذا يعني أن من الخطأ أن يقول أحدنا: أفكان رسول الله ﷺ يحرِّم على نفسه اللذائذ؟ أو أن يقول: أفكان في أصحاب رسول الله والتابعين، من يفرض على نفسه الحرمان من اللذائذ المباحة الموجودة؟.. لأن حال الصنف الأول ليس حال أناس اختاروا أن يخالفوا هدي رسول الله ﷺ، أو سيرة أصحابه من بعده، إذن لاعترضنا عليهم واتهمناهم بالابتداع. ولكنها حال من غُلِبَ عليهم، ففقدوا اختيارهم من جراء المشاعر التي انتابتهم... والمشاعر انفعالات قَسرية لا توصف بالحرام والحلال..

على أن في أصحاب رسول الله من انتابتهم هذه الأحوال القسرية، حتى حيل بينهم وبين التنعم بالطيبات، منهم سيدنا أبو الدرداء وسيدنا أبو ذر وكثيرون.

أما الأحوال الاجتماعية، فالمراد بها ما يتعرض له الإنسان من الانتقال من حال العزوبة إلى الزواج، ومن حال الفراغ إلى التقيد بالوظائف والأعمال، كما يراد بها تنوع المعارف والاختصاصات العلمية والعملية والمهنية. وتفاوت الوظائف الإدارية والسياسية.. فهذه كلها أحوال اجتماعية يتعرض كل منا لتقلبات كثيرة فيها.

إذا تبين هذا، فاعلم أن الفرائض التي أمر الله بها تشكل الجامع المشترك بين أصحاب هذه الأحوال كلها، ذلك لأنهم جميعاً مكلفون بتلك الأساسيات التي فرضها الله عز وجل على عباده جميعاً. كأركان الإسلام الخمسة من صلاة وصيام وحج وزكاة وشهادتَي توحيد الله ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

ولكن ما وراء ذلك من القربات والعبادات تتنوع حسب تنوع الأحوال الاجتماعية التي يتقلب المسلم في غمارها. والسر في هذا الربط بين أنواع القربات وأنواع الوظائف والمسؤوليات الاجتماعية، أن الخدمات الاجتماعية بحدّ ذاتها تعدّ من أهم الأعمال التي يُتقرب بها إلى الله، إن صفت النية وأريد بها الحصول على مرضاة الله.

وها أنا أبرز لك هذه الحقيقة من خلال النماذج والأمثلة التالية:

۞ شاب لم يتزوج بعد، فهو لا يحمل إلا مسؤولية نفسه، الأعمال المقربة إلى الله بالنسبة له، بعد الجامع المشترك المتمثل في الفرائض العامة، هو التفرغ لمزيد من العبادات والإقبال على القرآن تلقياً ثم إكثاراً من تلاوته، وتتبع مجالس العلم والذكر، هذا بقطع النظر عن شؤونه الدنيوية التي هو بصدد تكوينه لذاته عن طريقها. كالتوجه إلى الدراسات وإلى المهارات التي ينبغي أن يأخذ نفسه بها.

۞ فإذا تزوج، فقد أصبح ذا مسؤولية مزدوجة. إذ غدا مسؤولاً عن نفسه وعن أهله الذين هم زوجه وأولاده. ومن شأن ذلك أن يدخل تعديلاً كبيراً على الأعمال والطاعات التي كان يتقرب بها من قبل إلى الله. إن عليه أن يعلم أن السعي على أهله ليغنيهم ويكفهم عن المسألة جزء لا يتجزأ من أهم القربات، والجلوس معهم عندما يعود من وظيفته أو شؤونه للتحبب والإيناس جزء لا يتجزأ من هذه القربات، والعمل في السوق للكدح الدنيوي يغدو بالنسبة لحاله جزءاً لا يتجزأ من العبادات والطاعات، والعكوف على تربية الأولاد وتسليكهم في طرق الهداية والخير الأخروي والدنيوي جزء أساسي من هذه الطاعات. ولا شك أن هذه الأنواع الجديدة التي طرأت على حياة هذا الشاب من الأعمال الصالحة، لا بدّ أن تأخذ من حظ العبادات والقربات الأخرى التي كان يشغل نفسه بها قبل الدخول في حالته الجديدة هذه.

۞ والعامل الذي يشتغل في معمل لحساب صاحبه، ينبغي أن يعلم أن الأعمال التي تقربه إلى الله تعالى، بعد الجامع المشترك من الفرائض والعبادات الأساسية، تتمثل في إتقان العمل الذي تعهد به والذي ائتمنه عليه صاحب المعمل.

ومعنى هذا أن ساعات العمل التي تعاقد عليها العامل مع صاحب المعمل، يجب أن ينصرف كلها إلى العمل الذي تم التعاقد عليه فيها، على أن تطرح من ذلك الدقائق التي لا بدّ منها لأداء الصلاة المكتوبة ومقدماتها من طهارة ووضوء.. أي فلا يجوز له أن يصرف، من وراء

ذلك، شيئاً من ساعات العمل إلى أداء نوافل أو قراءة قرآن أو دراسة علم ولو شرعي. ذلك لأن الحال الاجتماعية التي يمرّ بها هذا الإنسان تضعه أمام نوع آخر من الأعمال المقربة إلى الله، ألا وهو العكوف على أداء ما التزم به على خير وجه. ولا يمنعه من اكتساب الأجر الوفير على ذلك من الله عز وجل، إلا أن تكون نيته غير خالصة لوجه الله عز وجل.

كثيرون هم العمال الذين إذا حان وقت الصلاة اتخذوا من انصرافهم إلى الصلاة ذريعة لتشاغل وتكاسل عن العمل الذي تحملو مسؤوليته تجاه رب العمل، إذ يطيلون من وقت الصلاة ومقدماتها بدون موجب، وربما اجتمع المصلون من العمال يتجاذبون أطراف الأحاديث المسلية فيما بينهم، أو ربما رأيت البعض منهم يطيب له أن يواصل جلوسه في مصلاه بعد الصلاة لقراءة قرآن أو دراسة كتاب. موهماً نفسه أنه يتقرب بذلك إلى الله. مع أن انشغاله بذلك إنما هو في حقه معصية تستوجب الوزر. ذلك لأن هذه الدقائق التي صرفها إلى هذه النوافل الدينية، ليست ملكاً له، وإنما هي ملك لرب العمل، فهو بما أقدم عليه إنما مارس عدواناً على حق الغير. وهذا الحكم الشرعي مثبت في باب الإجارة من مصادر الشريعة الإسلامية.

كذلك كثيرون هم الذين يؤدون العمل الذي طلب منهم بشكل سطحي غير متقن، إمّا تهاوناً منهم وضجراً من الصبر على بذل كل ما في الوسع لأداء العمل على وجهه السليم، وإما لحقد أو لحسد يهيمن على نفوسهم تجاه صاحب المصنع أو المعمل، وأكثرهم لا يعلمون أن

تهاونهم هذا لا يقل في ميزان الشرع عن حال من يتهاون في صلاته فينقص بعضاً من أركانها أو واجباتها أو يعجل بها للتخلص منها. إن نوع الطاعة، بل العبادة، التي يطالب الله بها هذا العامل ليس أكثر من العمل الذي كلف به (بعد أداء الجامع المشترك من الفرائض الأساسية) لذا فإن أي خيانة تبدر منه في العمل تجاه رب العمل إنما هي خيانة تجاه الله عز وجل.

◉ والموظف الذي أقيم وراء مكتبه لأداء الأعمال الإدارية التي كلف بها، يجب أن يعلم أن عبادته التي تقربه إلى الله تعالى تتمثل (بعد أداء العبادات الأساسية) في إتقان الوظيفة التي عهد بها إليه. ويجب أن يعلم أن الأجر الذي يدّخره الله له عليه، لا يقل عن أجر العبادات والقربات التي يتقرب بها العباد المتفرغون للنوافل والأذكار وتلاوة القرآن ونحوها، بشرط أن يقصد بذلك وجه الله عز وجل. وأن يكون العمل الذي عهد به إليه مشروعاً ومفيداً للأمة في أصله.

◉ وصاحب المسؤوليات السياسية على اختلاف درجاتها ورتبها، ينبغي أن يعلم أنه إذا أنجز الجامع المشترك الذي كلف الله به سائر عباده والمتمثل في الفروض والعبادات الأساسية، فإن القربات التي تستنزل مرضاة الله، بالنسبة إليه، إنما تتمثل في خدمة الأمة وحماية حقوقها ورعاية قيمها، ومدّ رواق الأمن والطمأنينة والرخاء فيما بينها. إنَّ سهر وليّ أمر المسلمين، أو أي من حاشيته وأعوانه، للنظر في رعاية أي من هذه الواجبات، ليس أقل أهمية، في ميزان الطاعات المقربة إلى الله، من سهر المتعبدين والمتبتلين بنوافل الصلاة من تهجد

وقيام وذكر واستغفار.. على أن يتوخى أصحاب هذه المسؤوليات في جهودهم وأعمالهم بلوغ مرضاة الله، وعلى أن لا تعوقهم جهودهم تلك عن النهوض بالجامع المشترك المتمثل في الفروض الأساسية المتمثلة في أركان الإسلام.

۞ ولقد نوع الله قدرات عباده بما يهيئها للنهوض بأنواع الطاعات والقربات كلها، فكان من مقتضى ذلك أن ينهض صاحب كل قدرة متميزة بالأعمال المنسجمة مع قدرته.

فمن مظاهر هذا التنوع ما قد تراه من حال إنسان أقدره الله على استيعاب المعارف والعلوم الإسلامية، فهو عاكف على دراستها ثم تدريسها ونشرها بالوسائل الممكنة. تلك هي القدرة التي منحه الله إياها، إذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به، من قبل الله عز وجل، وما قد تراه من حال إنسان آخر أقدره الله على السير بين المتخاصمين من الناس بإصلاح ما بينهم، ووسع صدره للصبر على ذلك، دون أن تكون له باع عريضة في العلم ومسائله، إذن تلك هي القدرة التي منحه الله إياها، وإذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به والذي يقرّبه إلى الله عز وجل.. وما قد تراه من حال إنسان ثالث لا يد له بهذا ولا بذاك، ولكنه ينشط بالسعي في خدمة الناس، وقضاء حوائجهم وردّ الأذى عنهم، إذن فذلك هو العمل النوعي المنوط به من قبل الله عز وجل.

وهكذا فقد وضح المعنى المراد بقول ابن عطاء الله: «تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال».

أما الأثر التربوي الذي تحدثه معرفة هذه الحكمة بأبعادها التي فصلت القول فيها، فهو الالتزام بضوابط الأدب مع عباد الله جميعاً ما داموا مسلمين.. إنك بعد أن عرفت هذا الذي ذكرته لك من تنوع الأعمال المقربة إلى الله، وعدم انحصارها في المظاهر العبادية المعروفة والمألوفة، لن تتمكن من إساءة الظن في حق من قد تراهم مقصرين في أداء الصلوات أو غيرها من الأذكار والقراءات، كما أنك لن تسيء الظن في أي من المتبتلين والمتعبدين الذين وردت في ترجماتهم تصرفات ومواقف، قد تراها في بادئ الأمر مخالفة للشرع، أو ترى فيها مبالغة لا وجه لها في باب التورع وحدوده. وقد عرضت لك نماذج وأمثلة منها.. ذلك لأنها نتائج لأحوال نفسية كانت تهيمن عليهم فلا تدع لهم خياراً فيما كانوا يفعلون.

وكم رأينا، ونرى، أناساً يطيلون ألسنتهم بقالة السوء، في حق هؤلاء الصالحين دون رويّة أو إدراك لهذا الذي يقوله ابن عطاء الله.

وكم رأينا ونرى أناساً ينتشون ويطربون بقالة السوء في حق أناس أقامتهم ظروفهم في أجواء بعيدة عن التنسك والانضباط بآداب الكمالات الدينية المعروفة، دون أن يدركوا أن القربات التي ترضي الله ليست محصورة في هذه الظواهر المحدودة، ودون أن يعلموا أن الوظائف التي أقامهم الله عليها هي أجلّ من تلك الظواهر أثراً وفائدة لهم عند الله إن أخلصوا له في القيام بها على الوجه السليم.

بل حتى الذين قد نراهم مقصرين في الفرائض الأساسية التي عبرنا عنها بـ «الجامع المشترك» يجب أن نذكرهم بها وندعوهم إليها، ولكن

لا يجوز أن نسيء الظن بهم، إذ إن انصرافهم إلى وظائفهم الأخرى التي أناطها الله بهم، ستكون على الأغلب جاذباً لهم إلى تدارك ذلك التقصير، كما رأينا من حال الكثيرين من أمثال هؤلاء.

واعلم أن ثمة فرقاً كبيراً بين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطورة سوء الظن، إن الأول لا يستلزم الثاني بحال من الأحوال. أي فواجبنا أن نذكر المقصرين بالفرائض والأركان، وأن نجنح إلى حسن الظن بهم في الوقت ذاته، أي أن نرجح في باب التصورات والافتراضات المستقبلية أن الله سيلهمهم تدارك هذا التقصير، وأنهم سيؤوبون إلى الله عما قريب، بفضل وظائفهم الأخرى التي يؤدونها على النهج السليم الذي يرضي الله عز وجل.

* * *

الحكمة العاشرة

«الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها»

هذه الحكمة ذيل متمم للحكمة السابقة.

فبعد أن عرفنا أن الأعمال التي يتقرب بها المسلم إلى الله، ليست محصورة في الفرائض الأساسية التي تمثل أركان الإسلام، بل هي كثيرة ومتنوعة تشمل كل ما يدخل تحت قوله الله: ﴿عملوا الصالحات﴾ مما يعود بالفائدة إلى الفرد والجماعة من الناس، وبعد أن عرفنا أن الله وزع أنواع هذه الأعمال الكثيرة بين عباده المؤمنين، كل حسب إمكاناته وقدراته وظروفه التي أقامه الله فيها، أقول: بعد أن عرفنا هذا، يستدرك ابن عطاء الله، فينبهنا إلى أن صلاحية هذه الأعمال، وأثرها في تحقيق مرضاة الله ونيل المثوبة منه، على تنوعها واختلافها، مشروط بسلامة القصد الدافع إلى فعلها، والمراد بالقصد السليم ذلك الخالي عن شوائب الأغراض والمصالح كلها، إلا قصد التقرب إلى الله والوصول إلى مرضاته.

ولا بدّ لإدراك معنى هذه الحكمة، والوقوف على الصلة الدقيقة بينها وبين الحكمة السابقة من بيان ما يلي:

كل القربات التي ينال بها المسلم مرضاة الله تعالى، مؤلفة من عمل وقصد.

فلا قيمة للعمل مهما كان في مظهره مقبولاً ونافعاً إن لم يكن القصد الدافع إليه مجرد الحصول على مرضاة الله ومثوبته. ولا قيمة للقصد (في أكثر الأحيان) إن لم يتجلّ في العمل المقصود.

ولاحظ أنني أقرر أن وجود العمل مفصولاً عن القصد السليم الذي يعبَّر عنه بالإخلاص لوجه الله، لا قيمة له في ميزان الشرع وحكمه في كل الأحوال، ولا داعي إلى التذكير بالنصوص الدالة على هذا من الكتاب والسنة، فهي معروفة، ولعلها محفوظة. إذن فلا استثناء لهذا القرار أو الحكم العام.

ولكني عندما قررت العكس، قيدت ذلك بـ (أكثر الأحيان). ذلك لأن النية السليمة قد تغني عن العمل في بعض الأحيان، وذلك عندما يملك المسلم صفاء القصد وخلوص النية لله عز وجل في الاتجاه إلى عمل ما، ولكنه لا يملك القدرة على تحقيق ذلك العمل، كتوجه قصده إلى مدّ يد العون المادي إلى فقير محتاج، أو العون المعنوي إلى ضعيف يحتاج إلى خدمة أو رعاية أو ردّ غائلة عدوان، ولكنه ينظر، فلا يجد لديه القدرة على ذلك. مما لا ريب فيه أن النية وحدها في هذه الحالة تكفي، وقد دلت على ذلك أحاديث كثيرة ثابتة عن رسول الله ﷺ.

غير أن هذا الانفكاك لا يتأتى في انفراد العمل عن القصد السليم المتمثل في الإخلاص لله عز وجل، بل كلما كان العمل المنفَّذ مرتبطاً بقصد غير سليم، فهو عمل لاغ وباطل في ميزان الله وحكمه. وقرار الله في ذلك نافذ لا مردّ له: ﴿وَقَدِمْنا إِلَى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣].

إذا تبين هذا، فتعال نسقط هذه الحكمة، بل هذه القاعدة على أمثلة من أرض الواقع:

۞ رجل ركبته ديون مالية حان وقت سدادها، رأى صاحب أو أصحاب هذه الديون، مقبلين إليه من بعيد، فاتجه مسرعاً إلى أقرب مسجد وأخذ يصلي سلسلة من النوافل الكثيرة. مما لا شك فيه أنْ ليس لهذا المصلي أن يتصور أنه يمارس من صلاته عملاً يتقرب به إلى الله. إذ إن الله لم يقمه من الطاعات والقربات في هذه الصلاة، ذلك لأن قصده ليس التقرب بها إلى الله، وإنما التهرب من سداد الدين.

۞ عامل يشتغل في معمل، انتهز فرصة أذان الظهر، فترك عمله بحجة التوجه إلى صلاة الظهر، وتوضأ فأطال الوضوء، ثم دخل الصلاة فأطال منها ما شاء أن يطيل، ثم اتخذ مجلسه في ظل ظليل وأسند ظهره إلى مكان مريح وأخذ يتشاغل بالأوراد الكثيرة أو بقراءة القرآن. من الواضح أن هذه الصلاة بهذا الشكل لا تدخل في أنواع الأعمال المقربة إلى الله، لأنه إنما ابتغى بها الابتعاد عن العمل الذي هو بصدده بحثاً عن الراحة.

۞ واحد من هؤلاء الذين ينشطون في أعمال حركية خدمةً للإسلام وللدعوة الإسلامية فيما يزعمون، يعلم في قرارة نفسه أنه يبتغي من أنشطته التي يقوم بها، فائدة دنيوية من زعامة أو مال أو مركز سياسي، جاء من يعتب عليه بأنه مقصر في عباداته، لا يستيقظ لصلاة الفجر إلا مع الشمس أو قبيلها، لا يتعهد نفسه بشيء من تلاوة القرآن، فأجابه قائلاً: إن الله أقامه في أعمال الدعوة وخدمة الإسلام،

ولم يقمه في العكوف على العبادات وتلاوة القرآن والأوراد!.. مما لا ريب فيه أن دعواه باطلة، إذ إن عمله الذي ينصرف إليه غير مقترن بروح الإخلاص لوجه الله عز وجل.

۞ ثلة من الأصدقاء توجهوا حجاجاً إلى بيت الله الحرام، وقد تطاوعوا فيما بينهم أداء الخدمات ورعاية مصالحهم الشخصية، رأى أحدهم أن يهرب من أعمال الخدمة المتمثلة في غسل الأطباق وتهيئة الطعام وتنظيف المنزل، فاتجه إلى الحرم يطوف آناً ويصلي آناً ويتلو القرآن آناً آخر، تاركاً لإخوانه تلك المهمة التي فرّ منها، لا شك أن عمله الذي اختاره لنفسه لا يدخل في قول ابن عطاء الله: «تنوعت أجناس الأعمال، بقدر تنوع واردات الأحوال» حتى ولو رأى هذا الرجل نفسه متميزاً عن إخوانه بدراية فقهية ومركز علمي وديني مرموق. ذلك لأن هذه المزية لا تجعله أهلاً لما اختاره لنفسه من الطواف والصلاة والقراءات دون غيرها من خدمات المنزل.

۞ قد تجد صاحب تجارة أو مصنع، يلهث مسرعاً إلى أعماله التجارية أو الصناعية وينشط لذلك نشاطاً يذهب براحته وينسيه أكثر وظائفه الدينية باستثناء الأركان والفروض الأساسية منها، فإذا جاء من يذكره بالله وواجباته والوظائف الدينية المنسية من حياته، قال: ألستم تقولون: تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال؟.. وها قد أقامني الله من أجناس الأعمال في عملي التجاري هذا!..

إن كلامه هذا غير مقبول، وعمله ليس من الأعمال الصالحة الداخلة في أجناس هذه الأعمال، ذلك لأنه لا يقبل على تجارته

وشؤونها من حيث هي عبادة متميزة أقامه الله فيها، فهو لا يمارسها إلا ابتغاء رضا الله عنه، وإنما هو متهافت عليها سعياً وراء حظ نفسه، ولحاقاً بأحلامه التوسعية التي يضحي في سبيلها بالكثير من أوامر الله وحدوده.

* * *

وصفوة القول، هي أن علينا أن نعلم ولا ننسى أن الأعمال الصالحة التي يأمر الله بها في محكم تبيانه، ليست محصورة في قائمة الفرائض والأركان الأساسية للإسلام بل تشمل كل ما يحقق مصلحة من مصالح الناس من حيث الأفراد ومن حيث التركيبة الاجتماعية. على أن يراعى في أنواعها الترتيب الذي جاء به كتاب الله عز وجل، وهو وضع مصلحة الدين في رأس المصالح كلها، تليها مصلحة الحياة فالعقل فالنسل فالمال.

فكل هذه الخدمات داخل دخولاً أولياً في معنى الأعمال الصالحة التي يأمر بها الله عز وجل ويثيب عليها، وإذن فهي من العبادات التي يحقق بها المسلم معنى عبوديته لله عز وجل.

إنما المشكلة في انفصال هذه الأعمال عن الهدف القدسي الذي يجعل منها عبادة، ويجعل من صاحبها عبداً يمارس بها عبوديته لله بالسلوك الاختياري.

المشكلة أن تصبح الحوافز الدافعة إلى أعمال التجارة والصناعة والزراعة إمتاع النفس بحظوظها، والركون إلى زهرة الحياة الدنيا بدلاً عن الإقبال بها إلى الله.

المشكلة أن يسمر الزوج مع زوجه وأولاده في جو مغموس بالمنسيات والملهيات والمحرمات، بدلاً من أن يسمر معهم ليحقق ما قد أمر الله به من إيناسهم وإدخال البهجة في نفوسهم، فيزداد بذلك قرباً إلى الله.

المشكلة أن ترتفع الأصوات بالخطب الحماسية الدينية، وأن تدبج المقالات وتكتب البحوث في تمجيد الإسلام، وأن تصرف الأموال الطائلة على المؤتمرات الإسلامية، ثم يظهر للعيان أن الإسلام يتخذ مطية ذلولاً لمطامع ومطامح دنيوية يتم التنافس عليها والتزاحم من أجلها، ويتخذ سلّماً للوصول إلى الجوائز والامتيازات المالية والوظيفية.

والمشكلة باختصار أن يغدو التحرك بأنواعه على مسرح العمل الإسلامي في مجتمعاتنا اليوم، حرفة من الحرف الكثيرة المتنوعة التي يبتغى منها الرزق وما في حكمه.

ولو صفت القلوب، وخلصت النيات من الشوائب، وهيمن الإخلاص لوجه الله على أفئدة العاملين على اختلاف أنواعهم وفئاتهم، لرأيت أن كلمة المسلمين اليوم واحدة، ولرأيت أن أمرهم بأيديهم، ولرأيت أن هيبتهم وقوتهم ملء أفئدة أعدائهم.

فإذا آل العمل الإسلامي في مظاهره المتنوعة إلى أن يصبح حرفة لاستثمار الدنيا ومتمولاتها، فماذا تتوقع من الحرف الدنيوية؟ وكيف السبيل إلى أن يسمو بها أصحابها إلى مستوى الأعمال الصالحة التي يبتغى بها وجه الله؟!..

ولكن لا بدّ أن أستدرك فأؤكد أن في المسلمين من لا يزالون على عهد، صادقين مخلصين، لا يضرهم المخالفون لهم، بوسعك أن ترى منهم في كل دولة ومدينة وصقع. وصدق رسول الله ﷺ القائل: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[١].

* * *

(١) متفق عليه من حديث المغيرة.

الحكمة الحادية عشرة

«ادفن وجودك في أرض الخمول

فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه»

دعونا نوضح المعنى المراد بالخمول أولاً.

كثيرون هم الذين يتصورون أن الكلمة تعني الكسل والدعة.. يقولون: فلان خامل، يقصدون أنه كسول لا ينهض بعمله ومسؤولياته.

غير أن هذه الكلمة تعني في اللغة الابتعاد عن الأضواء وعن أسباب الشهرة. وأن يكون الإنسان مجهولاً لدى الآخرين لا يعرفه أكثر الناس.

نعود الآن إلى هذا الذي يقوله ابن عطاء الله:

«ادفن وجودك في أرض الخمول» أي عندما تريد أن تنهض بمهامك التي تريد أن تنهض بها دينية أو دنيوية (ومراد ابن عطاء الله بها هنا المهام الدينية)، عليك قبل أن تشتهر بين الناس وقبل أن يَرَوْك على مسرح الأحداث ويشار إليك بالبنان، أن تدفن وجودك لمدة من الزمن في أرض الخمول، أي بعيداً عن الشهرة، متوارياً عن أضوائها. وليكن عملك خلال ذلك هو السعي إلى أن ترعى ذاتك وأن تنضج عقلك وأن تربي نفسك، وأن تصفي سريرتك من الشوائب. ليكن همك محصوراً في ذلك.

وأنت لا تستطيع أن ترعى نفسك وكيانك هذه الرعاية، إلا إن كنت مختلياً بنفسك بعيداً عن الضوضاء وعن الأضواء الاجتماعية وتيارات الأنشطة العامة.

ويشبه ابن عطاء الله السكندري هذا القانون التربوي في حياة الإنسان بالقانون ذاته في عالم النبات!.. فالنواة التي تريد أن تستنبتها، ستنمحق وتموت إن أنت ألقيتها رأساً على وجه الأرض وتركتها ظاهرة بين الأتربة والحجارة، تشرق عليها الشمس المحرقة، ويتخطاها الغادي والرائح.

وإنما السبيل إلى استنباتها أن تدفنها في ظلمات التراب وباطن الأرض، وتترك على هذه الحال مدة، بحيث تتفاعل مع ذاتها، وينضج ثم ينبعث كل ما قد أودعه الله في داخلها من الخصائص المتمثلة في أوراق وعروق تتجه صاعدة إلى وجه الأرض، تمزق الأتربة التي فوقها، بل تشق الحجارة التي في طريقها، لتصافح الهواء الساري ولتتغذى بضياء الشمس المشرقة.

فظهور النبات يمرّ، إذن، بمرحلتين: مرحلة التأسيس إذ يكون في باطن الأرض، ومرحلة النمو والعطاء إذ يكون على ظاهرها تحت ضوء الشمس وأمام الأبصار.

القانوني الإلهي واحد سواء فيما يتعلق بالنواة والبذور التي تُسْتَنْبَتُ، أو بالإنسان الذي يريد أن يكوّن ذاته.

إن بوسع الإنسان أن يعرف هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل خلال دقائق أو أيام..

ولكن إذا أراد أن يضع هويته هذه موضع التنفيذ، فيسير على صراط الله عالماً بشرعه مدافعاً عن دينه مجاهداً في سبيله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ناهضاً بواجباته الاجتماعية المثلى، فلا بدّ أن يسير في ذلك، سيرة النواة إذ يتكامل نضجها في رحم الأرض، فيتعهد نفسه بالتربية والتزكية وتخليتها من الشوائب، في مرحلة من الانطواء على الذات، والابتعاد عن ضجيج الأنشطة الاجتماعية.

ولو أنه قفز فوق هذه المرحلة، واتجه رأساً إلى الأنشطة الاجتماعية يتعامل معها ويتفاعل مع تياراتها، لكانت سيرته كسيرة النواة التي ألقيتها على وجه التراب وبين الحجارة، هل تنتظر منها إلا العفونة والفساد؟!..

إن مآل هذا الإنسان الذي بدأ عمله فوق مسرح الشهرة وتحت الأضواء الساطعة هو الخيبة والفساد!.. إن تكلم فلن يصدر عن علم ناضج، وإن هو أراد السير على صراط الله فلسوف تعوقه نفسه الأمارة بالسوء عن الانضباط بهذا السير، لما يعانيه من غرائز وشهوات وأهواء لم يتح له أن يخلص نفسه منها. وإذا اتجه إلى الأنشطة الاجتماعية، شدته رغائبه إلى التنافس في حظوظ المراكز والزعامات. والتسابق إلى حيث المغانم والأموال.

ذلك لأن نفسه لم يتح لها أن تتهذب في محراب العزلة، ولم تنبثق فطرتها السليمة ناضجة في رحم الخلوة.

وما أكثر الفساد الذي ينتشر اليوم في جنبات المجتمعات الإسلامية بسبب الإعراض عن هذا الذي يوصي به ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى، بسبب الكثير ممن يتزبب وهو حصرم.

ولكن ما من إنسان يبدأ بتكوين نفسه والتعرف على ذاته، وتغذية عقله بالعلوم والمعارف وتجارب الحياة، بعيداً عن الأضواء الاجتماعية وعن أسباب الشهرة وعن أحلام الزعامة مستعيناً بأجواء من الخلوات الجزئية التي تشبه جرعات الدواء المتلاحقة، أقول: ما من إنسان يأخذ نفسه بهذا العلاج، إلا وينضج عقله دراية وعلماً، وتتزكى نفسه تهذيباً وتربية، وتتجه منه المشاعر والعواطف إلى كل ما هو أعلى وأبقى وقد صفيت من شوائب الأهواء والرعونات.

وتصبح أنشطته وأعماله الاجتماعية عندئذ مفيدة ومثمرة له ولمجتمعه، تماماً كالنواة التي تركت في باطن الأرض، حتى تفجرت في ظاهرها نباتاً مخضراً يانعاً ثم مثمراً.

قد يسأل البعض: من أين جاء ابن عطاء الله السكندري بهذه الحكمة؟

والجواب أنه، كغيره، أخذها من سيرة رسول الله ﷺ التي رباه ونشّأه الله عليها. فلقد ورد في الصحيح أن الله حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء الليالي المتتابعة. كان ذلك هو العمل التأسيسي في رحلة القيام بالمهمة التي كلفه الله بها، من بعد.

وعندما نتبين الحكمة من ذلك، نعلم أنه كما احتاج رسول الله ﷺ بين يدي القيام بعمله الوظيفي إلى هذه الخلوة فبقية المسلمين أشد حاجة منه إليها.

وإننا لننظر، فنجد أن السلف الصالح كلهم ساروا على هذا المنوال، فلم يقفز أي من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ولا أحد ممن

جاء بعدهم فوق هذا القانون الذي يذكرنا به ابن عطاء الله رحمه الله تعالى.

إنني بحاجة من أجل أن أخرج إلى المجتمع فأنهض بواجباتي الاجتماعية بين الناس إلى **ثلاثة أمور**:

أولها: العلم. فلا يجوز لي أن أتكلم بين الناس وأن أقودهم إلى ما أرى أنه الحق بدون علم.

ثانيها: تزكية النفس، فالنفس كما هو معلوم أمّارة بالسوء. نفسي التي بين جنبي، تطمح بي (في بادئ الأمر) إلى البحث عن الزعامة.. إلى الوجاهة.. إلى منافسة الأقران.. إلى أن أكون أنا الأفضل في سائر الأمور والأعمال.. تطمح بي دائماً إلى المتع واللذائذ.. إلى جمع المال من أي نافذة لاحت، فإن صليت دعتني نفسي إلى أن أجعل من صلاتي سبيلاً لثناء الناس عليّ.. وإن قمت أعلّم الناس وأدعوهم وأعظهم، دعتني نفسي إلى أن أجعل من ذلك سُلّماً لشهرة وزعامة. وإن سلكت مسلك الاستزادة من الأذكار والعبادات والقربات، توجهت بي هذه النفس ذاتها إلى أن أكون بذلك وجيهاً ومعظماً في قلوب الناس. ولا علاج للتخلص من هذه الآفات كلها إلاّ أن آخذ نفسي هذه بمنهج التزكية التي أمرني الله بها.

ثالثها: تطهير القلب من محبة الأغيار!..

إنني أحب المال، أحب الزعامة، أحب زوجتي، أحب أولادي، أحب من سماهم الله الأنداد.. أي المنافسين لله عز وجل على قلوب

عباده. مطلوب مني أن أطهر قلبي من ذلك كله، وأن أسقط محبة هؤلاء الأغيار منه.

في أي مدرسة أحقق هذه النتائج الثلاث؟ لو أنني اندمجت في المجتمع، وحاولت وأنا أتقلب في غماره أن أطهر قلبي وأن أغذي عقلي وأن أزكي نفسي فلن أصل إلاّ إلى نقيض ما أريد!..

إن الوصول إلى هذه الأهداف الثلاثة لا يتم إلا بإخضاع الذات لخلوات جزئية منظمة.. في هذه الخلوات، بقيودها التي سأتحدث عنها، أتهيأ لمعرفة ذاتي وللوقوف على هويتي عبداً مملوكاً لله عز وجل. وستسلمني هذه المعرفة إلى منهاج من الأذكار أجعل منها وردي الدائم، وسيكون الإكثار من تلاوة القرآن بتدبر وتأمل في مقدمتها. وشيئاً فشيئاً ستنجلي أمامي المكونات على حقيقتها. إنها أتفه وأقلّ من أن يتعلق بها القلب، تعلقاً يحجبه عن رؤية المكوِّن جلّ جلاله، ولسوف تتخلّى النفس عن رعوناتها وأهوائها، وتصطلح مع الروح الهابطة إلى الجسد من الملأ الأعلى، لتبدءا السير معاً على الطريق الموصل إلى رضوان الله عز وجل.

غير أن هذا لا يكون إلا عندما آخذ نفسي بمرحلة من الخمول وبساعات من العزلة أخلو بها إلى ذاتي، بعيداً عن المجتمع وضوضائه.

وإني لأشبه الإنسان التائه عن هذا العلاج، السابح في أمواج التيارات الاجتماعية المتنوعة، برجل اتخذ مكانه في ناد ليلي يفيض بالضجيج والأحاديث المتداخلة والأصوات المرتفعة، وفجأة أقبل إليه صديق أو شريك له في التجارة، يحدثه عن أمور حسابية تتعلق

بالشركة والأمور المالية التي بينهما. يصغي إليه صاحبه قليلاً، ثم يجد أن لا فائدة من الإصغاء، لا المتكلم ينفذ بالحديث دقيقاً إلى سمعه، ولا هو يستطيع أن يستوعب ما يقوله له، وسط ذلك الضجيج.. فيقول لصاحبه: قم بنا نبحث عن مكان هادئ يتاح لنا فيه التعامل مع الروية والفكر.

مثال ذلك أيضاً تاجر يمضي يومه في متجره مع الزبائن الغادين والرائحين، يندمج معهم ويساهم في ضجيجهم. ولكن ما من ريب أن سرّ نجاحه وأرباحه التجارية لا يكمن في اندماجه مع ضجيج السوق ومساوماته مع الزبائن، وإنما يكمن في الساعتين اللتين يقضيهما مختبئاً في مكتبه يراجع فيهما دفاتره، ويتأمل حساب الصادر والوارد لديه.

وكما أن مثال التجارة الدنيوية هذا، لا يعجز عن فهمه أحد. فكذلك شأن التجارة بأمور الدين.

إنني عندما أبدأ عملي الإسلامي بالاندماج في المجتمع داعياً وواعظاً حركياً آمراً ناهياً، وأجدني فجأة قد أصبحت زعيماً أو مسؤولاً كبيراً، أو اكتسبت شهرة بين الناس على حين غرة، فما من ريب في أني سأجند كل أنشطتي الدينية وإمكاناتي الحركية لحماية ما قد نلته من شهرة أو زعامة أو مال.

إذن ماذا عسى أن أستفيد وأفيد في هذه الحال؟

لن أستفيد سوى أوزار من الرياء والعجب أحملها إلى الله فوق كاهلي، ولن أفيد الناس إلا أقوالاً مرصوفة وحركات خداعة. أما الدين في جوهره فتائه وضائع بين هذين الطرفين!..

ولكني إن بدأت بالنظر إلى نفسي ومعالجتها، واتخذت من وصية رسول الله ﷺ منهجاً للتربية والعلاج: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»(١) فسوف يتقلص سلطان الدنيا وأهوائها شيئاً فشيئاً عن مشاعري ونفسي، ويتجلّى في مكانه سلطان الله عز وجل مهيمناً على كياني، وشيئاً فشيئاً يقودني دافع الإخلاص لله وحده، في سائر أعمالي وأنشطتي التي أمارسها. إذ سيتبين لي أنه لا يوجد أحد من دون الله يستأهل أن يكون عملي من أجله.

من ذا الذي يستطيع أن يفيدني أو يضرني من دونه؟! بل من ذا الذي يملك أي شيء من بعده؟!..

في ضرام هذا الشعور ينقدح الإخلاص لوجه الله، ويغيب عن الذهن والنفس وجود الأغيار على اختلافها. ويصبح الاندماج في المجتمع مأموناً ومحفوظاً من سائر الأخطار.

عندئذ لا خوف عليّ من المجتمع وأضوائه.. لا خوف عليّ من الرياء لا داعي إلى الحذر من العجب.. لا حاجة إلى الخوف ممن قد يحاول أن يشتريني لمصالحه بالمال، أو بالمتع والملذات.. إذ لن أجد أمامي أحداً إلا الله الذي هو وحده الفعال، وهو وحده النافع والضار.

كان في الناس الذين يغشون مجلس والدي رحمه الله من يسأله قائلاً: يا سيدي كيف السبيل إلى التخلص من الرياء؟

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والبيهقي وابن أبي الدنيا من حديث عقبة بن أبي عامر.

فكان يضحك متعجباً ويقول له: وهل يوجد أحد غير الله يستأهل أن ترائي له؟!.. المفروض في المرائي أن يجد بديلاً عن الله يتقرب إليه بعمله، فمن هو هذا البديل، وأين يوجد؟ إنّ الذي أيقن عقله معنى التوحيد الحقيقي يدرك كنه «لا حول ولا قوة إلا بالله» ومن ثم فلا معنى للرياء في ذهنه ولا وجود له في مشاعره.

تأمل في معنى هذا الكلام الدقيق. ولكن فلتعلم أن والدي دفن نفسه طويلاً في أرض الخمول، قبل أن يعصمه التوحيد من أخطار الرياء والعجب والأهواء، ويجعله يعجب من طرح مثل هذا السؤال.

* * *

على أن الخمول الذي يعنيه ابن عطاء الله هنا، أعمُّ من الخلوة التي نتحدث عنها، فالخمول يعني الابتعاد عن الشهرة وعن خِضَمِّ الأنشطة الاجتماعية، والركون إلى الذات لاستكمال معارفها وتنمية خصائصها ومزاياها، وتسليك النفس في مسالك التربية والتهذيب.

وكما يكون ذلك عن طريق الاستعانة بسلسلة الخلوات المنسَّقة، يكون عن طريق الاعتماد على دائرة ضيقة من المعلمين والمرشدين، والأقران الذين يستعان بهم في السير على هذا الطريق.. المهم أن لا يشغل السالك نفسه في هذه المرحلة بالشؤون العامة، وأن لا يزج نفسه في غمار الأنشطة الاجتماعية وضوضائها، إذ إن ذلك من شأنه أن يخنق براعم مزاياه العقلية والفكرية النفسية التي لم تتفتح بعد، في مناخ التربية والمعرفة، وأن تستثير في مكانها من نفسه النقائص والعيوب، كما قد أوضحت قبل قليل.

ومن المهم أن تعلم أن اتباع هذه الحكمة أساس لا بدّ منه في كل من القضايا الدينية والدنيوية معاً.

فكم من مصالح ومؤسسات اقتصادية واجتماعية وعلمية، تسرب إليها الفساد، إذ عهد برعايتها إلى أشخاص، رأس مالهم من الخبرة والمعرفة والمراس، زعامة أو شهرة أو مكانة، نالوها طفرة، دون أي مرور بقناة النضج التربوي أو الخبرة أو الدراية المعرفية!.. ففسدت المؤسسات، وتعطلت المصالح، وأفلست الشركات، إذ لم تغن الزعامة أو الشهرة أو المكانة الخلّبية، عن العلم والأخلاق والتربية شيئاً. وقد علمت أن التكوين التربوي للنفس، والتكوين المعرفي للعقل، لا يتم أي منهما إلا في رحم الخمول بعيداً عن أضواء الزعامة والشهرة المنبثقة من الهياجات الاجتماعية أو الحزبية ونحوها.

زارني مجموعة من الشباب، الذين قفزت بهم أنشطتهم الحزبية والاجتماعية إلى ذرا منابر الدعوة والتوجيه والأمر والنهي.. دون مرور بهذه المرحلة التكوينية التي يتحدث عنها ابن عطاء الله في هذه الحكمة. ولما اطمأنت بهم مجالسهم، نظر إليّ أحدهم ناصحاً -وكان أصغرهم سناً- وقال:

- قال الله تعالى: ((ولا تركنوا إلى الذين ظلَموا فَتَمُسَّكُمُ النار..))

قرأ الكلمة بهذا الشكل: «فتمُسَّكُم» بضم الميم!..

استعدته تلاوة الآية، ظاناً أن الخطأ في تلاوتها إنما كان سبق لسان. فأعادها كما بدأها، دون أن يتنبّه إلى أنه أخطأ في شيء ما. قلت له: ولكن الآية، كما هي في القرآن وفي اللغة: ﴿فتَمَسَّكم﴾ بفتح الميم لا بضمها. عليك إذن أن تعود فتصحح تلاوة الآية.

حاول الشاب كثيراً، دون جدوى، و لم يستطع أن يقيم لسانه على نطق سليم بكلمة ﴿فتَمَسَّكم﴾!!..

قلت له: يا هذا، لقد حملتك غيرتك الفجّة على الإسلام، على أن تجلس مني مجلس الناصح والواعظ، فهلاّ حملتك غيرتك هذه على أن تتعلم القرآن أولاً؟!.

والحق أني أسفت جداً لهذه المفارقة، ولكني لم أستغربها و لم أعجب منها، إذ إن حال هذا الشاب لم يكن بدعاً أو فريداً في أمثاله. بل هو نموذج لحال كثير من الشباب الذين يتربعون اليوم على أريكة الإرشاد والتوجيه، قفزاً فوق مرحلة التكوين التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، رشحتهم لها المراكز الحزبية أو الأنشطة الاجتماعية، أو المصالح المتبادلة. في غياب تام لمشاعر الغيرة على الحق والإخلاص لدين الله عز وجل.

* * *

الحكمة الثانية عشرة

« ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة »

هذه تتمة أو ذيل للحكمة التي قبلها.

وبين الحكمتين فرق، ومن اجتماعهما والأخذ بهما معاً يتحقق التكامل.

أما الفرق فيتجلى في أن ابن عطاء الله يركز في الحكمة السابقة على ضرورة مرور الإنسان، لتكوين نفسه، بمرحلة الخمول، أي الابتعاد عن أضواء الشهرة وعن ضجيج المجتمع ريثما تتهذب نفسه وتتسع معارفه وتتكامل خبراته.

أما هذه الحكمة، فيركز فيها على ضرورة اتخاذ الإنسان ساعات من العزلة بين الحين والآخر، يخلو فيها إلى نفسه. وقد علمنا أن العزلة أخص من الخمول. فالعزلة أن لا يكون معك فيها أحد، أما الخمول فيصدق بالابتعاد عن التيارات الاجتماعية، وتجنب الوقوع تحت أضواء الشهرة كما أوضحنا.

وأما التكامل الذي يتحقق من أخذ الإنسان نفسه بكل منهما، أي بالخمول في الميقات المناسب، وبشيء من العزلة ضمن الضوابط التربوية السليمة، فلسوف يتجلى ذلك على أعقاب الفراغ من شرح هاتين الحكمتين، ولسوف يستبين لنا أنهما دعامتان أساسيتان لا غنى عنهما لمن يريد أن يأخذ نفسه بمنهاج تربوي متكامل.

والآن نبدأ بشرح هذه الحكمة وتحليلها.

أولاً: كلمة القلب تأتي بمعنى العقل، وتأتي بمعنى العضلة المعروفة وراء الأضلاع في الجانب الأيسر من جسم الإنسان. وقد وردت في القرآن بالمعنيين: وردت بمعنى العقل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/٣٧] جلُّ المفسرين قالوا المراد بالقلب هنا العقل، ووردت بمعنى العضلة المعروفة وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨/١٣] ولكن ليس المراد بها العضلة المادية التي يصطلح عليها الأطباء، بل المراد ما ينعكس على هذه العضلة من المشاعر العاطفية من حب وخوف وتعظيم أي ما يسمى بالعواطف الدافعة والرادعة والممجّدة.

ومراد ابن عطاء الله بكلمة القلب هنا القلب بمعناه الحقيقي وليس المعنى المجازي المتمثل في العقل.

ثانياً: ينبغي أن نلاحظ أن ابن عطاء الله عبّر بكلمة (عزلة) منكرة، ولم يعبر بكلمة (العزلة) معرّفة. وبين النكرة والمعرفة فرق دقيق في المعنى.

كلمة (عزلة) منكرة تدل على التقليل بينما المعرّفة بـ «أل» تدل على التكثير.. فعندما يقول: «ما نفع القلب مثل عزلة» يعني مثل شيء من العزلة، ولو قال: ما نفع القلب مثل العزلة، لكان معناه: ما نفع القلب شيء مثل العزلة الدائمة. وهو إنما يريد التنبيه إلى أن المشروع والمطلوب إنما هو شيء من العزلة لا أن يتخذ الإنسان منها منهجاً

حياته كلها، فيبتعد عن المجتمع ويقصي نفسه عن الدنيا في كهف من الغربة والابتعاد عن الناس وشؤونهم.

إن هذا الثاني يتنافى مع الفطرة الإنسانية، إذ الإنسان اجتماعي بطبعه.

فمن أجل هذا ساق ابن عطاء الله الكلمة نكرة، ولم يأت بها معرّفة بـ «أل».

إذن العزلة ليست مرادة لذاتها وإنما هي مطلوبة لتكون مناخاً وظرفاً مناسباً، للتأمل والتفكير. أي فلو أن أحدنا أخذ الشطر الأول من هذه الحكمة فألزم نفسه بمنهاج من العزلة، يخلو فيها مع نفسه ساعة أو ساعتين كل يوم، يعانق هذه العزلة لذاتها بعيداً عن أي عمل.. بعيداً عن القراءة.. بعيداً عن أي وظيفة فكرية.. فهو سلوك جانح مختل، لا يأتي لصاحبه بأي خير، بل هو بالأحرى سلوك ضارّ للنفس ومزهق للوقت.

العزلة التي يندبنا إليها الإسلام وينبهنا إليها ابن عطاء الله هي تلك التي تكون مناخاً ومجالاً للتأمل والتفكر فيما يفيد الإنسان وفيما يقربه إلى الله وفيما يعتقه من أسباب الشقوة التي تتربص بالإنسان.

إذن هو هنا يدعونا إلى أمرين أحدهما مقدمة وسبيل للآخر هما: العزلة، والتفكر.

أولهما يشبه الحمية بالنسبة للمريض، وثانيهما يشبه الدواء بالنسبة له. فالمريض ينصحه الطبيب بأمرين اثنين، لا يستفيد من الواحد منهما

إن لم يتبعه بالثاني.. ينصحه بالحمية أولاً، وهي عمل سلبي يتمثل في الابتعاد عن الأطعمة الضارة ثم يكلفه بأن يستعمل خلال ذلك أدوية معينة يصفها له.

فلو أنه احتمى و لم يستعمل الأدوية لن يستفيد شيئاً. ولو أنه استعمل الأدوية ولكنه لم يحتم فإن هذه الأدوية لن تحقق المأمول من فائدتها.

إن هذا المثال صورة للحكمة التي ينصحنا بها ابن عطاء الله.

إنه يدعو المسلم، بل الإنسان أياً كان إلى عزلة تقوم أهميتها بالنسبة إلى الروح كأهمية الحمية بالنسبة للبدن. ولكنه يسرع فيقول: «يدخل بها ميدان فكرة» والفكرة التي يدعو إليها، تقوم ضرورتها للعقل والروح كضرورة الدواء بالنسبة للجسد المريض.

إذن فإذا ألزم الإنسان نفسه بساعة من الخلوة في كل يوم وليلة مثلاً يعزل نفسه فيها عن الناس، ينبغي أن يملأ فراغ خلوته هذه بموضوع يسلط عليه فكره للمناقشة وللنظر وللتأمل. على أن يكون الموضوع الذي يشغل فكره به، مما يوقظه إلى معرفة الحقيقة الكونية، لا موضوعاً يستهوي النفس ويخبل العقل. فلو أنه دخل خلوته هذه وأمسك بكتاب مليء بأصناف الدجل والخرافات أو الموضوعات التي تثير في النفس غرائزها وتجمح بها إلى أهوائها فإنه يكون قد اتخذ من خلوته وسيلة للابتعاد عن معرفة الحق ولإسدال مزيد من الحجب بينه وبين الله سبحانه وتعالى.

المراد بالفكرة الاشتغال بالموضوع الذي يُقرِّبُه إلى معرفة ذاته ويوقظه إلى إدراك هويته عبداً مملوكاً لله سبحانه وتعالى ومن ثَمَّ يُقَرِّبُهُ إلى معرفة ربه وصفات الربوبية فيه، ومن ثم يدنيه من محبة الله عز وجل وتعظيمه وتعظيم حرماته.

إذن لا بدّ من أن يشغل الإنسان نفسه في خلوته هذه بمادة تحقق له هذه الأهداف.. قد تكون هذه المادة قراءة كتاب الله سبحانه وتعالى وهي خير ما يملأ به الإنسان خلوته، وقد يكون الاشتغال بسيرة رسول الله ﷺ. ولا بأس أن يجعل مادة تفكيره التأمل في ذاته: من أنا؟ وكيف جئت إلى هذه الدنيا؟ كنت بالأمس طفلاً صغيراً لا أعي، ثم إني دخلت مرحلة الشباب، ثم إني تجاوزت الشباب إلى الكهولة، وها أنذا أتجه شيئاً فشيئاً إلى النهاية، وعما قليل سأرحل من هذه الدنيا.. ماذا صنعت في العمر الذي مضى؟ وماذا جنيت من الملاذ التي تمتعت بها؟ ما الذي بقي لي منها؟ وما الذي بقي مني لها؟ أتأمل في المتعة التي ذهبت لذّاتها وبقيت مغارمها، والطاعات التي ذهبت أتعابها ولكن بقي ثوابها.. أتأمل في هذا كله، وعندئذ أشعر بحالة من الحزن والندم.. لماذا لم أستكثر من الطاعات خلال عمري الذي مضى؟ ولماذا لم أقلل من المعاصي التي انزلقت إليها؟ وأنظر، وإذا بالعمر ما تزال منه بقية، فيحفزني الشعور بضرورة انتهاز الفرصة إلى التدارك قبل الفوات. وهكذا أعاهد نفسي، بل أعاهد الله أن لا أضيع الثمالة الباقية من العمر، وأن أسرع فأغرس أيامها الباقية من حياتي بالقربات والطاعات الممكنة.

ذلك هو أثر الخلوة إذ تمتزج مع موضوع فكري يوقظ العقل إلى الحقيقة الكونية الكبرى، ويحرر النفس من شوائب العصبية والأهواء.

ومستند ابن عطاء الله في هذا، كلام الله عز وجل، وبيان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهديه العملي.

أما الأول، فقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٤٦] أي لا أريد منكم سوى أن تتجردوا من عصبياتكم وعنادكم وأهوائكم، ويسأل الواحد منكم صاحبه في موقف ثنائي، أو يتأمل الواحد منكم منفرداً خالياً مع نفسه. في أمر محمد ﷺ وما جاءكم به، ولسوف يؤكد له عقله أنه رسول من الله إليكم كما قال، ليس به جِنّة كما تدعون، بل هو نذير لكم من عند الله بين يدي عذاب شديد.

وأما الثاني، وهو بيان رسول الله ﷺ، فمن ذلك قوله، فيما رواه أبو داود والترمذي والبيهقي وابن أبي الدنيا من حديث عقبة بن أبي عامر أنه سأل رسول الله: ما النجاة؟ فقال له: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وأما الثالث، وهو النهج العملي الذي بلغنا من سيرة رسول الله ﷺ، فهو سلسلة الخلوات التي حببت إليه ﷺ قبيل بعثته، وحديث بدء الوحي في ذلك معروف ومحفوظ، لا داعي إلى ذكره.

قد يخيل إلى بعض منكم أنه ﷺ ترك هذه العادة بعد البعثة، فلا حجة فيها.

والحقيقة أنه ﷺ لم يتركها بل واظب عليها بعد البعثة، ولكنه لم يلزم نفسه بالذهاب إلى غار حراء، ليجعل منه مثابة لخلواته. بل كان يؤدي هذه الوظيفة في داره. وكان أهم ساعات خلواته، إذا جنّ الليل ودخل الهزيع الثاني منه، كان كما تعلمون يقوم من فراشه فيسبغ الوضوء، ثم يخلو مع ربه مصلياً، تالياً ما شاء له الله من القرآن. وهذا كما تعلم أفضل موضوع يدور عليه الفكر أثناء مثل هذه الخلوة.

وإني لأتساءل: لماذا يأمر الله رسوله أمر إيجاب بهذه الخلوة؟ بعبارة أخرى: لماذا يأمره أن يقوم الليل: ﴿يا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١-٤] ما الذي يمنع من أن يؤدي رسول الله هذه الركعات مع قراءاتها، في بياض النهار؟ وما الفرق؟ وهلاّ توجه الأمر الإلهي إلى الاهتمام بالأذكار والأوراد التي كان مأموراً بها، بقطع النظر عن الأوقات وفرق ما بينها؟

الفرق هو التالي، ولتعلم أن رسول الله ﷺ قدوة في هذا وغيره للمسلمين جميعاً:

لو أدى رسول الله هذه الوظيفة في بياض النهار لما تحققت له هذه الخلوة التي يحفزنا ويدعونا إليها كتاب الله سبحانه وتعالى. الضجيج.. احتكاك الناس الذاهبين والآيبين.. السائلين والمتحدثين.. عوارض الدنيا ومشاغلها.. كل ذلك سيحول دون هدأة الفكر، وصفاء النفس!. ولكن فما هي الساعة أو الساعات التي هي مضرب المثل في بعث الصفاء في النفس والهدوء في الفكر؟.. إنه الهزيع الأخير من الليل،

لا سيما ساعة السحر. فالليل ذاته، لا يشبه أوله آخره كم وكم بينهم من فرق!..

ولعلّ هذا هو السبب فيما قاله العلماء من أن المتهجد لا يسمى متهجداً إلا إذا نام من الليل ثم استيقظ واتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالصلاة والدعاء والمناجاة!.. يستيقظ وقد هدأت النأمة، وعلق الكرى بأنفاس الناس جميعاً، وطابت الخلوة مع الله، في تلك الحالة يتسنى للإنسان أن يشعر بصفاء روحه وهدوء باله، بعيداً عن المشوشات والمعكرات التي كانت تأخذه وتردّه أثناء النهار.

فهذه من الخلوات التي فرضها الله على حبيبه المصطفى وجعلها سنة في حق أمته.

* * *

والآن، تعالَ نتبين أثر هذه العزلة الجزئية عندما يأخذ المسلم بها نفسه، على صعيد التنفيذ والواقع العملي.

افرض أنك تسير مع ثلة من إخوانك التجار في شارع كشارع الحمراء أو سوق كسوق الحميدية، والحديث دائر عن المال والدخل والاقتصاد، وجاء من يذكرك أثناء ذلك الضجيج بحديث رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1] ماذا عسى أن يحدث هذا الكلام من التأثير على

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عباس، وأنس بن مالك.

نفسك؟.. لن يحدث أي تأثير، بل ستتبرم بهذا الكلام الذي جاء في غير ميقاته، ولسوف تتغلب على فكرك ونفسك الحالة التي أنت فيها، والتيار الذي يحيط بك. وفي أحسن الأحوال الإيمانية لديك، ستحترم هذا الحديث وصاحبه، ثم تنساه بعد ثلاث دقائق.

ولكن فافرض أنك قمت من الليل، وقد بقي منه الهزيع الأخير، وتأملت السكون الذي يلتف بك، وقد بعث في نفسك صفاء لا عهد لك به، وأنعش فكرك بطمأنينة طالما بحثت عنها ولم تعثر عليها، فاندفعت بوحي من تلك الحال، إلى أن تتوضأ فتقف بين يدي الله تناجيه من خلال ما تيسر من الركعات، ولما جلست تتأمل الحال التي لبستك من خلال مناجاتك لله، في هدأة الليل وسكونه، بعيداً عن الناس والأقران وشواغل التجارة والمال، سمعت من يذكرك بحديث رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانياً..» الحديث أو يتلو عليك قوله ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت»[1] فما الذي يحدثه سماع هذا الكلام في فكرك ونفسك، وأنت في خلوتك تلك، مندمجاً في تلك الحال؟

سيسري تأثير كبير من هذا الكلام إلى نفسك، وسيخبو شعاع الأمتعة والزينة المتناثرة من حولك، وستشعر أن كل ما قد استزدته فوق الحاجة من أموال الدنيا ومتعها قد تحول إلى عبء على كاهلك. ولن يعيدك إلى التعامل معها والاستزادة منها، إلاّ اندماجك ثانية في أعمال السوق وتعاملك مع رواده وأهله.

---

(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة.

لعلك تقول: فإذا كان العود إلى السوق وأعماله التجارية أمر لا مناص منه، فما الفائدة من ساعة أخلو فيها إلى نفسي، كهذه الساعة التي وصفت من الليل؟

والجواب أن الفائدة ستظهر وتتحقق من استمرار هذه الساعة واتخاذك ورداً لها، والفائدة لا تتمثل في إعراضك عن السوق وإدبارك عن الدنيا وإنما تتمثل في انضباطك أثناء السعي من أجلها، بأوامر الله عز وجل، فلا تقتحم شيئاً من السبل المحرمة إليها، كما تتمثل في تحولك من محبوب يهيمن على قلبك، إلى خادم زمامه بيدك.

* * *

إذا عرفت هذا يا أخي المسلم، فتعال نتساءل:

لماذا يكرم أحدنا عينيه باليقظة والسهر في أول الليل ليلهو عن مولاه الذي هو الله، ولا يكرمهما باليقظة في آخر الليل ليكون مع الله؟!.. وما أعظم الفرق بين الحالتين، ما أعظم الفرق بين من يساهر الليل ليحجبه الليل عن الله، ومن ينام الليل ثم يستيقظ في آخره ليكون مع الله!..

أخيراً، لا يسرينّ إلى فكرك وهم يخيل إليك أنني أسوقك إلى التصوف بهذا الكلام. دعك من هذه الحساسية التي كم أساءت وأفسدت!..

إنني أدعوك بهذا إلى التحلي بما يدعو إليه الإسلام، بما كان عليه نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام.

قد تسأل: في الناس من يقولون، إن الانضباط بهذه الخلوة يحتاج إلى مرشد، فهل الأمر كذلك؟

وأقول في الجواب: متى كان التمسك بسنة رسول الله ﷺ يتوقف على مرشد، بحيث إن لم يوجد المرشد تعطلت السنة وتقطع سبيل الناس إلى العمل بها؟..

أجل.. لا نشك أن وجود المرشد نعمة كبرى، ولكن وجوده ليس شرطاً لإحياء السنة والتمسك بها، وإنما هو عامل إضافي لتذكير الناس بها، ثم إن ضرورة المرشد فرع عن ضرورة المربي، والتربية أساس اجتماعي لا بدّ منه.

على أن الذي يتخذ من أعمال الإرشاد حرفة يتكسب من ورائها ويبني لنفسه مكانة وشهرة بين الناس بها، ليس مرشداً، بل هو صاحب حرفة وطالب معيشة ورزق، طاب له أن يطرق في ذلك باب الدين بدلاً من الدنيا.

المرشد الذي هو مرشد حقاً، ذاك الذي تبصر بعلوم الشريعة الإسلامية بحيث أتيح له أن يجعل منها ضابطاً لسلوكه وتصرفاته، ثم إنه ذاك الذي فرغ قلبه من حب الدنيا والتعلق بها، فزهد فيها، وترفع فوق متعها وأهوائها، أعرض عن حظوظ نفسه، ولم يبتغ في شيء من أعماله إلا مرضاة ربّه.

تساوى لديه ثناء الناس عليه، مع انتقاصهم له. إذ كانت معاملته مع الله لا مع الناس، وكانت قرة عينه متمثلة في رضا الله، لا في مديح الناس.

إذا صادفك هذا المرشد، عليك به وتشبث بأذياله، إذ ما من شك أنه سييسر لك سبيل القرب إلى الله، وأسباب الابتعاد عن مزالق الشيطان، سيحبب إليك اتباع السنة ويجنبك الوقوع في البدع.

ولكن لا تجعل سيرك إلى الله متوقفاً على عثورك عليه، إن صادفته سرت وإن لم تجده أعرضت وتوقفت.. يغنيك عن المرشد الحقيقي الذي قد لا تعثر عليه الإخوة الصالحون والناصحون، وما أكثرهم بحمد الله في كل مدينة وصقع.

ثم أين أنت من المرشد الأعظم رسول الله ﷺ؟ اقرأ سيرته بتدبر. وداوم على الصلاة عليه، يقيض الله لك منه مرشداً يدلّك إن ضللت ويقومك إن اعوججت ويحبب إليك الإيمان، بفضل من الله، ويزينه في قلبك ويكرِّه إليك الفسوق والعصيان.

*　　*　　*

الحكمة الثالثة عشرة

«كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته»

وهذه الحكمة أيضاً مرتبطة بالتي قبلها، وقد رأينا أنها هي الأخرى بدورها متممة للتي قبلها. إذن فهذه السلسلة المترابطة من الحكم ثلاث، متكاملة، بمقدار ما يتوقف كل منها على الأخرى.

ولنبدأ بدراسة **الشطر الأول** من هذه الحكمة الجديدة: «**كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته**».

كنا قد عرفنا من قبل أن الإنسان ثنائي التركيب، إذا طرحنا منه قفصه الجسدي الذي لا شأن ولا قيمة له، فهو مركب من ركنين أساسيين بهما تتكامل إنسانية الإنسان: العقل والقلب.

أما هذا القفص الجسدي فالإنسان شريك فيه مع سائر الحيوانات الأخرى لا قيمة للشكل أو المظهر الذي يبدو أنه يفرق بينهما. وإنما تعود الآثار التي يخلفها الإنسان في المجتمعات، من حضارة وعمران وثقافة وعلوم، إلى العقل الذي من شأنه أن يعي ويدرك، وإلى القلب الذي هو مجمع العواطف والوجدان.. إن الإنسان بهاتين الحقيقتين أنشأ ما أنشأ من حضارات، ووصل إلى ما وصل إليه من علوم

واكتشافات، بل إنه بهاتين الحقيقتين أصلح ما أصلح وأفسد ما أفسد فوق هذه الأرض.

إذن فالعقل مهمته في حياة الإنسان الإدراك والوعي. ولسنا هنا بصدد البحث عن مركز العقل أهو في الدماغ أم في أي مكان آخر من جسم الإنسان. فلهذا التحقيق مناسبة أخرى.

وأما القلب (ولا نعني به هذا الذي يصطلح عليه الأطباء وعلماء التشريح من العضلة المادية الجاثمة وراء الرئة اليسرى) فهو ملتقى العواطف الدافعة والرادعة والممجدة: العواطف الدافعة هي التي تتمثل في الحب والتعظيم، والرادعة هي التي تتمثل في الخوف والكراهية. والممجدة هي التي تتمثل في الانبهار والإعجاب والإجلال. هذا المكان الخفي الذي تلتقي فيه هذه العواطف المتنوعة يسمى القلب.

إذن فأنت يا ابن آدم إنما تحققت إنسانيتك بسرين اثنين: أولهما هذا العقل المدرك الذي يعي الأشياء ويحاول أن يبلغ أسرارها. ثانيهما ذلك الوعاء الذي هو مجمع العواطف في حياتك به تتحقق الكراهية والحب وبه تستشعر الخوف والتعظيم.

ولا شأن لنا الآن بالعقل والحديث عنه. إنما الحديث هنا عن القلب.

بوسعنا أن نتصور الآن أن القلب عبارة عن لوحة تتمتع بحساسية مرهفة إن وقع بصرك من الدنيا على شيء ينسجم مع رغائبك ومع ما وجه الله آمالك وأحلامك إليه، انعكس من ذلك شعور على لوحة القلب، أورثك ما نسميه الحب.. وإن وقع بصرك على ما لا يتفق مع مزاجك وأهوائك، انعكس من ذلك شعور آخر على لوحة القلب

أورثك ما نسميه الكراهية.. وإن رأيت في المجتمع أناساً قد سابقوك فسبقوك إلى مجد تبتغيه أو إلى مال تكدّ في سبيله، سرعان ما ينعكس من ذلك شعور ثالث على لوحة قلبك، هو ما نسميه الحسد أو الحقد أو الضغينة. وإن رأيت من حولك أناساً لم يقيموا لك الوزن الذي تريد ولم يأبهوا بك في مجلس من المجالس، أو مجتمع من المجتمعات، تجلّى على هذه اللوحة من ذلك شعور آخر، هو ما نسميه الغضب وثورة الأعصاب.

تلك هي إذن مهمة القلب، إنه عبارة عما يشبه لوحة ذات حساسية دقيقة، تسجل وتتجلى عليها المشاعر المختلفة التي تطلق عليها العواطف الدافعة أو الرادعة أو الممجدة.

إذن فلنطرح السؤال التالي: عندما يمارس أحدنا أعماله ونشاطاته المتنوعة، أفيستجيب في ذلك لدوافع عقله الذي به يدرك ويعلم، أم لدوافعه القلبية التي بها يحب ويكره ويعظم ويثور ويغضب؟!..

يقول علماء النفس: إن الدوافع القلبية هذه إلى الأعمال والأنشطة السلوكية في حياة أكثر الناس، تساوي ٧٠٪ من مجموع دوافعهم إلى السلوك. أما الدافع الفكري فيساوي ٣٠٪ منها.

ولو أن الناس كلهم كانوا يستجيبون في أعمالهم وأنشطتهم الاجتماعية لقرارات عقولهم وأحكامها، لرأيت الوفاق هو الغالب على حياتهم ولرأيت ثمار التعاون الدائم بينهم قد مدت فوقهم رواق السعادة والأمن والأمان، بل لرأيتهم جميعاً يدينون بالولاء التام لمولاهم الأوحد، وهو الله عز وجل.. ولكن الناس كانوا ولا يزالون منذ أقدم

العصور يستجيبون لنوازعهم العاطفية أكثر مما يستجيبون لقناعاتهم العقلية. وإنما يستخدم العقل أداة بيد مشاعر الحب والغضب والحسد والكراهية والحقد. فهو يتحرك ويعمل، ولكن كما يحكم سلطان هذه المشاعر.

وقد علم الناس قديماً خطأ، بل خطر، تحكم العواطف بالعقل. فعالجوا ذلك بما يسمونه التربية، ولعلك تعلم أن التربية تعني اعتماد الوسائل التي تُخضع العاطفة للعقل، بدلاً مما هو الواقع الغالب من خضوع العقل للعاطفة. قد تتطور السبل التربوية وقد يتفنن المربون في وسائلها، ولكن تلك هي الغاية دائماً وعلى كل حال. ولقد كان الناس ولا يزالون يقولون: فلان يتمتع بتربية عالية، أي إنه يخضع عواطفه لقرارات العقل وأحكامه.

إذا عرفنا هذا فلنعلم إذن أن القلب هو القائد دائماً لأنه المرجل الذي تغلي فيه العواطف. والمرجل هو الذي يحرك ويقود.. أما العقل فإنما هو مجرد مصباح يضيء، ومن ثم فهو ملكة كاشفة، كما قالوا، وليس طاقة مؤثرة.

وهنا يأتي دور كلام ابن عطاء الله الذي يشبه القلب بالمرآة، إذ تنعكس عليها مشاعر الإنسان وأحاسيسه..

أرأيت إلى المرآة إذ توجهها إلى بئر مظلمة كيف يغدو سطحها أسود مظلماً، وإذ توجهها إلى الشمس الساطعة، كيف تتلألأ بمثل ضياء الشمس، وإذ توجهها إلى حديقة تمازجت فيها الخضرة مع أفانين الأزهار والورود، كيف تتحول إلى لوحة تحمل الصورة ذاتها.. فكذلك القلب، إن هو إلاّ مرآة تنعكس عليه صور من أحوال صاحبه.

فإذا كان الإنسان متجهاً دائماً برغباته إلى الدنيا التي تتمثل في الدرهم والدينار والدور والأثاث والمتع والزوجة والأولاد والمجد والشهرة والزعامة ونحو ذلك بحيث يصبح ويمسي وتلك هي آماله وأحلامه؛ فلا بدّ أن ينطبع ذلك كله على مرآة قلبه، ولا بدّ أن تتحول عواطفه كلها إلى جنود مجندة في خدمته. فأنى لوجود الله وسلطانه أن يجد متسعاً على صفحة هذا القلب؟ وعاء امتلأ وفاض بالآمال الدنيوية المتنوعة وبالرغائب النفسية والغريزية، ثم تكاثر فوقه الكثير من مشاعر الحقد على المنافسين، ومشاعر الحسد والبغضاء للسابقين والمتميزين، كيف يمكن أن يبقى فيه متسع للشعور بمحبة الله أو للشعور بتعظيمه والمخافة منه؟ هما ظلام وضياء إن احتل أحدهما القلب غاب عنه الآخر، إذ هما نقيضان لا يجتمعان.

وإذا غشّى القلبَ ظلام هذه الأهواء وما تجره من آثام، تزايدت من ذلك النكت السوداء عليه، كما قال رسول الله ﷺ، إلى أن يعم نسيج هذا السواد القلب كله، وهو الران الذي قال عنه الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤/٨٣].

عندئذ يعاني هذا الإنسان ما يسمى بانفصام الشخصية. إنه مؤمن بعقله، لأن العقل يدرك الحقائق بطريقة آلية، كما يدرك أن ١+١= ٢. فهو عندما يسمع مثل هذا الكلام، أو يحضر مجلس تذكرة ونصح، يذعن للحق ويعترف به، ويستجمع على ذلك مزيداً من الأدلة والبراهين. ولكنه ما يكاد يخرج من المجلس حتى يعود إلى شأنه خاضعاً لأهوائه ورغائبه!..

ذلك لأن القيادة بيد العواطف وليست بيد العقل وإنكم لتشاهدون هذه الحقيقة التي أقولها في واقع الناس اليوم. إن أكثرهم يعرفون الحق ويميزونه عن الباطل، ولكن تأمَّل: كم منهم يَخضعون سلوكهم للحق الذي عرفوه؟ إنهم لا يبلغون الربع!.. لأن الذي يقودهم لهيب العواطف والأهواء، لا ضياء العقل وأحكامه.

وإذا سأل صاحب هذه الشخصية المزدوجة: ها أنا موقن بالحق الذي أسمعه من كتاب الله عز وجل، فما الذي يحول بيني وبين الاستجابة لأمره؟ يأتيه الجواب من ابن عطاء الله: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته» قلبك مظلم بالران الذي تكاثف فوقه. فأنت محكوم لسلطان هذا الران، لم يبق في قلبك متسع لحب يحدو بك إلى الاستجابة لأمر الله، ولا لخوف يحجزك عن معاصي الله، ولا لتعظيم يقف بك عند حدود الله!.. والحب، والخوف، والتعظيم، كل ذلك مكانه القلب لا العقل.

والقلب مليء بظلل سوداء، من التعلق بالدنيا.. بالشهوات.. بمنافسة الآخرين، بمشاعر الحسد والأحقاد عليهم.. منصرف إلى التقلب في أحلام المتع التي اقتحمْتَ غمارها واستقرت في نفسك أصداؤها.

وإذا أقبل العقل يستأذن قلبك ليغرس فيه شتلاً أو نواة لمحبة الله عز وجل، يبحث.. ثم يبحث.. فلا يجد فراغاً فيه لهذا الغرس!..

يتجه العقل إلى القلب، ليبلغ صاحبه رسالة الله التي يقول له فيها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ

وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/١٦] ولكن القلب لا يجد مجالاً لأي استجابة أو خشوع، لأن صور الأكوان قد استعمرته وهيمنت عليه.

ورسالة العقل التي هي العلم، من الأهمية بمكان، ولكن الحقائق العلمية لا بدّ لها من مغرس تنمو وتزدهر فيه، ومغرسها في حياة الإنسان القلب. فإذا سدت منافذ القلب وأظلم أرجاؤه للسبب الذي يذكره ابن عطاء الله، فإن مصير رسائل العقل كلها الذبول والضياع.

وكم يتجلى هذا الذي أقوله في العبرة التي يسوقها لنا كتاب الله عز وجل، إذ يحدثنا عن ذاك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. وأصح ما قيل في اسمه – على ما ذكره ابن كثير في تفسيره – أنه بلعام بن باعوراء، أحد علماء بني إسرائيل. لقد آتاه الله آياته علماً، كما قال عز وجل، ومستودع العلم هو العقل، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. وسبيل ذلك إنما هو القلب، تعلق قلبه بالدنيا التي كنى الله عنها بكلمة (الأرض)، فقاده قلبه بدلاً من عقله واتبع هواه. فكانت سيرته كسيرة الكلب، يلهث وراء الدنيا دون أن يشبع منها، كالكلب الذي يلهث بلسانه في كل الظروف والأحوال. واسمع في هذا كلام الله عز وجل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٥ و ١٧٦].

إذن لن يشرق قلب انطبعت فيه صور الأكوان، فحجب صاحبه بذلك عن المكوِّن جلّ جلاله. ولعلّ فينا من يسأل: ففيم كان ذلك؟ وهلاّ استقرت في القلب بدلاً عن ذلك صفات المكوِّن، لاسيما و... العقل موقن با لله ووحدانيته وصفاته؟

يأتي الجواب عن هذا السؤال من خلال الفقرة الثانية من هذه الحكمة، وهي قوله: «أم كيف يرحل إلى ا لله وهو مكبّل بشهواته»؟ أي لو لم يكن القلب مكبلاً بشهواته، لاتجه إلى ا لله عز وجل وابتغى من الدنيا كلها رضاه، ولو تمّ له ذلك لأعرض عن الأكوان واتجه إلى المكوّن، ولما انطبعت صور الأكوان في مرآته.

إذن فهذه الفقرة الثانية من هذه الحكمة، تتضمن بياناً لعلاج المشكلة التي تضمنتها الفقرة الأولى، وهي انطباع صور الأكوان على القلب مما جعله في شغل شاغل عن المكوِّن.

وتعال نتبين الآن العلاج الذي ترسمه الفقرة الثانية، من حيث تعبّر في الوقت ذاته عن مشكلة ثانية، سيحيل ابن عطاء ا لله حلها إلى الفقرة الثالثة:

لو كانت الصور التي تستقر على القلوب كالصور والنقوش التي ترسم على الورق أو الجدران، لكان السبيل إلى محوها أمراً يسيراً، تعمد إلى الممحاة فتمحو بها ما أثبتّه على الألواح أو الجدران، ولكن الصور التي ترسم على القلوب لا يمكن أن تمحى بالوسائل المادية والتقليدية المعروفة.

إن سبيل ذلك محصور في هـذه الفقـرة الثانيـة «أم كيـف يرحـل إلى ا لله وهو مكبّل بشهواته؟».

أي إن صور الأكوان لم تنطبع على فؤادك إلا بسبب الشهوات الـتي استعبدتك وكبّلتك، فجعلتك تثّاقل إلى الأرض. فهـي الـتي ألقـت مـن ذلك ظللاً من السواد على قلبك، وأنستك المكوِّن وسلطانه، لتشـغلك بمخلوقاته ومكوّناته.

إذن فالعلاج الذي يمحو صور الأكوان من فؤادك، ليتهيـأ لاسـتقبال صفات المكوّن وآلائه، إنما هو تحررك من أسر الشهوات الـتي كبّلتـك. وإنما يكون ذلك بأن توجـه حبـك إلى مـن بيـده إسـعادك أو إشـقاؤك بهذه الشهوات.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

كيف السبيل إلى أن يحرر أحدنا نفسه من أسر الشهوات التي تكبلنا فعلاً ببريقها ولذائذها؟.

السبيل إلى ذلك يتبين من المشكلة الـتي تضمنتهـا الفقـرة الثالثـة مـن هذه الحكمة، وهي قوله: «أم كيف يطمع أن يدخل حضرة ا لله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟».

إذن المشكلة هي غفلتك عن ا لله الذي بيده الخلق والأمر كله، بيده النعم التي ترنو إليها، والشهوات التي تحلم دائماً بها، هو الذي يشـعرك بلذاتها إن أقبلت إليك، ويبتليـك منهـا بـالآلام والمنغصـات إن أدبـرت عنك.

وإذا كانت المشكلة هي هذه الغفلة، فالعلاج يكمن في أن تسعى سعيك الجاد للتخلص منها.. إذا تخلصت من الغفلة اتجَهَ منك القلب إلى الإله الذي شهواتك بيده، ونعمك من صنعه، وسعادتك من فضله. فتتعلق آمالك به، ويصفو حبك له؛ وعندئذ تتحرر من أسر الشهوات التي كبلتك، ومن ثم تغيب عن مرآة قلبك صور المكونات، لترتسم في مكانها صفات المكوّن جلّ جلاله.

ولكن ما العلاج الذي يعينك على التخلص من الغفلة التي هي سبب وقوعك في أسر الشهوات، ومن ثَمَّ فهو سبب المشكلة التي قبلها؟

العلاج هو الابتعاد عن الآثام والهفوات، وهو ما تضمنته الفقرة الأخيرة التي يقول فيها: «أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟».

إذن فكثرة الهفوات هي السبب في الوقوع في الغفلات.. والاستغراق في الغفلات هو السبب في الاستسلام لأسر الشهوات.. والاستسلام لأسر الشهوات هو السبب في هيمنة صور الأكوان على القلب، وانتشار (الران) عليه.

ومن ثم فإن العلاج يبدأ بضرورة التغلب على المشكلة الأولى، وهي مشكلة الاستسلام للهفوات والآثام.. يجب أن تتغلب على هفواتك أي على معاصيك بالابتعاد عنها والتطهر منها. ولا بدّ أنك ستقول: وهل بوسعي أن أكون معصوماً من ارتكاب الأوزار، وقد علمنا أن كل بني آدم خطاء؟.. والجواب: ليس المطلوب هو العصمة، وإنما

المطلوب أن تحرص على الابتعاد عن المعاصي جهد استطاعتك. فإذا ابتليت بشيء منها، فطهّر نفسك منها بالتوبة، واعزم بصدق على أن لا تعود، فإن اهتاجت بك النفس مرة أخرى وعدت إلى المعصية، فعد بعدها سريعاً إلى التوبة.. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وتلك هي عصمة الضعفاء من أمثالنا، وعنهم قال الله عز وجل، مجيباً عن توعد الشيطان بإغوائه عباد الله أجمعين، بدفعهم إلى المعاصي والفواحش: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٤٢] أي إن الذين تحققوا بصفة العبودية لي، لن يكون لك سبيل إلى إغوائهم، لأن مشاعر عبوديتهم لله ستدفعهم عند ارتكاب المعصية إلى الحسرة والندامة، وسيحملهم ذلك على التوبة الصادقة، وبذلك يزول وقع المعصية وينمحي وزرها ومهما عاودته نفسه إلى مثلها أعادته مشاعر عبوديته لله إلى الندم الحقيقي وإلى التوبة الصادقة.

فإذا تخلص الإنسان بهذه الطريقة من آفة الهفوات والمحرمات، وسار ثابتاً مستقيماً في طريق الطاعات، فإن غاشية الغفلة ترتدّ عنه، وسيصحو شعوره وضميره إلى مراقبة الله عز وجل وذكره. وهكذا فإن انغماس الإنسان في المعاصي يزجه في ظلام الغفلات؛ وتوجُّهُه إلى الطاعات وتنفيذِ أوامر الله، يوقظه من سكرتها ويرقى به إلى صعيد مراقبة الله والإكثار من ذكره.

فإذا تحرر من الغفلة التي كان مكبلاً بها، فقد آن له أن يدخل حضرة الله تعالى، على حدّ تعبير ابن عطاء الله. وهذا التعبير منه إحالة

إلى قول رسول الله ﷺ، وهو يعرّف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» أي تنجذب بمشاعرك من الدنيا وأحوالها وآثارها، فتغيب عنك غيبة تامة ولا يبقى في إحساسك إلا الشعور بأنك في حضرة الله وبين يديه تناجيه بما تخاطبه به من قرآن أو ذكر أو دعاء كأنك تراه.. ولتعلم أن المسلم بمقدار ما يبتعد عن المعاصي ويتنزه عنها، يقرب من درجة الإحسان هذه، ويدخل حضرة الله تعالى بمشاعره التي تطهرت من جنابة الغفلات، بعد أن تطهرت من دنس الموبقات.

وتأمل الآن في أثر هذه اليقظة القلبية إلى شهود الله، في كبح جماح الشهوات عن النفس وإبعاد سلطانها عن القلب..

إن شهود العبد لربه لا يعني أكثر من شهود صفاته، وآلائه ومظاهر فضله ورحمته. فهو لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم المتفضل وهو الله عز وجل، ولا يتقلب متنقلاً من حال إلى حال، إلا ويرى أن الله هو المتصرف به والمسيّر له، ومن شأن هذا الشعور إذا استمر، أن يصرف القلب من محبة الأغيار إلى محبة الله عز وجل، إذ هو مصدر كل تفضل وعطاء، وأن يغيب عنه تعظيم المخلوقات ليقف أمام عظمة الخالق عز وجل.

ولا شك أن الإنسان في كل الأحوال مفطور على حبّ المال ومتعه، وعلى حبّ النعم بأنواعها، ولكنه عندما يعلم أن المتفضل عليه بها هو الله، وأن الذي يبعث الشعور بلذتها ونعيمها هو الله، فلا بدّ أن يتوجه قلبه بالحب إليه، لأن القلوب جبلت على حبّ من أحسن

إليها، وقد علم صاحب هذا الشهود أن لا محسن في الكون كله إلا لله، والوسائط والأسباب التي تراها إن هي إلا جنود وخدم تحت سلطان الله، ومن ذا الذي يتخذ من هؤلاء الخدم أنداداً يحبهم كحب لله؟!.. فإذا ثبت لصاحب هذا الشهود أن المنعم والمتفضل دائماً هو لله، وأن الذي يرجى نفعه ويخشى ضرّه واحد لا ثاني له، وهو الله، فلا شك أن المحبوب الأول والمعظم الأول والمُهاب الأول لديه هو الله تعالى، ثم تأتي محبته للمتع التي فطر على حبها في الدرجة الثانية بل الثالثة، بل إن في أصحاب الشهود من تغيب عن أفئدتهم محبة ما عدا لله نهائياً، ولكن الله تفضلاً منه ورحمة لم يجعل من هذه الحال المقياس أو الميزان الذي لا بدّ منه لكمال الإيمان، بل جعل ميزان ذلك تسامي محبة الله على محبة الأغيار، وانظر هذا اللطف الإلهي كم يتمثل في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٥].

إذن فقد تجتمع محبة الله مع محبة أنداده في قلب المؤمن، ولكن محبة لله تكون هي الغالبة فيه.

كان صاحب هذا الشهود، من قبل، أي عندما كانت غاشية الغفلة تغطي فؤاده، مكبلاً بشهواته، أسيراً لها، متطلعاً إليها.

غير أنه اليوم وقد انجابت عنه غاشية الغفلة، وهيمنت عليه لذة شهود الله، لا بدّ أن يتضاءل سلطان شهواته الدنيوية، وأن يتسامى قلبه فوقها، وليس معنى هذا أن يتحول صاحبها إلى ملَك لا يشعر بها، ولا يتعامل معها، وإنما ينفك عن أسرها ويتحرر من سلطانها. إذ إن له

من لذة شهوده لله، وحبه وتعظيمه لله تعالى، ما يشغله عن التعـ
بشهواته النفسية، إن ورد إليه شيء منها بطريقه الشرعي، استقـ
بقبول حسن، وإن لاحت له شاردةً عن ضوابط الشرع وحكمـ
أعرض عنها وترفع فوقها.

إن صاحب هذه الشهود (وسَمِّهِ الواصل إلى رتبة الإحسان ـ
شئت) لا يمرّ على كلام الله كأحدنا مرّ الكرام، غير آبهٍ بمعانيه و
متأثر بمراميه، بل يتأمل فيه تأمل من يسمعه خطاباً مباشراً من الله ـ
فكيف تكون حاله، وكيف تكون علاقته بشهوات الدنيا، عنده
يسمعه يقول: ﴿إِنَّما هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَ
الْقَرارِ﴾ [غافر: ٤٠/٣٩] أو عندما يسمعه يقول: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيـ
كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادِ﴾ [آل
عمران: ٣/١٩٦ و ١٩٧] أو عندما يقول: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ
خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى..﴾ [النساء: ٤/٧٧].

إن سماعه لهذا الكلام مع الحالة التي هو فيها، مما قد وصفت لك.
يهوّن من أمر الشهوات التي تتراقص أمام بصره، فلا تستطيع أن تأسره
لتسيره لحسابها.

واعلم بأن محبة الله إذا هيمنت على القلب، بددت ما كان يعشش
فيه من قبل من محبة الأغيار، ومنها الشهوات والأهواء.

فإذا وصل السالك إلى الله، في معالجة مشكلاته القلبية هذه إلى هذا
الحد، فإن مرآة قلبه تتحول من التوجه إلى الأكوان وما فيها من متع
وأهواء ورغائب، لتتجه إلى المكوّن وهو الله عز وجل.

أجل.. ستنمحي عنه صور الأكوان، لتترسخ عليه صفات المكوّن جلّ جلاله. ولكن لا بممحاة مادية مما تمحى به النقوش والرسوم على الألواح، وإنما بسلسلة العلاجات التي ذكرها ابن عطاء الله.

* * *

لعلك تقول: كيف يتأتى أن ترى العينان صور المكوَّنات، ثم لا تستقر هذه الصورة في الذاكرة ثم على صفحات القلب؟

والجواب أن صور المكَّونات لا بدّ أن تنتقل من العينين إلى الذاكرة أو المخيلة كما تقول، فإذا تجاوزتها إلى القلب، وصادفت قلباً نابضاً بحب الله وبذكره كما قلت لك قبل قليل، فإن القلب لا يتلقى بدوره هذه الصور، إلا على أنها آيات ناطقة بوجود الله ووحدانيته، يتلقاها سطوراً صيغت بأبلغ بيان ينطق بصفات الله وعظيم آلائه، يتلقاها وهو ينشد قائلاً:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

صاحب هذا القلب المحب الذاكر، نعم يرى المكونات.. نعم تنعكس صورتها على قلبه، ولكنها لا تنطبع على صفحاته إلا لتنقل حديث تسبيحها إليه، فيفقهه ذلك القلب من دون الناس جميعاً. وصدق الله القائل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤].

صاحب هذا القلب المحب الذاكر، نعم، يرى زخرف الأرض من خضرة وزهور وورود ورياحين، كما يراها التائهون والغافلون، ولكن

قلبه يذيبها ويحيلها إلى شعاع من الشوق إلى جمال الله، والحيرة في عظيم وبديع صنع الله.. وهو يرى في الليل صفحة السماء تتلألأ بنجومها، منورة ببدرها، ولكن قلبه لا يتلقى هذه الصورة إلا رسالة وافدة إليه من عند الله، فهو مهما قلب ناظريه في آفاق السماء، لا يتبين فيها إلا مضمون هذه الرسالة.. وهو يتأمل في السماء التي تمطر وفي الأرض التي تنبت، وفي أنواع الأطعمة والفاكهة المتنوعة في مذاقها وروائحها وألوانها، ولكن قلبه المحب الذاكر لا يتلقاها إلا نعماً وافدة من المولى المتفضل الكريم، ولا تنطبع على مرآته، إلا آية من نور يخاطب الله بها عباده قائلاً: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/١٥].

وذلك هو شأن يقظة القلب بمحبة الله وتعظيمه والخوف منه. مهما انعكست عليه صور الآثار الكونية، فإنه لا يرى فيها إلا المؤثر جل جلاله. وتلك هي الحالة التي يسمونها وحدة الشهود، وهي المرتبة العليا التي يجب على كل منا أن يجاهد نفسه في بلوغها، في الاصطباغ الشعوري، بعد اليقين العقلي، بوحدانية الله عز وجل. وهي تختلف عن وحدة الوجود الباطلة اختلافاً جذرياً.

وإذا لم يبلغ أحدنا هذه الرتبة في الاصطباغ بحقيقة التوحيد. فلسوف تصبح صور المكونات التي يتعامل معها، حجاباً يشغله عن ذكر الله وعن حقيقة قيوميته الدائمة على هذا الكون. ولسوف يتيه بالآثار عن المؤثر، وبالصنعة عن الصانع، ولا بدّ أن يسلمه هذا التيه. من بعد، إلى يمّ من الغفلات، ثم إلى منزلقات من الهفوات والآثام.

إن العبد إذا ازداد تعلقه بعبد مثله أو بفتاة من الناس، يقع في معاملته له أو لها في هذا الذي يسمونه بوحدة الشهود، فإذا وقع بصره على شيء من آثاره أو آثارها، تاه عن ذلك الشيء وزاغت عيناه عن التأمل في حقيقته، وانصرف بخياله إلى صاحبة هذا الشيء، فلم يعد يرى فيه إلا ما يذكره بها. ألم تسمع قول مجنون ليلى وهو يتحدث عن ديار ليلى التي رآها بعد طول غياب:

أَمُرُّ على الديارِ ديارِ ليلى أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شَغفْنَ قلبي ولكن حبُّ مَنْ سَكَنَ الديارا

وإذا كان هذا شأن العبد مع إنسان مثله، يغيب عن آثاره به، فكيف ينبغي أن يكون شأن العبد مع ربه الذي هو وحده ربّ هذا الكون كله؟ ينبغي أن يكون أكثر حباً له من سائر الأنداد، كما قال الله عز وجل، وإذا أصبح كذلك، إذن ينبغي إذا رأى عظيم صنع الله، وجميل إبداعه، ووافر نعمه وآلائه في المكونات، أن يتيه عنها، بما يراه فيها من عظيم صفاته، وباهر حكمته وإحسانه.

وانظر إلى الآيات التي يأمر الله فيها عباده أن يتخذوا من مظهر المكونات كلها جسراً يوصلهم إلى ذكر الله، ويعتقهم من رقدة الغفلات، تجد أنها جميعاً تبصرنا بالسبيل إلى بلوغ وحدة الشهود التي هي أولى ثمرات عقيدة التوحيد. وذلك من مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ...﴾ [آل عمران: ٣/١٩٠] إلى آخر الآيات. ومن مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٦٤] .

إذن فالمرحلة الأولى من العلاج تبدأ بالعمل على التخلص من ارتكاب المحرمات بالنهج الذي أوضحته لك. فإذا أخذت نفسك بذلك، تخلصت من بلاء الغفلات التي تنسيك عبوديتك لله وعظيم مسؤولياتك تجاهه.. وإذا تخلصت من هذه الغفلات بالإكثار والمداومة على ذكر الله، فلسوف يورثك ذلك حباً وتعظيماً لله عز وجل، ولسوف ترقى بذلك إلى رتبة الإحسان التي عرّفها رسول الله ﷺ بأن تعبد الله كأنك تراه.. وإذا استقر بك المقام في هذه الرتبة، غابت عن فؤادك صور الأكوان التي تراها واستقرت في مكانها صفات المكوِّن عز وجل، وتتحول المكونات كلها على صفحة فؤادك إلى أسطر نورانية تقرأ فيها باهر مظاهر حكمة الله ورحمته وإكرامه وفضله وتلك هي حقيقة وحدة الشهود التي هي ذروة ما ينبغي أن يَشُدَّ المسلمُ نفسَه إليه من حقائق التوحيد.

* * *

الحكمة الرابعة عشرة

«الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار»

هذه الحكمة حصيلة مكثفة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ...﴾ [النور: ٢٤/٣٥] وتفصيل القول فيها طويل الذيل ولكنا نحاول أن نقول في شرحها كلاماً جامعاً، مع التزام القدر الممكن من الإيجاز.

يقول ابن عطاء الله في الفقرة الأولى من هذه الحكمة: «الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه» أي هذه المكونات التي تراها أعيننا وتدركها عقولنا، إنما تتآلف وتتلاصق أجزاؤها الدقيقة، بواسطة نور داخلي يسري فيما بينها. ومصدر هذا النور إنما هو الله عز وجل. ذلك لأن هذه المكونات لم توجد بذاتها وإنما وجدت بإيجاد الله تعالى لها. بل لا يستمر وجودها إلا باستمرار اتصال القدرة الإلهية بها، ومدّها باستمرارية الوجود لحظة فلحظة.

وإن من أهم آثار هذه الحقيقة أن كل ما تقع عليه عيناك من هذه المكونات، فإن النور متغلغل في داخله، ويكسوه حلية في ظاهره. فهي نور في الباطن الداخلي، وهي منورة في الظاهر الخارجي.

إن الأشياء التي تراها عيناك إنما ترى فيها النور الذي اصطبغت به. ولولاه لما رأت عيناك منه شيئاً. وهي إنما تتماسك بسرّ النور الساري في أجزائها الدقيقة، ولولاه لتناثرت المادة الكونية أنكاثاً متبددة.

وهذا يعني أن النور الذي هو عماد وجود المكونات نوران: نور تراه العين، ونور يرصده العقل.

فأما الذي تراه العين، فهو هذا الذي يسطع على ظواهر الأشياء التي تراها عيناك. وهو مؤلف من نورين اثنين: أحدهما النور الساري إلى الأشياء من أشعة الشمس ونحوها، ثانيهما النور الساري إليها من بؤبؤ عينيك. ولولا التكافؤ الذي يتم بين نور عينيك ونور الشمس الذي تنعكس أشعته إلى الأشياء، لما أتيح لك أن ترى شيئاً من المكونات. فأنت إذن ترى النور، وبالنور (أي بنور عينيك) ترى هذا النور.

وأما النور الذي يرصده العقل، فهو ذاك الذي يسري متغلغلاً داخل أصغر جزيئات المادة، بل هو تلك الإليكترونات المؤلفة من إشعاعات متجمعة، تكون منها ما يسمونه المادة، وهي في أصلها الذي تكونت منه ليست إلا طاقة. فأصل المادة ومآلها في الوقت ذاته هو النور المخبوء الذي يرصده العقل وإن لم تره العين.

أرأيت إلى كتلة جمر متقد، إن وجوده ليس إلا من الشعلة الكامنة فيه والسارية في أجزائه، وعندما تخبو هذه الشعلة وتغيب، يغيب الجمر معها أيضاً، ويتحول إلى رماد يتناثر بعد ذلك هباءً. إن قصة المادة الكونية أياً كانت، ليست إلا كقصة هذه القطعة من الجمر المتقد. وعندما ينفصل النور الخفي عن دخائل المادّة وجزيئاتها، فذلك لن

يكون إلا إيذاناً بتناثر أجزاء المادة وتحولها إلى حطام، وهكذا تعود المادة إلى ما يشبه الرماد بالنسبة للجمر الذي خبت شعلته السارية في داخله.

بقي أن تعلم أن العقل ذاته ليس إلا نوراً يشرق على الدماغ فيتم به إدراك الحقائق التي لا تخضع للبصر ونوره.

فهما إذن في حياة الإنسان بصر وبصيرة. لكل منهما نور متكافئ ومنسجم مع عمله ووظيفته. نور الأول منهما يقف عند مظاهر الأشياء وصورها، ويمخر الثاني منهما تلك المظاهر والصور ليدرك خفايا الحقائق.

وإذا كان الإبصار بنور العين متوقفاً على وجود نور متكافئ يتمثل في ضياء الشمس ونحوه، فإن الإدراك بنور البصيرة يتوقف في القضايا الغيبية على نور متكافئ معه يتمثل في الوحي الإلهي الذي يكشف للعقل عن حقائق تلك الغيبيات وأخبارها.

إذن فالكون كله في أصله القديم ظلمة كثيفة دامسة. ثم إن نوراً سرى فتكاثفت منه أجزاء صغيرة تراصفت فتلاصقت فتآلفت، فإذا هي المادة الكونية التي تراها العين.

وكانت العين شيئاً هلامياً مظلماً، فسرى في داخله نور، فإذا هي الأداة التي تبصر الصور والألوان. وكان العقل وهماً لا وجود له مع ولادة الإنسان، فإذا هو بعد ذلك نور يشرق على الدماغ يتم به إدراك خفايا الكون ومغيبات الأمور.

إذن فالنور هو سرّ هذا الكون كله، بل هو أداة وجوده، إنه مـدة المادة إن جاز التعبير وجوهر المكونات كلها بما فيها العين المبصرة والعقل المدرك.

ولكن من أين انبعث هذا النور الذي أضفى سرّ الوجود على المكونات كلها؟ إنه نور الله عز وجل، سرى في ظلام اللاشيء فكانت منه هذه المكونات كلها. وهذا هو معنى قول ابن عطاء الله: «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه» ومصدره بيان الله القائل ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] . وأحسن ما قيل في تفسير «النور» هنا إنه بمعنى المنور، وهو الله عز وجل.

ربما تنطع أحدهم فقال: أين هو النور الذي تزعم أنه كامن في العقل، مع ما نعلمه من أن العقل إنما هو نتاج لنشاط الدماغ. والدماغ بجحيراته ووظائفه ليس إلا مادة خاضعة للنظر والفحص والتحليل؟

والجواب أن الدماغ محل لإشراقات نور العقل، كالشاشة التي هي محل لإشراق الصور المنعكسة إليها من جهاز الإرسال. والخطأ الذي يقع فيه من يتوهم أن الشاشة هي مصدر الصور المتألقة والمتحركة عليها، ليس أقل من خطأ من يتوهم أن الدماغ هو مصدر المعرفة والإدراك.

أما البحث عن نور العقل، وإنكار وجوده لعدم رؤيته، فمبعثه الجهل بأبسط قواعد العلم التي تعد مدخلاً عاماً لأنواع العلوم المختلفة.

على هذا السائل أن يعلم أولاً أن النور من حيث هو لا يخضع لرؤية الأبصار، والذين يتوهمون أنهم يرون نور الشمس مثلاً إنما يرون

الأجرام التي انعكست إليها أشعة الشمس، أي فلو انعدمت الأجرام التي يمكن أن يسري إليها نور الشمس فإنك لن ترى من هذا النور شيئاً. إذن فلا تطمع أن ترى النور الذي في حدقتي عينيك، ولا تطمع أن ترى النور الذي يشرق عقلاً على دماغك ولكنك بنور عينيك ترى صور الأشياء وألوانها، وبنور عقلك تدرك حقائق الأشياء وبواطنها.

والقاعدة العلمية في هذا الذي نقول، أن كل ما كان وسيلة لرؤية الأشياء أو إدراكها، فهو أبعد ما يكون عن إمكان رؤيته. إذ لو رأيت الوسيلة لرؤية الأشياء، لأصبحت هذه الوسيلة بحكم رؤيتك لها حاجزاً يحول بينك وبين رؤية ما يفترض أنها وسيلة لرؤيته.

أرأيت إلى النظارة المثبتة على عينيك، إنها وسيلتك إلى رؤية الأشياء أو تقريبها إليك. ولكن الشرط الذي لا بدّ منه لذلك أن لا ترى عيناك شيئاً من الزجاجتين المثبتتين أمام عينيك. إذ إنك لو رأيتهما، فمعنى ذلك أنك ترى غباراً أو أي جسم غريب انحط عليهما. وعندئذ تتحول النظارة من وسيلة للرؤية إلى حجاب يصدّ عن الرؤية.

كذلك القول عن نور العينين ونور العقل. إنهما موجودان يقيناً. ولكن وظيفة كل منهما لا تتم إلا بعدم رؤيتك لهما، كيف ولو رأيتهما لأبصرت في كل منهما كثافة تتناسب مع شروط الرؤية، وعندئذ تصبح هذه الكثافة حائلاً دون الرؤية، بدلاً من أن تكون وسيلة إليها.

ومع ذلك فأنا لا أنكر أننا كثيراً ما نقول: رأيت نور الشمس أو نور المصباح، ولكن هذا التعبير فيه من التجوز ما لا يخفى على بصير

بالعربية وأساليبها. إننا نعني في الحقيقة أننا نرى الأجرام التي انعكست وتوهجت عليها أشعة الشمس أو أشعة المصباح.

إذن فلنعد إلى الحقيقة التي يذكرنا بها ابن عطاء الله إذ يقول: «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه» بل هي الحقيقة التي ينطق بها بيان الله عز وجل ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥].

العقل الذي به تدرك الأشياء نور، والعين التي بها ترى صور هذه الأشياء وألوانها نور، والأشياء ذاتها التي تراها أو تدركها إنما هي جزيئات من نور في منتهى الضآلة والصغر تضامّت فتكاثفت فتحولت إلى مادة مرئية ذات مزايا وخصائص وأنواع وتسميات شتى.

وهل بوسع العلم أن يقول لك شيئاً عن مصدر هذا النور الذي أضاء به وتكون منه هذا الكون كله، إلا أنه الله عز وجل؟

وهل بوسع العلم أن يقول لك شيئاً عن مصير هذه المكونات كلها إن انفصل عنها هذا النور، إلا التبدّد والامّحاق؟

وقبل أن ننتقل من هذه الفقرة إلى التي تليها، ألفت النظر إلى معنى دقيق في قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] وهو أن النور في الآية منسوب كما ترى (بحكم الإضافة) إلى السماوات والأرض. فهل هذا يعني أنه منبثق من السماوات والأرض؟

لا.. ليس هذا هو معنى الآية، بل هي تتضمن الدلالة على عكس ذلك. وبيان ذلك أن بين كلمتي النور والضياء أو النور والسراج، فرقاً

لغوياً دقيقاً. أما النور فمعناه الشعاع المثبت على جرم ما والمنعكس إليه من جرم آخر. وأما الضياء والسراج فهو الشعاع الذي يظهر على جرم ما منبثقاً من داخله. ومن ثم فإنك تقول غرفة منيرة ولا تقول مضيئة. لأن نور الغرفة إنما ينعكس على جدرانها من المصباح المضيء في داخلها. وتقول شمس مضيئة ولا تقول منيرة، لأن شعاع الشمس إنما ينبثق من داخلها.

وانظر إلى دقة التعبير عن هذا في كتاب الله عز وجل، إذ يصف القمر بالإنارة ويصف الشمس بالضياء. فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ..﴾ [يونس: ١٠/٥] ويقول أيضاً: ﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٦١].

ذلك لأن الضوء الذي يشع من الشمس منبثق من داخلها، إذن فيجب التعبير عنه بالضياء أو السراج، أما الذي يشع من القمر فمنعكس إليه من الشمس فيجب أن يعبر عنه بالنور، ومن ثم فهو منير لا مضيء.

فهل يخامرك شك مع هذا في أن القرآن ليس إلا كلام الخالق عز وجل، ذاك الذي خلق الشمس والقمر وعلم مصدر الضياء في كل منهما؟!

عد بعد هذا معي إلى قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] وانظر كيف جاء التعبير بالنور لا بالضياء، وقد علمت الفرق بينهما.. جاء التعبير بالنور لتعلم أن ما ينبسط على

مظهر الأشياء من الضياء وما تكتنزه المادة من ذلك في داخلها وضمـ
أصغر ذراتها، ليس منبثقاً منها، وإنما هو متجه إليها ومتغلغل فيها. مـ
لدن خالق المكونات كلها، وهو الله عز وجل.

ولو كان شيء من ذلك منبثقاً من داخل ما يتجلى فيه، إذن جـ
التعبير عنه بالضياء لا بالنور، وإذن لما نسبه الله تعالى إليه بل لنسبه
السماوات والأرض والأفلاك ذاتها.

ألا فلتعلم إذن، أن سائر المكونات التي من حولك، وأنت واحـ
منها، إنما تتألف سداها ولحمتها من نور رباني هابط إليها متغلغل في
أعماقها، وأن كل ما تراه عيناك منها أو يدركه عقلك من دخائلهـ.
فبهذا النور الرباني تراه، وبهذا النور الرباني تدركه.

والآن ننتقل إلى الفقرة الثانية، التي كانت الفقرة الأولى التي فرغنـ
الآن من شرحها، مقدمة لها. يقول فيها ابن عطاء الله:

«فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد
أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار».

ولنبدأ أولاً ببيان معاني هذه العبارات، حتى لا يسري إلى وهمك
منها معنى غير صالح ولا مقصود:

يقول: فمن رأى الكون ولم يشهد أي بعين بصيرته، الحق سبحانه
وتعالى، مؤثراً فيه. ولم يشهده أيضاً عند نظره إلى المكونات التي من
حوله، بأن تذكره بالله عند رؤيته لها وتأمله فيها؛ ولم يشهده أيضاً
قبل تأمله في هذه المخلوقات، بواسطة المنطق والأقيسة العقلية التي تنطق

بوجود الله عز وجل؛ ولم يشهده أيضاً بعد تجاوزه مرحلة النظر في المخلوقات وانحسار غشاوة الأهواء وما تتطلع إليه الغرائز من المتع الآنية والرعونات، إذن فهو ممن سلب الله عنه نور الهداية وكان ممن قال عنهم: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٠].

كثيرون هم الذين يطيلون النظر إلى أنفسهم في المرآة، ويتتبعون ما يقوله علماء التشريح عن جسومهم ودخائلها ووظائف الأجهزة العجيبة الكامنة فيها، ثم يتحولون فيتأملون فيما يسمونه الطبيعة المترامية من حولهم بأنواعها المختلفة وأشكالها العجيبة. دون أن يدركوا في أثناء ذلك أو بعد ذلك، وجود مبدع يعود إليه خلق هذه الموجودات وإدارة شؤونها وتوزيع المهام والوظائف فيما بينها.

وتتفنن عباراتهم في تحليل المادة وجزيئاتها وألكتروناتها ونواتها، وتنتهي عباراتهم إلى ما انتهينا إليه من أن المادة في حقيقتها طاقة تكثفت في هذا المظهر الذي يسمى مادة، دون أن تسوقهم هذه المعرفة إلى معرفة المصدر الذي شعّ منه إلى داخل المادة كل هذا التيار الحيوي المتحرك والمحرك.. يقولون: إن المادة أياً كانت ومهما كان حجمها ليست أكثر من مجموعة نيترونات وألكترونات تبعث فيها الحركة والتغير الدائبين.

إذن فالمادة، كما قلنا، وعاء لنور يسري في داخله، ودعك من فنون العبارات والمصطلحات المختلفة. فمن أين جاء هذا النور حتى تغلغل فيه أي في هذا الوعاء الذي تسميه مادة؟ وقد علمت أن ما يسمى نوراً لا ينبثق من داخل الجرم الذي يبدو عليه أو يتغلغل فيه، بل ينعكس إليه من مصدر آخر، فما هو هذا المصدر الذي سرى منه إلى المادة هذا

النور الذي أورثها وظائفها الخفية التي يطيل الحديث عنها علماء هذا الشأن؟

حقاً إن الذين يشهدون هذا الكون بما فيه من الأجهزة الدقيقة الخفية وبما في جزيئات أجزائه وذرات تلك الجزيئات، من الأنشطة والحركات المنبعثة من قوىً خيرُ تعبيرٍ عنها أنها النور الخفي أو المعنوي الذي يبعث في كل شيء من أشياء الكون وظيفته التي كلف بها - أقول: حقاً إن الذين يشهدون هذا كله في المكونات، ثم لا يشهدون فيه تأثير المكوِّن وسلطانه، عند دراستهم له وتأملهم فيه، ولا بعد اجتيازهم لتلك الدراسة وذلك التأمل، ولا قبل النظر في ذلك كله. أناس أعوزتهم أنوار المعرفة وحجبت عنهم شموس الحقائق بسحب النتائج والآثار التي سجنوا عقولهم فيها. فقصارى ما انتهوا إليه من المعارف أنهم وقفوا أمام هذه النتائج والآثار يصفونها ويستخرجون من وصفهم لها قواعد يزعمون أنها حصيلة الحقائق الكونية. فهم حقاً كما قال الله عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا..﴾ [الروم: ٣٠/٧].

إن حال هؤلاء الناس الذين وصفهم الله بهذه المعرفة السطحية التي سجنوا أنفسهم فيها، أشبه ما يكون بمن نظر إلى حوض يفيض بماء عذب يتلألأ بأشعة انعكست عليه من مرآة كبيرة، تلقت تلك المرآة بدورها تلك الأشعة من الشمس التي تطلّ عليها من كبد السماء.

وقف هذا الناظر يحدّق في الحوض الذي تتلألأ صفحته بنور تلك المرآة، دون أن يلتفت يميناً أو شمالاً أو يرمق ببصره جهة السماء، فأخذ يصف هذا الذي تبصره عيناه وقد حبس عقله ومداركه بعد بصره في دنيا ذلك الحوض، موقناً أن هذا الألق منبعث من رقة الماء وصفائه و

يكتف بذلك، بل أخذ يحلل ويعلل.. ويجعل مما قد حبس بصره وعقله فيه قانوناً علمياً يُعَلِّمُهُ الناسَ ويُلزِمُهم الإيمانَ الجازم به.

ولو أن الرجل حرّر عينيه وعقله من سجن ذلك الحوض والتفت إلى صفحة المرآة التي تطلّ على الحوض، ثم تجاوز المرآة إلى السماء حيث الشمس التي تسطع بضيائها وتبعث بأشعتها إلى الآفاق والدنيا كلها، إذن لعلم أن الحوض في أصله كتلة من الظلام المائج.. وأن المرآة هي الأخرى صفحة موحشة من السواد الذي لا بريق فيه. ولكن الشمس المشرقة هي التي حولت كل ظلام في طريقها إلى نور.

تلك هي قصة هذه الدنيا كلها، كانت كتلة ظلام دامس. ثم إن الله الخالق المبدع أمدّها بنور من نوره، فتحول الظلام إلى نور مشع يبعث فيه الحركة والطاقة وينشر في أرجائه القوة والحياة.

ولكن ما الحيلة فيمن استلب الله من عقولهم نور الهداية، فلم تعد تبصرهم تلك العقول إلاّ بالمساحة التي أدركتها أبصارهم من قبل. صدق الله القائل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٠].

* * *

ثم إن الذين متعهم الله بنور المعرفة فاهتدوا به إلى الله عز وجل، ثلاث فئات:

الفئة الأولى: هي التي تعرَّف أفرادها على الله عز وجل، قبل أن يتعرفوا على الأكوان وقبل أن يتأملوا فيما تحمله من الدلائل على وجود الله ووحدانيته.. هؤلاء لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من أن يقفوا

أمام مرآة الذات، فلما تأملوا في أنفسهم عرفوا عبوديتهم وأدركوا أنهم بغيرهم يعيشون ويتحركون ويتصرفون، ولما بحثوا عن ذلك الغير لم يجدوا أحداً غير الله أمامهم. فهؤلاء هم الذين تفاعلوا مع قول الله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٢١] وهم الذين عاشوا مع قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

فهذه الفئة لم يحتج أفرادها إلى التأمل فيما حولهم من المكوَّنات، بل كانت مرآة نفوسهم هي سبيل الهداية إلى ربهم، ولا شك أن من عرف نفسه عرف ربه.

الفئة الثانية: هي التي توقفت هداية أفرادها على النظر في الآفاق وفي المكونات بعد النظر في أنفسهم، فاهتدوا بالأنوار المشرقة عليها والمتغلغلة في بواطنها إلى مصدر النور ومبعثه وهو الله عز وجل، فكان أن عرفوا المكوّن من خلال الأكوان. وهؤلاء هم الذين صدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣] وهم الذين تفاعلوا مع قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ..﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٠] فهم كلما نظروا إلى الأكوان تذكروا المكوِّن.

الفئة الثالثة: هي تلك التي يرى أفرادها المخلوقات المتنوعة ويرون آيات الله ودلائل وجوده ووحدانيته فيها، ولكنهم لا يشاهدون فيها المكوِّن جلّ جلاله، مشاهدة اللازم للملزوم.. حتى إذا فرغوا من النظر

والتأمل في مختلف اللوحات الكونية، عادوا إلى عقولهم ليدرسوا بها دراسة تفكير ونظر عميقين وليتبينوا بها ما يمكن أن تدل عليه تلك المكونات بما تنطوي عليه من نظام وما تحققه من أهداف، فيصلون أخيراً إلى ما يقرره العقل من أن هذه المكونات كلها حادثة بدليل ما يعتورها من التغير المستمر، وكل حادث لا بدّ له من محدث. وهذا المحدث هو الله. كما يصلون أيضاً إلى اليقين بأن هذه المكونات لو كانت قديمة لا أول لها يتوالد بعضها من بعض إلى ما لا نهاية، إذن لاستلزم ذلك تسلسل العلل غير الذاتية إلى ما لا نهاية وهو مستحيل.

والفرق بين هذه الفئة من المؤمنين والتي قبلها، أن أفراد هذه الفئة لا يستطيعون أن يشاهدوا الله عز وجل من خلال مخلوقاته، إلا بعد ستحضار دلائل العلم وقواعده وطول التأمل فيها، ومن ثم فإنهم يستندون إليها ويعتمدون عليها، فيما يمكن أن توصلهم إليه من حقائق لإيمان، فهم كالذي لا يستطيع أن يمشي إلا معتمداً على عكاز، أما لفئة الثانية فما يكادون ينظرون في شيء مما قد أبدعه الله ونسقه، حتى يتذكروا به الخالق، ويؤمنوا بوجوده ويستيقنوا عظيم حكمته. دون حاجة إلى استحضار قواعد العلم وموازينه والنظر فيه ثم ستخراج النتائج منه، فهم لا يحتاجون إلى عكاز هذه القواعد والموازين قط.

رجال تلك الفئة الثانية يتمتعون بما يسمونه وحدة الشهود، إذ لا يرون الدنيا بكل ما فيها إلا كالمرآة الصافية تتلألأ على صفحتها صفات المكوّن جلّ جلاله، دون حاجة إلى استحضار البراهين والدلائل للنظر فيها واستخراج النتائج منها.

وعلى الرغم من أن هذه الدرجة أرقى وأكمل، فإن الدرجة التي تليها، وهي التي يلتقي عليها اليوم أكثر المؤمنين والملتزمين من أمته مقبولة وسليمة، إذ الاعتماد على قواعد العلم وبراهينه وإن كان كاعتماد الأعرج أو الضعيف على العكاز الذي يعينه، إلا أنه مفيدة وموصلة إلى الغاية في نهاية المطاف.. ولكن عليه أن يتمس أسباباً أخرى لتقوية إيمانه وتحويله من يقين علمي إلى شهود عمي، بحيث يرقى إلى حال أصحاب وحدة الشهود، يرى الله بعين بصيرته دون حاجة إلى تلمس البراهين والمقدمات المنطقية: وذلك عن طريق الإكثار من ذكر الله عز وجل، وعن طريق ربط النعم بالمنعم دائماً.

أي إن سلوك سبيل المقدمات المنطقية والعلمية إلى معرفة الله والإيمان به، سبيل قويم وصحيح. ولكن على أن لا يقف السالك عند حدود ما دلّت عليه تلك البراهين والمقدمات. بل عليه أن يتخلص من قيود تلك المحاكمات ويتجاوز الدهاليز والمنعرجات ويلقي بعكاز المحاكمات المنطقية وراءه، جاعلاً من شهوده المباشر لصفات الله الظاهرة والباهرة على صفحة المكونات برهاناً على صحة تلك المقدمات والبراهين.. ويرحم الله تلك المرأة العجوز التي نظرت من خصاص نافذة بيتها في بغداد إلى الناس وقد ازدحموا في الأزقة والساحات لاستقبال الإمام فخر الدين الرازي، فالتفتت تسأل من حولها: ما الخبر؟ قالوا إنه الإمام الرازي الذي حشد في مؤلفاته مئات الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته، فاستخفت بكلامهم قائلة: لو لم يكن قد ابتلي بمئات الشكوك لما احتاج إلى ما يطردها من مئات

ـبر هين!.. قالوا: وبلغ الإمام الرازي هذا الذي قالته تلك العجوز فرفع يـديه يدعو الله قائلاً: «اللهم إيماناً كإيمان العجائز».

ليس معنى هذا الذي دعا به الرازي أن سبيل العلـم لا حاجـة إليـه، ـ هو سبيل لا بدّ منه، وإنما معناه أن على العالم أن لا يحبس عقله عند مقدمـات الحجـج والـبراهين، بـل عليـه إذا استعملها وفـرغ منهـا، أن يتجاوزها بحيث يرقـى إلى درجـة الشـهود الـتي أوضحنـا معناهـا. وإلاّ فيوشك أن يعود العالم إلى جهله أو شكوكه، إن غـابت عنـه لأمـر مـا ـ هينه وحججه. والخطر الأشد بالنسبة إليه ساعة الموت، إذ تغيب عن ـ ـ الإنسان لدى سياق الموت وسكراته المقدمات والـبراهين، وكيفيـة عرضها وأصول استعمالها، فإذا كانت عقائده الإيمانية لا تزال مربوطـة بـ متوقفة عليها، فلا بدّ أن تغيب هـي الأخـرى عـن بالـه مـع غيـاب تلك العُدد من المقدمات والبراهين، وما أيسر على الشـيطان عندئـذ أن ينسيه كل ما قد كان يردده ويبرهن عليه أيام عافيته وصحوه.

إذا تبين هذا، فلتعلم أن الفئة الأولى تتبوأ أعلـى درجـات الإيمـان إذ ترقى إلى شهود الله قبـل النظـر في المكونـات ودون حاجـة إلى ذلـك، تليها الفئة الثانية وهي التي تشهد المكوّن عنـد رؤيـة الأكـوان والتـأمل فيها. تليها الفئة الثالثة وهي الـتي لا تشـهد المكـوّن جـلّ جلالـه حتـى تعتصـر مـن تأملاتهـا في الكـون وسـننه دلائـل وبراهـين تنسـقها ثـم تستخرج منها النتائج والثمرات..

كن واحداً من أي هذه الفئات الثلاث، لا حرج. وإن كـان عليـك ـ لا تنسى بأن الاعتمـاد علـى العلـم في الاستدلال ينبغـي أن يكـون

سبيلاً تجتازه لا غاية تحبس نفسك في أقطارها. كما أوضحت الآن.

ولكن إياك أن تكون من الفئة الرابعة.. تلك التي غاب عنها شهود الله عز وجل، فلم تره بعين بصيرتها، لا قبل التأمل في المكونات ولا عند التأمل فيها ولا بعد التأمل فيها. فتكونَ بذلك ممن قال الله عنهم ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٠].

المهم من هذا كله، والمراد الذي يقصده ابن عطاء الله من حكمته الرائعة هذه، أن تحرص على أن لا تجعل الأكوان سجناً لك عن المكوّن، بل احرص على أن تجعل من الأكوان مرآة ترى من خلالها المكوّن.

فإن عزّ عليك السبيل إلى ذلك، فأكثر من الالتجاء إلى الله وأعلن عن افتقارك الكلي إليه، ييسر لك السبيل ويكرمك بالنور الذي ترى به هذه الدنيا على حقيقتها، وترى باهر سلطان الله عز وجل فيها.. إذن فالله هو المستعان في كل الأحوال.

* * *

الحكمة الخامسة عشرة

«مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس موجوداً معه»

دعنا نبدأ بمقدمة بين يدي شرح هذه الحكمة:

عندما تكون أثناء الليل في غرفة مستنيرة بمصباح في داخلها، تَرى النور سارياً منه إلى كل جهات الغرفة وزواياها، يحيل ظلامها إلى نور متألق.

لكن افرض أنك عمدت إلى جرم كثيف مّا كقطعة قماش أو لوح أو نحو ذلك ووضعته بينك وبين المصباح فإن الذي يحدث هو أن نور المصباح ينفصل عنك وأن ظلاماً جزئياً يمتد بينك وبينه.. ذلك لأن الجرم الأجنبي حال بينك وبين المصباح إذ أصبح الجرم أقرب إليك منه. ومن ثم يغيب عنك ضياء المصباح وتنقطع أشعته السارية إليك.

ومعنى وصفنا له بأنه جرم أجنبي، أن له طبيعة مخالفة لطبيعة المصباح، إذ المصباح مضيء والجرم الذي أسدل عليه لا ضياء فيه، ومن جراء هذا التناقض يغيب عنك الضياء ويعود فيتغلب الظلام الذي كان هو السائد من قبل.

من المعلوم أن هذه حقيقة بدهية لا تحتاج إلى دليل أو شرح. ولكن علاقة المكونات بالنور الرباني الذي يتجلّى على ظواهرها أو الذي يتغلغل في دخائلها يختلف اختلافاً كلياً عن هذا المثال الذي ذكرناه.

المكونات كلها مضمخة بالنور الساري إليها من عند الله سبحانه وتعالى بل إن نور الله عز وجل سار إلى دخائلها وجزيئاتها كما قلنا ذلك من قبل.

ذلك لأن قوام الأشياء كلها بالله عز وجل أي إن نوراً ربانياً يسري إلى المكونات فتنهض بمهامها ووظائفها التي وكلت إليها. وقد فصلنا القول في بيان ذلك في الحكمة السابقة.

إذن فكل شيء من المكونات، صغر أو كبر، عاكف على وظيفته التي كلف بها، بسرّ من النور الإلهي الهابط إليه والساري في أعماقه. وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٢٤/٤١] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤] أي كل شيء ينهض بما قد أقامه الله عز وجل عليه من وظائف وواجبات .

فإذا عرفنا أن كل شيء في هذا الكون منور بنور الله فما الذي يحجبك إذن عنه؟

لقد استوعبنا مثال المصباح لأننا جئنا بجرم مناقض لنور المصباح وأسدلناه عليه فعاد المكان مظلماً. لكن ما هو هذا الجرم الذي لم يستضئ بنور الله، ولم تتغلغل فيه أسرار من نوره عز وجل، حتى يصلح أن يكون مناقضاً لنوره، فيصبح حائلاً بينه وبين البصائر والعقول؟!..

من أين ستأتي بهذا الجرم لتسدله بينك وبين الله عز وجل فتصبح محجوباً به عن الله؟

لو نظرت يميناً وشمالاً، ولو بعثت بنظرك إلى الملأ الأعلى.. إلى الملأ الأدنى.. إلى الأطراف والآفاق كلها، ستجد أنه ما من شيء إلا وهو منوّر بنور الله في ظاهره وباطنه (وقد شرحنا ذلك).

فما هو هذا الذي يحجبك عنه، مع ما قد علمناه من أن كل ما في الكون من الموجودات مغموس بالنور الإلهي في ظاهره ومتقوم بهذا النور سارياً في داخله؟

وإذا لم يكن هنالك شيء ذو وجود مستقل يصلح أن يقوم حاجزاً يقصيك عن شهود الله، لأن كل ما هو موجود مستنير بنور الله ودال على عظيم صنع الله، فالمفروض إذن أن لا يحجبك عنه شيء.

ولكنّ قاهرية الله عز وجل تجعل من اللاشيء شيئاً، وتريك حال كثيرين من الناس وقد حجبوا عن الله عز وجل بما ليس له وجود حقيقي أي بما ليست له كثافة ذاتية تغالب النور الإلهي الساري في كل شيء، فتغلبه وتغيّبه عن البصائر والعقول.

وهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله: «مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس موجوداً معه».

كلنا يعلم أن كثيرين هم الذين حجبوا عن شهود الله ومعرفته، على الرغم من أنه لا يوجد ما يحجب العقل عن الله، لأن كل ما هو موجود مستنير بنوره ومن ثم فهو دال عليه.. تأمل في حال الملاحدة والمعاندين والمستكبرين تجد أنهم محجوبون فعلاً عن شهود الله. ولكن بأي شيء حجبوا عنه؟.. إنما حجبوا عنه بقهره وبطشه. وقاهرية الله لا تحتاج إلى أداة يستعان بها للستر أو الحجب، كما هو الشأن في

مثال الغرفة والمصباح. وإنما يتوقف الأمر على القرار الإلهي فقط، الدال عليه قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤] وقول الله عز وجل: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/١٥].

ولكن من هم أولئك الذين قهرهم الله بحجبهم عنه دون حاجب؟

هم الذين حاق عليهم غضب الله ومقته. وإنما يحيق مقته وغضبه بالمعاندين والمستكبرين عليه فقط، دون بقية الناس جميعاً.

في الناس من يستبدّ بهم الكبر والعناد، فيتجاهلون النور الإلهي الذي تفيض به المكونات كلها، والذي يشعّ مرآه في أبصارهم وبصائرهم، ثم إنهم يصرون إصرارهم المستكبر على تجاهلهم الكاذب، فيحيق بهم غضب الله العاجل في الدنيا، ويحجبهم عن شهود ذاته العلية دونما حجاب!.. ويغيبهم عن رؤية حكمه وسلطانه دونما حاجة إلى أي حاجز يغيبهم به عنه. وإنما هو نوع من العمى يسدله على أبصارهم وبصائرهم، فإذا هم محجوبون عن شهود الله عز وجل غائبون عن دلائله وأنواره التي تفيض بها المكونات كلها، وقد كانوا قبل ذلك يرونها أو يدركونها متجاهلين مستكبرين.

فهؤلاء هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٩].

إن عدم فقه القلوب، وعدم إبصار الأعين، وعدم سماع الآذان، لا يتوقف على حاجز موجود يحول دون ذلك. بل يكفي أن يُفْقِدَ الله

عز وجل منها الإدراك والإبصار والإسماع، وإذا هي كما شاء الله عز وجل: لا تفقه ولا تبصر ولا تسمع.

ألا تعلم أن في أعين الناس أعيناً لا شِيَةَ فيها ولا عيب، ومع ذلك فهي تحدق في الأشياء دون أن تراها؟.. ألا تعلم أن فيها ما قد أصيب بما يسمى عمى الألوان، دون وجود أي عطب أو حائل فهي تبصر الأشياء دون أن تدرك ألوانها؟!..

إن الذي غضب الله عليه، يُحجب عن شهود الله والدنو من حضرته بسرّ من الغضب ذاته، ويتحول قلبه إلى ما يشبه قطعة من حجر الصلد، بل يؤول به الأمر إلى ما هو أقسى من الحجارة. ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/٧٤] .

هل المعاصي وحدها تكون سبباً لهذا الحجاب؟

إن المعاصي وحدها مهما كثرت لا تكون سبباً للمقت أو الغضب الإلهي الذي يتكون منه الحجاب الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله.

وبيان ذلك أن الذي لا يعاني من الاستكبار وما يتبعه من عناد، إنما يرتكب ما يرتكبه من الأوزار بسبب ضعفه وبسبب تغلب شيطانه وشهواته عليه. والشأن فيه أن يندم على ما فرط منه بعد انتهائه من معصية وغياب لذتها عنه، فيسوقه الألم والندم إلى التوبة واستغفار الله عز وجل، ومن سنن الله في عباده أنه يقبل توبة التائبين منهم. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وهذا معنى قول الله تعالى وهو يخاطب إبليس إذ آلى على نفسه أن يغوي عباده أجمعين: ﴿هَذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ..﴾ [الحجر: ١٥/٤١-٤٢] أي إن الذين تحققوا بوصف العبودية لي لن يكون لك سبيل إلى إغوائهم. ذلك لأن كل من تحقق بوصف العبودية لله أي اعترف بها ووضعها من حياته موضع التنفيذ. لا يمكن أن يستكبر على الله عز وجل. فإذا جمحت به نفسه واهتاجت به شهواته فوقع في معصية حذره الله منها، لا بدّ أن تسوقه مشاعر عبوديته لله تعالى إلى الندم على ما فعل وإلى الحياء من الله عز وجل، فيندفع بذلك إلى التوبة الصادقة، والعزم على عدم الرجوع إلى مثل ما قد بدر منه.. فإن تغلبت نفسه عليه مرة أخرى (وهذا ممكن) عاودته مشاعر عبوديته لله تعالى، وألجأته إلى الندم والألم، فيتوب مرة أخرى بجدّ وصدق، ويعزم على عدم الرجوع إلى مثلها. وهكذا، كلما جمحت به نفسه إلى المعصية ساقته عبوديته لله تعالى إلى التوبة، ومن ثَمَّ فإن الشيطان لا يستطيع أن ينال منه منالاً.

يدل على ذلك الحديث القدسي المتفق عليه من رواية أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه قال: «أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء».

ومعنى فليفعل ما شاء أنه مهما فعل المعصية فعاد صادقاً إلى التوبة منها فإني أغفر له معصيته التي تاب منها.

إذن فالمعصية التي تصادف قلباً موقناً بذل العبودية لله، لا تكون سبباً للقهر الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله هنا، ذلك القهر الذي يحجب العبد عن الرب ويزجه في تيه من الظلام لا نجاة له منه.

إنما يأتي هذا القهر من المعصية التي تكون بسائق الاستكبار على الله عز وجل. إذ هو الداء القاتل الذي لا منجاة منه. يقول الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..﴾ [الأعراف: ١٤٦/٧] أي سأحجبهم عن دلائل وجودي، وهي تتمثل في هذه المكونات كلها، وإنما يحجبهم عنها بقهره، وإلا فليس في الكون ما يحجب الإنسان عن شهود الله، بل كل ما فيه دليل ساطع على الله تعالى. ولكن إذا أعمى الله قلب الإنسان بقهره لم ينفعه ضياء عينيه وحق عليه قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦/٢٢].

لقد رأيت عصاة كثيرين في حياتي، ولكني لا أذكر أن فيهم أحداً لم يتب أخيراً عن معاصيه ولم يصطلح مع الله عز وجل. إذ كانت دوافعهم إلى المعصية جموحاً في النفس وضعفاً في الإرادة، دون عتو ولا استكبار.

ولقد رأيت مستكبرين على الله تعالى يمارسون انحرافاتهم ويأخذون حظهم من المعاصي والأوزار المختلفة، بسائق من اللامبالاة والاستكبار على الله والاستهانة بأحكامه وأوامره.. فما رأيت واحداً منهم تاب

فيما بعد عن غيّه وعتوّه!.. تسربت إلى كثير منهم المصائب والأوجاع، وحاقت بهم المهانة وهيمن عليهم البؤس والضعف، ولكن مشاعرهم بقيت تمارس استكبارها وعتوها على الله!. ولم أر في الدنيا أقبح من صورة إنسان تراكمت عليه عوامل الذل والقهر والضعف وتناوشته الأوجاع والأمراض، وهو لا يزال يجترّ مشاعر تعاظمه على الله عز وجل ويردد ألفاظ سخريته واستخفافه بسلطان الله وأمره. ويرحم الله صاحب المثل العربي السائر «أُستٌ في الماء ورأسٌ في السماء».

تلك هي صورة القهر الذي يتحدث عنها ابن عطاء الله قائلاً: «مما يدلك على وجود قهره أن حجبك بما ليس موجوداً معه».

قهرٌ.. جعل الله منه العقوبة العاجلة لمن خلع ربقة عبوديته لله عز وجل متجاهلاً ملازمتها له من فرقه إلى قدمه، ثم اصطنع لنفسه رداء الكبرياء التي لا تصلح إلا لله عز وجل. فكان من عاقبة هذا القهر أن صرف بصيرته عن مشاهدته، وحجب عقله عن رؤية آياته، وأغلق منافذ قلبه عن التأثر بباهر سلطانه وعظيم جبروته، على الرغم من أنك تنظر فتجد أن كل جزء من أجزاء كيانه المتهاوي، مصطبغ بصبغة العبودية الضارعة لله عز وجل.

قهر.. قضى به قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنّا جَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف: ١٨/٥٧].

الحكمة السادسة عشرة

((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود كل شيء؟ يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟)).

لعلّ هذه أطول حكمة للإمام ابن عطاء الله السكندري. وهي دعم وتأكيد للحكمة التي قبلها والتي فرغنا من شرحها وتحليلها.

فنبدأ بشرح **الفقرة الأولى** منها:

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟)).

أي إن أي شيء مما قد يخطر في البال أن يكون حجاباً عن الله عز وجل. إنما هو من مخلوقات الله، ومخلوقاته أياً كانت لاتكون إلا دليلاً عليه. فكيف يكون الدليل على الله حجاباً لك عن رؤية وإدراك وجوده؟

قد يقول بعضهم: ماوجه دلالة الموجودات على وجود خالق لها؟

والجواب: أن الموجودات التي تملأ رحاب هذه الدنيا، كانت مسبوقة بعدم، فيما يقرره سائر العلماء على اختلاف مذاهبهم، إلا الماركسيين أصحاب نظرية المادية الجدلية الذين يصرون على أن هذه الموجودات متوالدة بعضها من بعض بدون بداية وإلى غير نهاية.

فإذا تجاوزنا هذا الوهم الذي ليست له أي قيمة علمية، كما قد بينته مفصلاً في كتابي (نقض أوهام المادية الجدلية) وعلمنا أن هذه المكونات كلها كانت معدومة فيما مضى، في عهد من العهود الغابرة. ثم وجدت، فإن من البداهة بمكان أن انتقالها من العدم إلى نقيضه وهو الوجود، يتوقف على عامل خارجي يتسبب عنه هذا الانتقال، إذ الأصل بقاء ماكان على ماكان إلى أن يظهر هذا العامل الخارجي الذي يحول ماكان إلى نقيض الحال التي كان عليها. وهذا معنى القاعدة العلمية القائلة: ((**يستحيل رجحان الشيء على غيره بدون مرجح**)).

فإذا عرفنا هذه القاعدة وفرضنا أن الخالق جل جلاله غير موجود، إذن فالمفروض أن تبقى هذه العوالم الموجودة في طي العدم، وأن لايوجد منها شيء. إذ إن كفة العدم المطلق كانت هي السابقة والراجحة، ومن ثم فإن الأصل هو استمرار هذا الذي كان سابقاً وراجحاً، على حاله وأن لايعتوره أي تحول إلى النقيض، لأن الذي سيدفعه إلى ذلك غير موجود.

لكنا نظرنا فوجدنا أن العدم ألغي وحل محله الوجود، أي أن العدم تحول إلى وجود. إذن لابدّ أن يكون ذلك بفعل فاعل، وإلا لبطلت

قاعدة: «**الأصل بقاء ماكان على ماكان مادام العامل الخارجي غير موجود**».

ونحن عندما نجابه الملحد بالدليل الأبلج الواضح على وجود الله نذكر له أولاً هذا الدليل الذي لايستطيع أن يتجاهله أو يمتري به أي عاقل. أي إننا نتخذ من هذه الموجودات التي كانت يوماً ما معدومة، دليلاً على أن لها موجداً، وإلا لما وجدت.

فكيف يكون هذا الذي نراه بالعقل وبالعلم دليلاً على وجود الخالق حجاباً في الوقت ذاته يقصي الإنسان عن رؤية الخالق؟!..

إذن فلابدّ أن نردد مع ابن عطاء الله استفهامه التعجبي والإنكاري، وأن نقول معه: «**كيف يتصور أن يحجبه (أي الله تعالى) شيء وهو الذي أظهر كل شيء**»؟!..

والنتيجة هي أنه لايمكن لأيّ من الموجودات أن يكون حجاباً عن شهود الله والإيمان به، إذ إن وجوده أثر من آثار وجود الله عز وجل، فكيف يكون الأثر حجاباً دون شهود المؤثر؟

ولننتقل بعد ذلك إلى **الفقرة التي تليها**: «**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء**»؟..

- ما الفرق بين هذه الفقرة والتي قبلها؟

الفقرة السابقة تعني، كما عرفنا، أن سائر المكونات التي من حولك إنما وجدت بإيجاد الله إياها، إذن فدلالتها على الله عز وجل، من حيث إنه الموجد لها من العدم.

أما هذه الفقرة، فتعني أن كل شيء بعد وجوده ينهض بوظيفة هادفة ذات قصد إلى غاية تتوقف عليها مصالح الحياة الإنسانية. وذلك يدل على وجود القاصد الذي سخر تلك الأشياء لقصده واستخدمها لمشيئته، وهو الله عز وجل. فظهوره الثاني هنا، تم بالأشياء، أي بواسطة ماتجلى فيها من الحركات الهادفة إلى تحقيق المصالح، وهو مايعبرون عنه بالعلة الغائية.

وإليك الآن **شرحاً علمياً مفصلاً لهذا البيان الموجز.**

إن كل ماتراه عيناك من الموجودات، يدل على الله عز وجل من حيث أصل وجوده الذي لابدّ أن يتوقف على موجد.. ويدل على الله عز وجل من خلال استمرار وجوده، وذلك من خلال الوظيفة التي عهد الله بها إلى ذلك الشيء، إذ إنها وظيفة هادفة تسير طبق خطة مدبّرة مما يدل على وجود مدبر أخضعها لتدبيره.

إن الأرض التي نعيش فوقها مثلاً، تدلّ على وجود الخالق، بسبب أن كل مخلوق لابدّ له من خالق. وقد أوضحنا هذه الدلالة في شرحنا للفقرة الأولى من هذه الحكمة..

ثم إنها تدل على وجود الخالق، بسبب النظام الدقيق الذي أقامها الله عليه، والذي تعود إليه إمكانية استقرار الإنسان على الأرض متمتعاً بمقومات عيشه وأمنه وطمأنينته. فهي تتصف من وزنها بثقل معين لو زادت عليه أو نقصت منه لاختل قرار الإنسان فوقها ولاضطربت جاذبيتها له، والغلاف الجوي الذي يحيط بها يوفر للإنسان الأكسجين الكافي، ويردّ عنه أخطار الشهب والنيازك، وذلك

طبق مواصفات وشروط دقيقة. والنباتات التي تخضر على وجه الأرض تمتصّ مايزفره الإنسان من ثاني أكسيد الكربوني لتحيله من جديد إلى أكسجين، كي لايطغى الأول على الثاني فيختل شرط من شروط حياة الإنسان على الأرض، هذا إلى جانب التّربة وما أودع فيها من قابلية الاستنبات، إلى جانب المياه الجوفية التي خزنت في داخل الأرض، إلى جانب المعادن المختلفة التي بُثّتْ عروقها في تجاويفها، كل ذلك ضمن حساب دقيق يتفق وحاجة الإنسان في توفير مقومات الحياة الآمنة والعيش الرغيد.

وبوسعك أن تتبين هذا النظام الهادف في بنية الإنسان: أعضائه الظاهرة من سمع وبصر وشم ولسان ودماغ، وأجهزته الخفية الباطنة من كل مايتناوله بالبحث والدراسة علماء التشريح.. فهي جميعاً تؤدي وظائف في غاية الدقة والانتظام، تتجه إلى غاية واضحة تتمثل في تحقيق مابه دوام الحياة وانتظامها لشخص الإنسان.

قل مثل هذا عن الأفلاك والكواكب والرياح السارية والسحب والأمطار وعالم الأغذية والأقوات.. كل ذلك يتحرك طبق نظام.. ويتجه النظام إلى هدف، ويتمثل الهدف في توفير الشروط التي لابدّ منها لتوفير مقومات الحياة الآمنة الرغيدة للإنسان.

هذه الظاهرة التي تتحرك المكونات كلها على أساسها، تسمى ظاهرة «العلة الغائية» أو ظاهرة الحكمة في الأشياء. وهي دليل من أقوى الأدلة العلمية الناطقة بوجود الله.

فا لله عز وجل ظاهر للعقول، بهـذه الوظـائف الهادفـة الـتي يتحـرك على أساسها كل شيء من الأشياء، فأنت وإن لم تر ا لله بعين رأسـك، إذ قضى بأن لاتدركه الأبصار، ولكن هذه الأنظمة الدقيقة الهادفة الـتي تعكـف عليهـا الأشـياء الموجـودة كلهـا، تريـك ا لله تعـالى يقينـاً بعـين بصيرتك. وهذا هو معنى قول ابن عطـاء ا لله في هـذه الفقـرة: ((**كيـف يحجبه شيء، وهو الذي ظهـر بكـل شـيء**)) أي وهـو الـذي ظهـر بسـبب الوظيفة الهادفة التي تسير وفقها وبكل دقة أشياء الكون أجمع.

وياعجباً لمن يعلم هذه الحجة ويعتمد عليها في الإيمان بأمم وشعوب مضت ودخلت في عالم الغيب، ثم لايعلم هذه الحجة ذاتهـا ولايعتمـد عليها في الإيمان بخالق هذه الأجهزة الكونية وموجههـا إلى هـذا النظـام الهادف الذي لاتحيد ولاتشرد عنه!!.

ينظر أحدهم إلى أطـلال باقيـة مـن بنـاء، أو إلى كتابـات أو نقـوش مهترئة على بعض الجدران أو الصخور، فيعمل عقله، ويتبـين ممـا تـدل عليه تلك النقوش أو الأطلال، من أهداف كانت ترمي إليها ومقـاصد تستخدم لها، أن تلك البقاع شـاهدت يومـاً أممـا ذات حضـارة وقـدرة علميـة، وقـوة راسـخة.. ثـم لايعمـل عقلـه ليـدرك مـن خـلال رؤيتـه لأضعاف هذه الظواهر الهادفة والمنتشرة في أجزاء هذا الكـون كلـه، أن وراء هذا النظام منظماً وأن وراء المقصد الذي تهدف إليه قاصداً، هـذا بالإضافة إلى دليل الخلق والإبداع الذي قرره ابن عطـاء ا لله في الفقـرة الأولى.

ياعجباً لأولئك الذين لادليل الخلق والإبداع يوصلهم إلى اليقين بوجود الخالق المبدع، ولادليل النظام الهادف ينبههم إلى اليقين الذي لابدّ منه بوجود المدبر والمنظم!!..

* * *

وننتقل الآن إلى **الفقرة الثالثة**، وهي:

((**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟**)).

قبل كل شيء إياك أن تفهم معنى الحلول من هذه الفقرة بأن يخيل إليك أن معناها أنه جل جلاله موجود بذاته في داخل كل شيء... معاذ الله!!. لو قلنا ذلك لعاد الكون وعاء حُجبَ الله في داخله!! تعالى الله عن مثل هذا الوهم علواً كبيراً.

إذن ما معنى هذه الفقرة؟

معناها: كيف يحجبه شيء وهو الذي ظهرت صفاته كلها في كل شيء. وإليك البيان:

ما من شيء تراه عيناك إلا وتجد فيه صفة الإبداع والحكمة والجمال والقوة والإرادة إلى آخر ماينعت به الله عز وجل من صفات الكمال، أليس كذلك؟

اختر من المخلوقات ماشئت، تأمل فيه واسبر غوره تجد هذا الذي يقوله لنا ابن عطاء الله. انظر إلى الزهرة تأمل في عبقها.. في ألوانها، وجمال الأصباغ العجيبة التي تلاقت منسجمة فيها ألا تراها تفيض بصفات الله عز وجل؟ ألا ترى في داخلها صفة الجمال صفة الحكمة؟

صفة القدرة الباهرة؟ صفة الإبداع؟ صفة العلم؟ عندما تعبق بالرائحة الزكية التي يشمها أنفك، أمسك بيدك واحدة من أوراقها واسحقها بضغط بين أصابعك ثم ابحث بأنفك عن تلك الرائحة الزكية، لن تجد في سحاقتها إلا النقيض الذي يشمئز منه أنفك!!.. ضع يدك على أوراقها الخضراء وابحث فيها عن هذا العبق المنعش، أو تلمسه في الجذور أو في شيء من العروق لن تجد إلا مايشمئز منه أنفك وتكرهه نفسك، حتى إذا وقفت على الزهرة مفتحة بالشكل الذي أبدعها الله، سرت منها إلى أنفك رائحة زكية منعشة لاتقوى اللغة ولا العبارات على وصفها والتعبير عنها.

ألست من هذه الزهرة، بكل ماتراه عيناك ويشمه أنفك، أمام صفات الله الباهرة التي تفرّد بها من دون كل شيء؟

عندما تترك النواة الصغيرة بين التراب، ثم تعود إليها بعد أيام، فتجد أنها قد تفجرت عن شُعَيْرةٍ هبطت إلى الأدنى، وعن شُعَيْرةٍ أخرى اتجهت إلى الأعلى، وتتأمل في كل من هاتين الشعيرتين، فلاتشك أنه من اللين والرخاوية بحيث لو لمسته بين إصبعيك لاضمحل وذاب، ولكنك تنظر فتجد أن الأول منهما قد مخر هابطاً صلابة الأرض وكأنه مسمار من الصلب، وتجد أن الثاني قد مخر صاعداً كل سدّ في طريقه مهما كانت قسوته وصلابته.. فهذه الأعجوبة التي تراها عيناك ألا ترى فيها مجموعة من صفات الله الباهرة؟ ألا ترى فيها قدرته.. حكمته.. إبداعه.. علمه... تدبيره...

عندما تبحر، وتتوسط بك السفينة عرض البحر، وتتأمل فيما يحيط بك، عالم من المياه المتلاطمة، ينطوي فيه عالم من الحيوانات المتنوعة

العجيبة، ألا ترى نفسك من ذلك كله أمام سطور تنطق بآيات الله الباهرة، تنطق بصفات جبروته وسلطانه وقهره، وأحديته وصمديته؟

عندما تتوغل في الأدغال، أو تشرف عليها من كثب، وتتأمل منها في عالم الطيور العجيبة في أشكالها وأصواتها ونظام حياتها، ثم في عالم الزواحف، المتنوعة الغريبة، ثم في عالم السباع الضارية، ثم في النهج الثابت الذي يلتزمه كل منها، والضوابط المعيشية التي تشكل القانون الصارم في حياتها، ألا ترى أنك أمام صفحة أخرى من باهر صفات الله المبدع القيوم المدبّر المحيط المتعالي القدير؟

تأمل في الرياح الهابة من حولك ومن فوقك، وانظر كيف تؤدي وظيفتها الدائمة في إثارة السحب وسوقها من مكان إلى مكان، تبددها آناً وتكثفها وتجمعها آناً آخر، وانظر إليها كيف تتمازج مع الرطوبة النسبية، ثم كيف يصدر الأمر إلى تلك السحب في اللحظة المعينة بأن تمطر في المكان المعين، بقدر معين!.. ألا ترى في ذلك كله صفات التدبير واللطف والإنعام والفضل الإلهي!

إذن، فالكون كله مظهر، بل مَعينٌ لصفات الله عز وجل. فكيف يكون فيه مع ذلك ما يحجبه عن الله؟

فهذا هو معنى قول ابن عطاء الله ((**كيف يحجبه شيء وهو الظاهر في كل شيء**)) أي وهو الظاهر بصفاته في كل شيء.

إنك لن تجد في الكون مايقطعك عن الله.. ولكن الكون مع ذلك مليء بأناس مقطوعين عن الله، لماذا؟ ألأن في الأكوان ما حجبهم وقطعهم عن الله؟.. معاذ الله!.. إنما الذي حجبهم عن الله قهره عز وجل. كما ذكرنا في شرح الحكمة السابقة.

وإنما حجبوا عنه بقهره، لما اهتاجت بهم أهواؤهم فاستكبروا عليه وتناسوا ذلّ عبوديتهم له. وقد علمت أن المعاصي على اختلافها ليست هي التي تحجب الإنسان عن الله، إنما الذي يحجب الإنسان عنه إنما هو العتوّ والاستكبار.

* * *

أما **الفقرة التالية** من هذه الحكمة فهي قوله ((**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء**)).

أما ظهور الله للعقلاء من الإنس والجن والملائكة فلا إشكال فيه لأن عقولهم من شأنها أن تهديهم إليه وأن تبصّرهم به، فهو يظهر بصفاته لمداركهم بهذا المعنى.

ولكن كيف يكون ظهور الله للأشياء الأخرى من الجمادات والنباتات ونحوها، وهي كلها لاتعقل؟

والجواب: أن الخطأ يكمن فيما قد نتوهمه، من أن وسيلة معرفة الله واليقين بوجوده، إنما هي هذا العقل الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوانات والمخلوقات الأخرى... ونظراً إلى أن ماعدا الإنسان (طبعاً بقطع النظر عن الجن والملائكة) لايتمتع بالعقل، إذن فإن ماعداه غير مؤهل لمعرفة الله والإيمان به والشعور بوجوده.

وهذا خطأ.. فإن سبل معرفة الله والدينونة له ليست محصورة بهذا الذي جهز الله به الإنسان ومتعه به، مما يسمى العقل:

ولتقريب هذه الحقيقة إليك أقول: أرأيت إلى الملائكة، إنهم لايتمتعون بالوسيلة الإدراكية ذاتها التي نتمتع بها نحن البشر، ليس لهم

في رؤوسهم الأدمغة التي في رؤوسنا والتي يشرق عليها ذلك السر الرباني الذي به يتم العلم والإدراك والذي نسميه العقل. ولكنهم مع ذلك يعلمون ما لانعلمه من أسرار الملكوت الرباني، ويعرفون الله ويعرفون عبوديتهم له، ويدينون له بالتبتل والولاء.

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن لهم إلى ذلك سبلاً أخرى متعهم الله بها. وهذا الذي يصدق على الملائكة يصدق على المخلوقات الأخرى أياً كانت.. إن حصر سبيل معرفة الله والإيمان به وبصفاته في العقل، حصر سليم وصحيح بالنسبة للمجتمع الإنساني والنظام الذي أقام الله حياته عليه، أما فرض هذا الحصر على سائر المخلوقات الأخرى فقرار غريب أعزل، يعوزه البرهان والدليل.

أضف إلى هذا بيان الله عز وجل الذي أنبأنا من خلاله بما يدل على أن سائر المخلوقات الأخرى تتمتع بما يبصرها بالخالق عز وجل، وبما يدعوها إلى الولاء والدينونة له. ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤] وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٢٤/٤١].

ونحن إنما نخاطب بهذا الدليل المؤمنين بالله عز وجل، وبأن هذا الكلام إنما هو كلامه، وأما من لم يؤمن بوجوده بعد، فالبحث كله غير ذي موضوع بالنسبة إليه، ويوشك أن يأتي يوم يفيق فيه من خدر عقله ويوقن بما لم يكن يوقن به اليوم، إلا إن كان محجوباً عن الله بعناده واستكباره، فأغلب الظن أن هذا الفريق سيبقى سادراً في غيه إلى أن يلقى الله عز وجل.

إذن فلتعلم أن ا لله كما ظهر لك بنور من إدراك عقلك، فقد ظهر للمخلوقات كلها بنور رباني آخر لاعلم لنا به، فهي تظل في دينونة دائمة لحكمه، وفي تسبيح دائم لذاته العلية. بل إن في صنف الإنس والجن من حجبوا عن ا لله فلم يتجلّ و لم يظهر لهم، بحجاب من قهره وعاجل بطشه، أما الأصناف الأخرى من المخلوقات فليس فيها ما لم يتجلّ ا لله عليه تجلياً يخضعه للولاء الكامل له ويحمله طوعاً على السجود لذاته العلية، كل بطريقته ولغته.

وتأمل في هذا، قول ا لله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ [الحج: ٢٢/١٨].

فقد نسب البيان الإلهي السجود الذي هو أثر من آثار ظهور ا لله وتجليه، إلى كل المخلوقات التي في السماوات والأرض دون استثناء، ولكنه لما نسب السجود ذاته إلى الناس استثنى منهم، فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾.

فيا عجباً للخليقة الإنسانية التي متعها ا لله بالعقل والرشد وكرمها وفضلها على كثير ممن خلق، كيف يكون فيها كثير ممن لم يستفيدوا من عقولهم ورشدهم وعاشوا محجوبين عن ا لله بغير حجاب، في حين أن سائر المخلوقات الأخرى نعمت بلذة ظهور ا لله لها، ثم نعمت بولائها لسلطانه وسجودها الدائم لذاته العلية!..

ثم أن هذا الذي يخبرنا به بيان الله عز وجل، من تسبيح كل شيء لله عز وجل، بما فيه الجمادات والنباتات والحيوانات العجماوات، نتلقاه نبأً عن الله نوقن ونؤمن به، وإن لم تظهر لنا دلائل مادية منظورة على ذلك.

ولكن الخوارق التي قضى الله عز وجل أن تخترق نواميسه وسننه الكونية، بين الحين والآخر، تضعنا أمام الدليل المادي المنظور على مايقوله الله عز وجل.

من ذلك مارواه البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار[1] حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه إلى أن سكن.

فحنين الجذع إلى رسول الله نتيجة لشعوره به وحبّه له، وهو بدوره نتيجة لشعوره بوجود الله وحبه له. وللجذع إلى ذلك سبيله الذي جهزه الله به. ولايشترط فيه أن يكون كسبيلنا نوراً أو سراً ينعكس على حجيرات الدماغ فيتكون منه العلم والإدراك.

وليس لك أن تقول: إن هذه واقعة خارقة جرت في ثوان معدودات ثم انتهت وعاد الجذع إلى شأنه وطبيعته الجامدة، لأن حنينه الذي لاريب فيه، كان من آثار شعوره السابق بالقرب من رسول الله إذ كان يستند إليه عندما يقف خطيباً، ثم تبدّل ذلك القرب إلى بعد. فحنينه إنما هو نتيجة شعور متراكم يعود إلى ماض لايعلم مداه إلا الله.

---

(١) العشار جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر.

ولكن الجديد والمفاجئ في الأمر إنما هو بروز هذا الشعور وظهور أثره بذلك الصوت الذي انبعث منه. وإنما كان ذلك (والله أعلم) ليستبين الناس أن مايعدونه من الجامدات التي لاتعي، لها إحساس بالقدر الذي يناسب وضعها الذي هي فيه، ومن ثم فإنها ليست محجوبة عن الله عز وجل. والله ظاهِرٌ لها بالإحساس الخاص الذي بثه فيها، كما هو ظاهر للإنسان بالعقل الذي ميزه به. بل كثيراً مارأينا من يتميز بالعقل والإدراك، محجوباً عن عقله وإدراكه ورأينا في المقابل أصنافاً من الجمادات والحيوانات العجماوات، تدرك ما لا يدركه كثير من أصحاب العقول.

ويرحم الله الإمام البوصيري فقد أبدع وأجاد إذ قال في همزيته المشهورة:

ربِّ إن الهدى هداك وآيا ... تُكَ نورٌ تَهْدِي بها من تشاء

كم رأينا ما ليس يَعْقِلُ قد أُلْهِـ ... ـمَ ما لَيْسَ يُلْهَمُ العقلاء

إذ أبى الفيلُ ما أتى صاحبُ الـ ... ـفيلِ ولمْ ينْفَعِ الحِجَا والذكاء

والجماداتُ أفْصَحَتْ بالذي أُخْـ ... ـرِسَ عنه لأحَمدَ الفصحاءُ

ويح قومٍ جَفَوْا نبيّاً بأرضٍ ... أَلِفَتْهُ ضِبَابُها والظِبَاءُ

وسَلَوْهُ وُحَنَّ جِذْعٌ إليه ... وقَلَوْهُ وَوَدّه الغرباء

* * *

ثم يقول ابن عطاء الله ((**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء**))؟!

من أبرز صفات الله تعالى القدم، والقديم لغة، لاعرفاً: من لا أول له. أما ما يقصده كثير من الناس من أنه الشيء الذي تطاول أمده، فهو معنى عرفي لا لغوي. تقول: دار قديمة وثوب قديم، أي ليست أو ليس بجديد.

أما المعنى الحقيقي لصفة القديم، فهو الكينونة التي لا أول لها. وهذا هو معنى القدم الثابت لله تعالى. دليله قول الله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ﴾ [الحديد: ٥٧/٣]، إذ ((الأول)) أصلها ((أوأل)) على وزن أفعل، صيغة تفضيل أي أوأل من كل شيء، إذن فهو قبل كل ماقد تتصور أنه قبله.

يدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٦]، إذ إن خالقيته لكل شيء تستلزم أن يكون قبل كل شيء، وأن يكون وجوده من ذاته لابعامل أو بسبب من غيره.

كما يدل عليه أيضاً قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري في كتاب بدء الخلق: ((كان الله تعالى و لم يكن شيء غيره)) وفي رواية أبي معاوية في الكتاب ذاته: ((كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء)) وهو بهذا اللفظ من رواية الإمام أحمد أيضاً من حديث أبي معاوية.

وإذا ثبت أن الله كان موجوداً و لم يكن شيء غيره، فإن ذلك يستلزم أن الله كان موجوداً ولاشيء قبله من باب أولى. وقد ورد حديث بهذا اللفظ أيضاً في البخاري من حديث عمران بن حصين كان الله ولاشيء قبله وكان عرشه على الماء)).

إذن فقد ثبت أن الله كان ولاشيء معه أو ولاشيء غيره، وأنه عز وجل كان ولاشيء قبله.. وهذا مما يقتضيه قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٦] .

ونزيد هذه الحقيقة بياناً فنقول: إن المادة بمعناها النوعي الذي توالدت منها الأشياء، داخلة في عموم قول الله تعالى: ﴿... كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولاشك أن خالقية الله لكل شيء، بإرادة واختيار، لابتسبب ولابفيض أو اضطرار. إذن فكل ماعدا الله حادث، مهما سبقت الحوادث بعضها بعضاً؛ ومهما قسمت الحوادث إلى أجناس أو أنواع أو أجزاء أو جزيئات، فإنها جميعاً تدخل تحت اسم ((ما عدا الله)) وقد ثبت بنص القرآن وبأكثر من نص من حديث رسول الله أن كل ماعدا الله مخلوق ومن ثم فهو حادث.

إذن فقد سقطت قيمة الكلام الذي تطوح فيه كثير من الفلاسفة عندما قالوا بالقدم النوعي للأشياء، أي بقدم المادة الخام التي تشكل جنس الأشياء أو نوعها العالي. إذ إن الجنس المادي للأشياء المتكاثرة ليس خارجاً عن مدلول كلمة الشيء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفي قول رسول الله ﷺ: ((كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره)).

وليس الغريب أن يتطوح الفلاسفة في هذا الوهم المناقض لكلام الله عز وجل، فإن شأنهم على الأغلب ذلك.. ولكن الغريب جداً أن يتورط ابن تيمية رحمه الله في هذا اللغو، وأن يجنح إلى ما يراه

الفلاسفة في ذلك، مقرراً أن المسلم لايكفر إن اعتقد بالقدم النوعي للعالم وبأن في أشياء المادة ما لم يخلقه الله عز وجل[١].

فإذا ثبت وصف القدم لله عز وجل وأنه هو الخالق لكل شيء، إذن فقد ثبت أن كل ماهو موجود إنما وجد بخلق الله له، فهو بعض من آثار وجوده وصفاته، إذ المخلوق يدل على الخالق والمصنوع يدل على الصانع. فكيف يصح أن يقال إن في المخلوقات الدالة على خالقها ما يصح أن يكون حجاباً يمنع التبصر بشهوده والوقوف على دلائل وجوده. كيف يكون الدليل حجاباً يصدّ عن رؤية المدلول؟..

فإن قلت: ولكني أعتقد أن العالم قديم لا أول له، ومن ثم فهو غير مخلوق حتى نبحث له عن خالق، وحتى نجعل من وجوده أي العالم دليلاً عليه، أي على الله عز وجل، أقول: إن هذا الذي تعتقده أوغل في البطلان ممن يقول إن في مخلوقات الله ما يصدّ عن شهود الله والإيمان به. ذلك لأنا أوضحنا من قبلُ أن هذه الموجودات هي أضعف من أن توجد نفسها، إذن فوجودها متوقف على موجد؛ فإن قلت: هي سلسلة مخلوقات دائمة يتوالد بعضها من بعض، قلنا: هذا مثل قولك إن الصفر ولدت قيمته من الصفر الذي إلى يساره، والصفر الثالث كذلك، وهكذا إلى ما لانهاية. فإن كان في العقلاء من يؤمن بأن مجموعة ملايين الأصفار التي لانهاية لها توالدت قيمة كل منها من الصفر الذي يليه وهكذا، فإنه قد يوجد في هؤلاء العقلاء من يصدق

---

(١) انظر كتاب نقد مراتب الإجماع لابن تيمية ص١٦٧ ومابعدها، وانظر التحقيق الذي كتبته في ذلك في كتابي (السلفية) ص١٦٤ ومابعدها.

بأن هذه الموجودات التي لايقدر كل منها أن يوجد نفسه، إنما سرت فيها القدرة على ذلك، مروراً من كل موجود منها إلى الموجود الآخر الذي تفرع عنه!...

ولا أتصور أن في العقلاء من يعتقد أو يؤمن بأي من هاتين الخرافتين.

إذن فلنردد مع ابن عطاء الله قوله: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء)).

* * *

ثم يقول رحمه الله: ((**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء**)).

ستقول: إني أرى ضوء الكهرباء أمامي، ولا أرى الله.. أرى خضرة الأشجار والبساتين ولا أرى الله.. أرى الأفلاك والنجوم والأرض والبحار والناس ولا أرى الله.. فكيف أصدق أن الله الذي لا أراه أظهر من كل هذه الأشياء التي أراها؟!..

وأنا أسألك بدوري: هذه الأشياء التي تراها، بأي وسيلة رأيتها وأدركتها؟ ستقول: بوسيلة الإبصار وهي العين، وبوسيلة الإدراك وهي العقل.

ولكن ماهي العين التي تكسبك الرؤية؟ هل هي القرنية أو الشبكية أو اللزوجات والرطوبات الدهنية التي فيها أو الأوردة التي تصل مابين العين ومؤخرة المخّ؟.

كل ذلك لا قيمة له ولا يفعل شيئاً إن غاب عن عينيك النور الإلهي الذي ينسكب فيهما.

والعقل!.. ما الذي تعنيه بهذه الكلمة؟ هل هو الدماغ الذي يصفه بعضهم بأنه مادة عالية التنظيم؟!.. ولكن للحيتان والحمير وسائر الحيوانات العجماوات أدمغة، وربما كان فيها ما هو أضعاف الكم الذي يتمتع به الإنسان من ذلك، ومع ذلك فإن أدمغتها لم تسعفها بالإدراك الذي يتمتع به الإنسان.

والسبب أن الإدراك إنما يتم بنور رباني يقذفه الله إلى الدماغ. لا بجوهر الدماغ ذاته.

إذن فأنت ترى ما تراه من المرئيات وتدرك ما تدركه من المعنويات بالنور الإلهي الذي قُذف منه في بصرك فرأيتْ، ووُجه منه إلى دماغك فأدركتَ وعلمتْ.

وإني لأسألك: أيهما أجلى وأظهر: الشيء المدرَك أم وسيلة الإدراك؟ أيهما أجلى وأظهر: المصباح الذي تبحث بواسطته أم المتاع الذي تبحث به عنه؟

ولعلك لم تنس بعد، الحكمة السابقة التي يقول ابن عطاء الله فيها: ((الكون كله ظلمة، وإنما أناره وجود الحق فيه)).

غير أن كثيراً من الناس يقعون تحت سلطان القاعدة القائلة: من شدة الظهور الخفاء. فيغيب عنهم أظهر ما في الكون لا لشيء إلا لأن ظهوره كامل واسع لا ترتسم له أبعاد ولاحدود. وأعيدك إلى المثال الذي سبق أن ذكرته.. عندما تنظر إلى الأشياء المتناثرة من حولك،

وتتأمل في أهم ماورد في العدد الجديد من الجريدة الـتي وصلتـك لتـو. من خلال المنظار المثبت على عينيك، إنك لتعلم أنك بهذا المنظار تتبين كل ماحولك. ومع ذلك فإنك لا ترى المنظـار، ولـو رأيتـه لقـام أمـ عينيك من ذلك حاجز يقصيك عن رؤية ماكنت تراه. ولربما جاء مـن يسألك عنه، فتبحث عنه في كـل زوايـا الـدار، وتفتـش عنـه في أدر مكتبك، ثم تيـأس مـن العثـور عليـه، دون أن تتذكـر أنـه مثبـت عـ عينيك وأنك به تفتش عنه، وبه تبحث عنه في كـل الزوايـا والجهـات. ولقد انتابتني أنا شخصياً هذه الحالة في إحدى المرات[1].

وعلى كل، سواء أتذكرت أن على عينيـك منظـاراً تـرى بـه دقـائق الأشياء، أم نسيت ذلك، فإنك ترى بـه، ولكنـك لاتـراه. ولاريـب أن الأداة التي ترى بها أظهر وأجلى من مرئياتك ذاتها.

إذن فلنقل مع ابن عطاء الله: ((كيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو أظهر من كل شيء)) وسبحان مـن حجـب عنـه عبـاده المحجوبـين مـع ذلك بحجاب قهره.

* * *

ثم قال: **((كيف يتصور أن يحجبـه شـيء وهـو الواحـد الـذي ليـس معه شيء))؟**

هل هذا تعبير عن وحدة الوجود التي لايقرها عقل ولاشرع؟

تأمل في كلمة ((معه)) تعلم الجواب عن هذا السؤال: ذلـك لأن ابـن عطاء الله ينفي أن يكون لأي شيء آخر غـير الله وجـود ذاتـي ثـابت

(١) لعل موجزاً لهذا الكلام مرّ في شرح بعض الحكم السابقة.

مع وجود الله. ومابنبغي أن يغيب عنك الفرق الكبير بين وجود الأشياء بالله ووجودها مع الله. وإنما ينفي ابن عطاء الله وجود الأشياء مع الله، لاوجودها بالله.

فما الدليل على أنه لايوجد (مع) الله شيء؟

الدليل على ذلك أن الأشياء الموجودة، كما أنها مفتقرة إلى من يوجدها من العدم وهو الله عز وجل، فإنها مفتقرة إليه أيضاً في استمرارية وجودها لحظة فلحظة..

فليس معنى خلق الله الكائنات أنه أبدعها من العدم وأقامها على النسق الذي أقامها فيه، ثم إنه تركها وتخلى عنها لتستقل بالمحافظة على ذاتيتها ومقومات وجودها.. لو كانت لها هذه القدرة الذاتية، إذن لكان وجودها من ذاتها ولما احتاجت إلى موجد. ولكن مما لاريب فيه أنها لا تتمتع بهذه القدرة الذاتية، بدليل أنها كانت معدومة، ثم سرى في العدم الوجود بمشيئة الله وقدرته.. إذن فكما أنها فقيرة إلى من يحيل عدمها إلى وجود ابتداءً، فهي فقيرة إلى من يمتعها بهذا الوجود دواماً، بحيث إن تخلّى عنها الموجد فلا بدّ أن يعود بها الضعف الذاتي إلى وضعها الذاتي القديم وهو العدم.

هذا دليل منطقي وعلمي لايتأتى الريب فيه.

أما الدليل على هذا من كلام الله وبيانه فنصوص كثيرة، نذكر منها:

ـ قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥] إذن فإن من أسماء الله تعالى ((القيوم)) والكلمة على وزن ((فيعول))

صيغة مبالغة، ومعناها القائم بأمر المخلوقات على الدوام. ومعنى ذلك إن وجودها الذاتي وعكوفها على أعمالها الوظيفية، إنما هو بدوام قيومية الله عليها.

ـ وقد فصَّل البيان الإلهي هذا المعنى في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ [فاطر: ٣٥/٤١] ، وفي قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٥] ومن المعلوم أن إمساك الله السماوات والأرض، هو إمدادها بالوجود المستمر ورعايته لها وهدايته إياها للقيام بما توجه إليها من الأوامر التكوينية، وهذا الإمساك مستمر دائم يتجدد لحظة فلحظة.

ـ ومنها قول الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٣٦/٤١] .

ـ ومثله قول الله تعالى: ﴿وَحَمَلْناهُ عَلَى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٥٤/١٣-١٤] .

فقد أبطل البيان الإلهي وجود أي فاعلية ذاتية للفلك، ونبَّه إلى أن مايبدو أن الفلك تقوم به من وظيفة الحمل والطفو على سطح الماء، إنما هو بفاعلية مباشرة من الله عز وجل، ولذا فإن الحامل الحقيقي لها ولمن هم على ظهرها إنما هو الله.

ـ وهذا هو معنى الكلمة القدسية التي علمنا إياها رسول الله ﷺ وهي: «لاحول ولاقوة إلا بالله» فقد انتفى إذن أي حول وأيّ قوة لأي شيء في الكون، ابتداء ودواماً، ألا أن يمدّه الله من عنده بالحول والقوة، إن للإيجاد ابتداء، أو لبقاء الوجود استمراراً، أو لقيام الموجود

بالوظيفة التي عهدت إليه. إذ كل ذلك يحتاج إلى حول وقوة، ولاحول ولاقوة إلا بـا لله، أي فليس لجنس القوة السارية في أي شيء من الأشياء، أي مصدر إلا مصدر واحد لاثاني له، هو ا لله عز وجل[1].

إذن فهل بقي وجودٌ مع وجود ا لله عز وجل؟ ليس في العقلاء من يؤمن با لله ثم يعتقد أن لغير ا لله وجوداً مستقلاً يتمتع بمعنى المعية إلى جانب وجود ا لله. بل المنطق البدهي والنصوص القاطعة، كل ذلك يعلن على سمع الدنيا وبصرها، أن الوجود الذاتي الحق إنما هو وجود ا لله عز وجل، أما ما تراه عيناك من الموجودات الأخرى فبا لله وجدت، وبا لله يستمر وجودها، وبا لله تؤدي وظائفها التكوينية التي عهد بها إليها.

وأقرب مثال إلى ما أقول، و لله المثل الأعلى، حال طفل صغير لم يكمل بعدُ السنة من عمره، ينهضه أبوه واقفاً ويمسكه بعضديه، فترى الطفل واقفاً على قدميه. أفتقول: إنه يقف مع أبيه أم تقول: إنه يقف بأبيه؟ لاشك أن الطفل مهما طال وقوفه على قدميه بهذا الشكل، فهو إنما يقف لحظة فلحظة بعون من أبيه، لابقوة ذاتية منه مع أبيه. فلتعلم أن الكون كله بالنسبة إلى ا لله كذلك.

فقد صح إذن ما قاله ابن عطاء ا لله من أنه جل جلاله الواحد الذي ليس معه شيء.

فإذا ثبت أن ا لله ليس (معه) شيء فكيف يحجبك عنه ما لا وجود له؟ كيف يكون المعدوم حجاباً يصدّك عن رؤية الموجود؟ ولا ريب

(١) انظر تفصيلاً موسعاً في بيان هذه الحقيقة في كتابي: (السلفية) ص١٧٦ فما بعدها.

أن المكوّنات كلها معدومة بذاتها أي ليس لها وجود ذاتي، وإنما هي موجودة بموجدها الذي أمدّها بالوجود ابتداء، ويمدّها بالوجود دواماً. وهو الله عز وجل. فهي إذن دالة على موجدها، وليست حجاباً عن موجدها.

* * *

ثم يقول ابن عطاء الله ((**كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟**)).

أجل.. هو أقرب إليك من كل شيء، ألم يقل عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ٥٠/١٦] ألم يقل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/٤] ألم يقل: ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا﴾ [المجادلة: ٥٨/٧].

ولاتقولن إنها آيات مؤولة، فالمراد بالقرب فيها المعنى المجازي وهو العلم، أي إن الله يعلم من الإنسان - أينما كان ومهما خلا بنفسه - كل خافية.. فنحن مع السلف الذين يفسرون صفات الله تعالى في آيات الصفات بمعناها الحقيقي دون تكييف ولاتشبيه، ولسنا ممن ينتقي ما يروق له أن يفسره من ذلك على حقيقته فيقول: نحن نتبع ماكان عليه السلف، وينتقي ما يروق له أن يؤوله من ذلك قائلاً: لا يصلح المعنى إلا بالتأويل.

ونحن نقول: إننا نجنح إلى ماكان عليه السلف دون انتقاء. ومادامت الحقيقة ممكنة فالتأويل تمحّل. وإنما تمتنع الحقيقة بسبب إلحاق الكيفية بها، والكيف في الصفات الإلهية كلها غير معقول، إذن فلا داعي إلى التأويل.

على أن الذين أوّلوا القرب في قوله تعالى:﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وأوّلوا المعية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُمْ﴾ بمعنى العلم: نسبوا بذلك إلى بيان ا لله تكراراً يتسامى عنه المعهود من كلام العرب، فكيف بالمعجز من كلام ا لله عز وجل.

فلقد صرّح البيان الإلهي في أماكن كثيرة أن ا لله يعلم حال كل إنسان ويعلم سرّه وجهره. وذلك في مثل قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٣]، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٢٥]. فإن ذهبت تؤوّل القرب في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ بهذا العلم ذاته، وتؤوّل المعية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُمْ﴾ بالمعنى ذاته، فقد حملت القرآن بذلك حملاً على تكرار متكلف لامبرر له، وأعرضت عن التأسيس الذي هو الأصل في الكلام، لتستعيض عنه بالتكرار الذي لاداعي له، وهو ما يتنزه عنه بيان ا لله عز وجل.

لذا فإننا نجزم بأن البيان الإلهي يقرر أن ا لله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وينبغي أن نعلم هذا ونستيقنه دون أن نقيده بأي كيفية مما هو من شأن المخلوقات كالتحيز والحلول واحتواء المكان.. كذلك

نجزم بالمعنى الحقيقي لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُمْ﴾ دون أن نفرغ في هذه المعية المعنى الذي هو من شأن المخلوقات. إنها معية وقرب كما قال الله تعالى بدون كيف[١]..

ومن المهم أن نعلم أننا نضطر إلى تأويل آيات الصفات عندما نقرنها في أذهاننا بالكيفية التي تقفز إلى أذهاننا عندما نتحدث عن صفات المخلوقين. ولكنا عندما نتذكر أن الله منزه عن الكيفية من حيث هي، نعلم عندئذ أن لاحاجة إلى التأويل، تنسب إلى الله عز وجل كل ماقد نسبه إلى ذاته العلية من صفات الأفعال وصفات الذات، بمعناها الحقيقي الذي أراده الله عز وجل دون أي تكييف

---

(١) انظر ماكتبه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كل من الإمام الطبري والإمام النيسابوري. راجع تفسير الطبري وبهامشه تفسير النيسابوري ط الميمنية ٢٥/٨٩-٩٠ و٩٦، وانظر تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٧/٩ ط دار الكتب. ومن الغريب أن الحافظ ابن كثير رجح في تفسير القرب في هذه الآية أنه قرب الملائكة من الإنسان لا قرب الله عز وجل مستدلاً على ذلك بأن الآية جاءت بضمير الجمع: ((ونحن..)) لابضمير المفرد ((أنا..)) ولم يصوب الرأي القائل بتأويل قرب الذات، بمعنى علمه سبحانه وتعالى.

أقول: بناء على الدليل الذي استند إليه الحافظ ابن كثير رحمه الله في تأويله قرب الذات بقرب الملائكة، وهو التعبير بضمير الجمع (نحن) ينبغي إذن أن يجنح إلى الرأي ذاته في كل مانسبه الله تعالى إلى ذاته بضمير الجمع، فيكون معنى قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ولقد خلقت الملائكة السموات والأرض ومابينهما... ولم يمسها لغوب، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنا الْمَصِيرُ﴾ إن الملائكة تحيي وتميت وإليها المصير.

ولاشك أن الحافظ ابن كثير لايقول بهذا التفسير الباطل، إذن فضمير الجمع أو المفرد لايلعب أي دور في تفسير معنى القرب، ومن المعلوم أن ضمير الجماعة كما يأتي للجماعة يأتي أيضاً للفرد على وجه التعظيم والتبجيل.

يزجنا في تناقض مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

فإذا تبين هذا، وعلمنا أن الله أقرب إلى الإنسان من كل شيء، القرب الذي لايستلزم تحيزاً في مكان ولا انحصاراً في جهة ولا أي كيفية مما يلازم المخلوقات، فقل لي: كيف يتصور أن يحجبه عن الإنسان شيء؟.. إن من شرط هذا الشيء ليحجبك عنه أن يكون الشيء أقرب إليك منه. وليس في أشياء الكون كلها ما هو أقرب إليك منه، أي من الله عز وجل.

رب قائل يناقش فيقول: ألسنا نستعين بالعقل لمعرفة الله والإيمان به؟ ونقول له في الجواب: بلى.

من حقه أن يقول إذن: فالعقل أقرب إليّ إذن من الله عز وجل، لأن الدليل الذي أستعين به لابدّ أن يكون أقرب إليّ من المدلول، وإلا لما صح أن يكون دليلاً. فما الجواب؟

الجواب هو أن العقل الذي تستدل به على الله تعالى إنما هو نور يقذفه الله في كيانك، ويعكس منه ماشاء على حجيرات دماغك، وقد أوضحنا هذه الحقيقة من قبل... وهذا من بعض مايعنيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٠] إذن فأنت بالله تستدل على الله، ولكن من حيث لا تشعر.

إذن فقد عدنا إلى الحقيقة التي لاريب فيها، وهي أنه ليس في المكونات كلها ماهو أقرب إليك من الله.

* * *

ثم يقول ابن عطاء الله في نهاية أسئلته الإنكارية ((**كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود كل شيء**)).

سبق أن قلنا وأوضحنا أن وجود الله هو الوجود الذاتي المطلق، أما الموجودات الأخرى فإنما انبعثت من العدم بإيجاد الله لها، وقلنا إن من أوضح الأدلة العلمية على ذلك أن الموجودات الكونية على اختلافها كلٌّ منها فقير بحدّ ذاته إلى الموجد، لذا فمهما تفرع بعضها عن بعض. فإن مجموعة هذه السلسلة المتوالدة بعضها من بعض، مفتقرة إلى ذي وجود ذاتي مطلق يبث فيها الوجود، بل يرعى أيضاً وجودها على الدوام.

ومن أنكر هذا الدليل العلمي البدهي، وادعى أن سلسلة الموجودات التي تفتقر كل حلقة منها إلى التي قبلها، متوالدة من بعضها بدون بداية وإلى غير نهاية، وبدون حاجة إلى موجد ذي وجود ذاتي مطلق، لابد أن يدعي أيضاً أن سلسلة أصفار طويلة غير متناهية تساوي قيمة مالية مّا!.. ولاشك أنها دعوى باطلة بالبداهة، لأن الصفر لا يحمل في داخله أي قيمة رقمية أو رياضية، وإنما هو يكتسب القيمة من رقم ذاتي يكون عن يساره، فمهما تراصفت الأصفار الكثيرة التي لانهاية لها، فإن كثرتها لاتستولد لها أي قيمة إلى أن تضع رقماً ذاتياً كالواحد أو الأربعة مثلاً، عن يسارها. فعندئذ تسري القوة من هذا الرقم الذاتي إلى الأصفار الفقيرة، متجاوزة من الواحد إلى الذي يليه فالذي يليه وهكذا إلى نهاية الأصفار.

فمن ذا الذي يجهل أن سلسلة المكونات التي يتوالد بعضها من بعض، إن هي إلا كهذه الأصفار تماماً، تظل خيالاً بل وهماً لاوجود

له، في يقين العقل وقراره، إلى أن يبرز على ساحة العقل الكائن الذي يتمتع بوجود ذاتي ينبثق وجوده من ذاته ولايفد إليه فيضاً من غيره. وعندئذ يؤمن العقل بأن وجود سلسلة المكونات حقيقة لا وهم أو خيال.. وهذا الكائن الذي يتمتع بالوجود الذاتي المطلق إنما هو الله عز وجل. فهو الشرط الذي لابدّ منه ليقين العقل بوجود هذه السلسلة المتوالدة من المكونات. أي إن من أنكر وجوده، فلا بد أن ينكر أيضاً وجود هذه المكونات ولا بد أن يجزم بأنها مجرد أخيلة وأوهام.

فإذا تذكرنا هذه الحقيقة التي سبق أن أوضحناها وزدناها الآن بياناً ووضوحاً، علمنا أن هذه المكونات كلها من آثار وجود المكوّن عز وجلّ. وهل في العقلاء من يزعم أن الأثر يمكن أن يكون حجاباً عن رؤية المؤثر؟

هل في العقلاء من يزعم أن أشعة الشمس تشكل حجاباً يقصي العقل عن الإيمان بوجود الشمس، أو هل فيهم من يزعم أن الشبع حجاب ينسي العقل وجود الطعام، أو أن الشفاء يحجب صاحبه عن الإيمان بما قد استعمله قبل ذلك من دواء؟

ألم يقل ذلك الأعرابي، اعتماداً على فطرته العقلية وحدها: البعرة تدل على البعير، وأقدام السير تدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على العليم الخبير؟

فإذا كان الكون كله أثراً لوجود المبدع والصانع، فمن أين يأتي الحجاب الذي يقصي العقل ويحجبه عن رؤية الله وشهوده؟

* * *

والآن، تأمل في **الخاتمة** التي ينهي بها ابن عطاء الله حكمته هذه. يقول: ((**ياعجباً كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم**)).

إنه بعد تلك الطوفة الطويلة من الأسئلة الإنكارية، التي لاتترك لمرتاب في وجود الله ووحدانيته عذراً، يلتفت في عجب لاينتهي إلى التائهين عن وجود الله، الغارقين في ظلمات تأليههم لكل من عدا الله، المحجوبين عن رؤية الله بدون حجاب، فيقول: ياعجباً كيف يظهر الوجود في العدم!.. أي لقد عرفت من كل مامضى ذكره وبيانه، إن هذه المكونات كلها في حكم المعدوم الذي لا وجود له. إذ إن وجودها ابتداء ودواماً إنما هو با لله عز وجل، فهي مسبوقة بعدم وآيلة إلى عدم. فالوجود الذي تتمتع به إنما هو في الحقيقة وجود الله، أي وجود من أوجدها ثم جعل من رعايته الدائمة لها سنداً لاستمرار وجودها، فهل هو إلا كوجود الظل التابع لأصله؟ ومن الذي يعقل ثم يزعم أن الظل له وجود من ذاته؟!

فإذا ثبت هذا وتبين لنا أن هذه المكونات إذن في حكم المعدوم، فالعجب كل العجب ممن يتيه عن وجود الموجود ذي الوجود الذاتي الحقيقي، ثم يضفي صفة الوجود الحقيقي على هذا الذي هو في حكم المعدوم!.. يسبح بحمد وجود الظل الذي ليس له أي وجود ذاتي، وينكر وجود الشاخص الذي انبثق منه الظل وامتد منه وجود وهمي خيالي!!..

ثم يبدي ابن عطاء الله عجبه الآخر، فيقول: ((أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم))؟

الحادث هو الذي كان معدوماً ثم وجد، وإنما أوجده القديم الذي لا أول له، وهو الله عز وجل، وهذا يعني أن الحادث موجود بالله عز وجل، لا مع الله عز وجل، إذ المعية تستلزم النِدِّيَّة التي تعني التلاقي والتساوي على صعيد واحد.

أليس من العجيب إذن أن يكون في العقلاء من ينظر إلى الحادث على أنه ذو وجود ذاتي مستقل بنفسه، تماماً كوجود من قد ثبت له وصف القدم وهو الله عز وجل!!..

أقول: ولكن العجب يزول إن عدنا إلى الحكمة السابقة التي تم شرحها وهي قوله رحمه الله: ((**مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس موجوداً معه**)).

فعلى الرغم من أن كل ماقد ذكره هنا ابن عطاء الله حق لا مِرْيَةَ فيه، مما عبر عنه بقوله: كيف يتصور أن يحجبه شيء.. إلخ. إلا أن القهر الإلهي يجعل من اللاشيء شيئاً ومن العدم حجاباً عنه، إذا حاق غضبه بالعبد، وإنما يحيق غضبه بالعتاة والمستكبرين، تبقى لهم عقولهم، ولكنهم لايستفيدون منها شيئاً، ويتمتعون بأعينهم التي تتحرك في محاجرها، ولكنهم لا يرون بها شيئاً. أولئك هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بها أُولَئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧].

فإذا عوفي الإنسان من حجاب كبره وعناده والركون إلى عصبيته، وأخذ نفسه بزاد دائم من ذكر الله عز وجل، لم يجد بينه وبين الله أي

حجاب يصدّه عن معرفته وشهوده، بل إنه لايرى المكوَّنات على اختلافها إلا سطوراً هادية إلى الله، وآيات تنطق بباهر صفات الله.. وكلما ازداد تقرباً إلى الله بالأذكار والطاعات، ازداد شهوداً لله عز وجل بعين بصيرته، إلى أن يرقى إلى ما سماه رسول الله ﷺ بالإحسان. وعبر عنه الربانيون بوحدة الشهود.. إذ يرى المكونات ويؤمن بوجودها، ولكنه لايرى فيها إلا المكوِّن عز وجل.

ولايقوى الخيال ولا البيان على التعبير عن النشوة التي يشعر بها أصحاب هذا الشهود!.. وحسبك أن تعلم أن شيئاً ما من المشاغل الدنيوية إذا ألمت أو طافت بهم (وهم معرّضون لذلك ماداموا بشراً من الناس) خُيِّل إليهم أنهم قد زُجّ بهم من تلك الحالة في سجن، واعترتهم من ذلك وحشة وأيّ وحشة.

وكم كان الواحد منهم يردد، تعبيراً عن تلك النشوة، وخوفاً من هذه الوحشة قول القائل:

فما عذابي إلا حجابي ... وما نعيمي إلاّ وصالي

اللهم لاتقطعنا عنك بقواطع الذنوب ولابقبائح العيوب، يامن عليه العسير يسير، واهدنا اللهم واهدِ بنا إلى سواء صراطك المستقيم، واختم حياتنا بأحب الأعمال إليك، حتى نلقاك وأنت راض عنا، يارب العالمين.

* * *

الحكمة السابعة عشرة

((ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ماأظهره الله فيه))

الوقت هو المجال الزمني الذي قضى الله تعالى أن تظهر فيه أنشطة الناس وأعمالهم.

وقد خاطب الله تعالى الناس جميعاً بأوامره ووصاياه التي كلفهم بها مع النواهي عن المفاسد التي حذرهم من الوقوع فيها. فذلك هو الجامع المشترك الذي يجب أن يلتقي عليه الناس جميعاً في كل زمان وفي كل مكان.

ثم إنه تركهم جميعاً لاختياراتهم فيما يفضلونه من الوظائف والصناعات والتجارات والعلوم والمعارف الكثيرة المتنوعة، ويسّر لكل منهم الأنشطة والأعمال التي شاء الله أن يوجهه إليها وأن يلهمه إياها.

إذن، فذلك هو الجامع المشترك الذي أوصاهم به، وهذه هي سبل المعايش المتنوعة التي حبب إلى كل منهم ماشاءه منها.

ولله عز وجل في توزيع هذه الأنشطة والوظائف على عباده، أو توزيعهم عليها، حكمة باهرة لاتخفى على عاقل.. فإن الأرض التي أنشأنا الله عليها، وأقام لنا فيها مفاتيح المعايش وأسباب الحياة الرغيدة، لابدّ من عمارتها بالمعنى المادي والحضاري، ولا تتم عمارتها إلا باستعمال مفاتيح المعايش واستخدام أسباب رغد الحياة.. وكل

ذلك لا يتم إلا بانصراف كل الناس إلى كل المفاتيح والأسباب التي تحقق لهم معايشهم وتبني لهم مجتمعاتهم، وإنما يكون ذلك بأن يتقاسموا فيما بينهم أنواع الوظائف والأنشطة والأعمال التي بها تتحقق عمارة الأرض. فكان من لطف الله وعظيم إحسانه، أن قسم بينهم هذه الأنشطة والوظائف بسائق من الإلهام والرغبة وانشراح الصدر، ولم يدفع كلاً منهم إلى ماشاء له منها بدافع الجبر والإلزام.

إذن، فهو أمر شرعي وديني مقبول، أن تنظر فتجد الناس قد توازعتهم الأعمال والأنشطة المتنوعة، هؤلاء حببت إليهم الأعمال التجارية فهم منصرفون إليها، والفئة الأخرى طاب لها الاتجاه إلى الصناعة وفنونها فهي ماضية منهمكة في هذا السبيل.. وفئة ثالثة لاتبغي عن الفلاحة والزراعة وأعمال الأرض بديلاً.. وأخرى تجنح إلى العلوم الكونية والاستزادة منها والتعمق فيها.. إلى جانب فئة أعرضت عن ذلك كله واتجهت إلى الأعمال الإدارية والخدمات السياسية.

أجل.. إنه أمر ديني مشروع أن تجد الناس في أي مجتمع من المجتمعات قد توازعتهم هذه الوظائف والأعمال المختلفة، على أن ينطلقوا إليها بعد الالتقاء والاجتماع على جامع مشترك فيما بينهم. وهو الاستجابة لتعاليم الله: أوامره، نواهيه، وصاياه، والتحقق بهوياتهم عبيداً مملوكين لله، والدوام جهد الاستطاعة على مراقبة الله عز وجل.

فإذا جاء، مع ذلك، من ينكر على الناس الانكباب على هذه الوظائف والأعمال، بحجة أنها مشاغل دنيوية تبعد الإنسان عن الله

وتشغله بالدنيا عن الدين، فإنه من الجهالة بمكان كما قال ابن عطاء الله.

أمْرٌ أقام الله منه نظاماً لحياة عباده، ثم ملأ بهذا النظام أوقاتهم، ما الذي يغريك باقتلاع هذا النظام وبالاندفاع إلى غرس وظائف وأعمال أخرى في أوقاتهم وأعمارهم التي متعهم الله بها سوى الجهل بحكمة الله وسننه التي أقامها على الأرض في عباده؟!

وإنما يستقي ابن عطاء الله هذا من سيرة الصحابة إذ كان رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، فقد كان فيهم من يشهد مع رسول الله صلاة الفجر، حتى إذا كان وقت الضحوة الكبرى ذهب غائباً إلى أرض له يفلحها ويزرعها وذلك هو شأنه دائماً، وكان فيهم من ينصرف بياض نهاره إلى صناعة تعلق بها فأتقنها فكان ذلك شأنه، وكان فيهم من يقبل على التجارة ويجدّ ويكدّ في أعمالها، وكان فيهم من ينقطع عن الدنيا فيلازم رسول الله في كل شؤونه وتقلباته ليسمع منه فيحفظ عنه، أو لينقطع للأذكار والعبادات في المسجد كأهل الصفة، ولم يكن رسول الله ﷺ ينكر على أيّ منهم شأنه وعمله الذي اختاره لنفسه.

إذ كان كلهم ينطلقون إلى أعمالهم المتنوعة تلك من جامع مشترك هو أداء حقوق الله، والالتزام بما يأمرهم ويوصيهم به رسول الله، والتشبع بمعرفة أحكام الله وشرائعه، والإكثار من ذكر الله ومراقبته، فلاجرم أن أعمالهم المتنوعة التي كانوا يتفرقون إليها، كانت مصبوغة هي الأخرى بصبغة الإقبال على الله والتقرب إليه والتطلع إلى مرضاته.

ولكن المشكلة تتمثل في حال من يتجهون إلى هذه الوظائف والأعمال الدنيوية المتنوعة، دون أن ينطلقوا إليها من هذا الجامع

المشترك الذي لابدّ منه، والذي من شأنه أن يسبغ على الأنشطة الدنيوية معنى الدين ويسكب فيها روحه وحقيقته.

وليس حديث ابن عطاء الله في هذه الحكمة عن هؤلاء الناس الذين استبدلوا الدنيا بالدين فحق عليهم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩/٢٤].

وإنما حديثه عن التنوع الذي لابدّ منه في الوظائف والأعمال تحت سلطان الدين وحكمه، وبقصدٍ يهدف إلى مرضاة الله وتنفيذ أمره. فهو كقوله في **الحكمة الأخرى** التي مرّ ذكرها: ((**تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال**)).

غير أن هذا التنوع لابدّ أن يكون مردّه إلى تنفيذ الوصية التي خاطب بها عباده إذ قال لهم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١١/٦١] فتكون عندئذ هذه الأنشطة والأعمال المتنوعة جزءاً أساسياً داخلاً في قوام الدين، ولا يتحقق ذلك إلا بجامع مشترك من الطاعات والقربات والأذكار والالتزام بوصايا الله وأحكامه، ينطلق منه أصحاب تلك الأنشطة المتنوعة والوظائف الدنيوية المختلفة.

وأعود فأقول: إن المشكلة تكمن في أن جُلَّ الذين ينصرفون إلى وظائفهم وأعمالهم الدنيوية المختلفة قد انْبَتَّتْ حياتهم من الجذع الجامع لكل تلك الفروع والأعمال المتنوعة، وعادت أنشطتهم مفصولة

عن قيادة الدين وحكمه، فحيل بينهم وبين الرجوع إلى أداء ما عليهم من حقوق لله عز وجل، وأسكرتهم الدنيا التي غرقوا في حمأتها عن الوقوف أمام مرآة الذات ليتبينوا أنهم عبيد أذلاء مملوكون لله.. ولم تترك لهم مشاغل الدنيا أي بقية من الوقت يجلسون فيها إلى مجلس ذكر أو حلقة علم!..

إنني أُدْعى بين الحين والآخر إلى حفلات عقود وحفلات زفاف ونحوها.. فأستجيب للداعين إن أتيح لي ذلك.. وأتأمل في أمر هؤلاء الذين أُلْزِمُ نفسي بالاستجابة لدعوتهم، وجُلُّهُمْ من رجال الأعمال ومن ذوي الأنشطة الدنيوية المتنوعة التي نتحدث عنها، فلا أكاد أذكر أنني قد رأيت أياً منهم، في شيء من حلقات الدروس التي أقامني الله عليها منذ سنوات!..

ولكم سألت نفسي، في ألم وحزن، لماذا يدعونني هؤلاء الناس إلى حفلاتهم وأفراحهم فأستجيب، ويدعوهم الله إلى حلقات ذكر أو علم يقرّب إلى الله فلا يستجيبون؟!..

ثم إني أعلنت لهم هذا السؤال جهراً في كلمات ألقيتها في بعض تلك الحفلات، قلت لهم: حفلات أفراحكم تدعونني إليها فأستجيب، وحفلات الدروس العلمية التي تقام في المساجد، أدعوكم إليها بل يدعوكم إليها الله عز وجل، فلاتستجيبون!!..

لماذا تقتصر حلقات الذكر والدروس العلمية والإرشادية في المساجد على فئة الشباب الذين هم الكثرة الكبرى فيها، وعلى الطبقة الوسطى فمن دونها من الناس، دون أن تجد فيها وجهاً لرجل أعمال.. لقائم على صناعة.. لمدير شركة.. لذي تجارة مرموقة..؟!..

هذا مع العلم بأن أصحاب هذه الوجوه أحوج إلى هذه المجالس التي تذكر بالله، وتنمي في القلب محبة الله وتعظيمه والخوف منه، وتغذي العقل بمزيد من المعارف والثقافة الإسلامية، أقول: إن أصحاب هذه الوجوه أحوج إلى هذه المجالس من سائر الفئات الأخرى التي تغشى بحمد الله هذه المجالس.

ذلك لأن عواصف الأهواء والمتع والشواغل الدنيوية إنما تتجه بأخطارها إلى هؤلاء الذين يتقلبون في غمار الدنيا ويَسْبَحون في أغوارها، فتبتليهم أولاً بقسوة القلب، ثم تزجهم في النسيان.. نسيان الضوابط والأحكام التي شرعها الله، ونسيان المآل الذي لابدّ أن يصير إليه كل إنسان، ونسيان الوظيفة التي ابتلى الله الإنسان بها، وكلفه القيام بها.

ولذا فإن هذه الفئة من الناس هي أحوجهم جميعاً إلى أن تنعش نفسها بمجالس الإيمان وحلقات العلم والتذكرة.. إذ هي التي تجهزها بالكوابح التي تقيها خطر الاستسلام لتلك التيارات العاصفة.. ثم هي التي تمتعها بالجامع المشترك الذي لابدّ منه، منطلقاً إلى تلك الأنشطة والأعمال الدنيوية المختلفة.

ليس في دين الله عز وجل ما يمنع المسلمين من أن ينشطوا في بناء المجتمع الإنساني وترسيخ الدعائم الحضارية في جنباته، بل هذا هو واجبهم الذي خاطبهم الله به.

وهذا مانهض به الرعيل الأول في صدر الإسلام كما أوضحت مفصلاً في أوائل كتابي (السلفية). ولكن على أن ينطلقوا جميعاً إلى

هذه الأنشطة المتنوعة من الجامع المشترك الذي لابدّ منه، ألا وهو الوقوف على مرآة الذات والتشبع بمعرفة الهوية الإنسانية، ثم معرفة حق الله عز وجل على العبد والعمل الجاد على أدائه، مع الانضباط بجميع الأوامر والوصايا التي شرف الله بها الإنسان إذ خاطبه وكلفه بها.

هذه الأنشطة الحضارية الدنيوية المتنوعة، ومثلها الأعمال والسلوكات الدينية الكثيرة هي التي **يتحدث عنها ابن عطاء الله في حكمته هذه**، عندما يقول: ((**ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ماأظهره الله فيه**)).

فإذا كان المنتقد للوظائف الدنيوية التي أقام الله عليها طائفة من عباده، لم يترك من الجهل شيئاً، فما بالك بحال من يتجه بالنقد إلى ما لا يروق له من السلوكات والأعمال الدينية؟

كثيرون هم الذين يتخذون من أمزجتهم مقاييس لما هو مقبول وغير مقبول من المظاهر والسلوكات الدينية.. ولعل هؤلاء هم في مقدمة من لم يتركوا من الجهل شيئاً إلا تلبسوا به وركنوا إليه، على حدّ تعبير ابن عطاء الله.

۞ هنالك مجالس تعقد بعد صلاة الفجر من أيام محددة في كل أسبوع، للصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ، في بلدتنا هذه، دمشق.. وظيفة أقام الله عليها طائفة من عباده الصالحين، وأَعْظِمْ بها من وظيفة.. كثيرون هم الذين يضيقون ذرعاً بها، ويستخفّون بها عند الحديث عنها، ويجزمون بأن لقاء فكرياً تتم فيه مناقشة إحدى

مشكلات العالم الإسلامي خير وأجدى من الوقت الذي يتبدد بما يسمّى مجالس الصلاة على رسول الله!..

وأنا واحد ممن يعلم علم اليقين أن كثيراً من المصائب والمحن تدنو، بل تطوف بهذه البلدة، ثم إن الله يصرفها عنها بفضل هذه المجالس وما تفيض به من خير، ومايجتمع فيها من الصالحين.

۞ لاتخلو مجتمعاتنا، ككثير من المجتمعات الأخرى، ممن يسمون ((الدراويش)) لا يأبه بهم الناظر وليس فيهم ما يلفت إليهم النظر بأي تقدير، تبدو عليهم سمة البطالة، أطمارهم بالية، ودرايتهم بسيطة... ما أكثر الذين يطيلون ألسنتهم في حقهم نقداً وتجريحاً واستهزاءً!... يقول أحدهم في هياج وازدراء: ليس في ديننا دروشة، إسلامنا إسلام عمل ونشاط ومظهر مرتب جذاب يأخذ بالألباب.. ثم يصرّ إصراره على أن هؤلاء يرسمون صورة شوهاء تخفي السيما الرائعة المشرقة لواقع المسلمين.. وربما استشهد في هياجه هذا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان يعلو بدرّته رؤوس أناس عاطلين، أشدّاء، قد لازموا المسجد لا يبارحونه، يقودهم إلى السوق قائلاً: قد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولافضة.

ووجه الخطأ في هذا الاستنكار أن هؤلاء ينطلقون إلى استنكارهم من مشاعر ومواقف مزاجية، لا من تحكيم لشرع الله وحكمه.

وموازين الشرع تقول: إذا تبين أن هؤلاء الناس يتكلفون (الدروشة) ديدناً لهم، ويؤثرون البطالة لكسل ران عليهم أو لهوى في نفوسهم، فإنها إذن معصية يجب إنكارها والعمل على زوالها، ومن هذا القبيل ماكان يفعله عمر.

أما إن تبين أن حالاً انتابتهم فزجتهم دون قصد ولا تكلف منهم في تيه عن الدنيا وشؤونها، وألبستهم مظهر هذه (الدروشة) وتركتهم دون وعي منهم لثيابهم الرثة وأطمارهم البالية، فلتعلم إذن أن هؤلاء ربما كانوا ممن قال عنهم رسول الله ﷺ: ((رُبَّ أشعثَ أغبرْ ذي طمرين بالبين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه))[1] بل أغلب الظن أنه منهم.

فإن غابت عنك الدلائل و لم تتبين من أي الفريقين هو، فحسن الظن هو المطلوب في ميزان الشرع وحكمه، وهو مقتضى الحيطة في الأمر. لا سيما إذا تذكرت أن في الناس أناساً هم من خلّص عباد الله، لو أقسموا على الله لأبرّ قسمهم كما قال رسول الله، قضى الله لحكمة أن يخفيهم عن عامة الناس بحجاب من هذه الصورة التي تزدريها أعين المتسرعين والمزاجيين من الناس. أقامهم الله من حياتهم وفي مجتمعاتهم على وظائف ذات أهمية كبرى، لايعلمها إلا الله ومن هم على شاكلتهم[2].

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة من رواية مسلم، وأحمد، والحاكم، والبزار.

(٢) من الصالحين من أصحاب هذه الوظائف الأبدال، والأحاديث الواردة في حقهم كثيرة جداً وذات طرق متعددة، وأسانيد أكثرها صحيحة أذكر منها:

- ماورواه الإمام أحمد من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: ((الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً غيره)).

- ماورواه الطبراني عن عبادة بن الصامت أيضاً مرفوعاً بلفظ: ((الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون)).

- ماورواه الطبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعاً بلفظ: ((الأبدال في أهل الشام بهم ينصرون وبهم يرزقون)).

- ماورواه الإمام أحمد من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً: ((الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)).

وأقول لمن يكثر من الاستشهاد بعمل عمر بن الخطاب، لتأييد موقفه المزاجي: كن في الإشراف على حال المسلمين والاطلاع على أحوالهم ودخائلهم مثل عمر الذي كان يعلم عوامل الكسل والبطالة من حال أولئك الذين كان ينتهرهم ويقودهم إلى السوق، ثم لك أن تقلده وتسلك مسلكه في ذلك.

أما أن تتخذ موقفه في حق من لا تعلم شيئاً عن أحوالهم ودخائل أمورهم، فهو لا يتفق مع ميزان الشرع، ومن ثم فإن عمر بريء إلى الله منه.

* * *

وصفوة القول إن عليك أن تعلم أن الله تعالى أقام عباده على وظائف قسمهم بينها أو قسمها بينهم. فيها ما هو بيّن معلوم، وفيها ما هو خفي وغير مفهوم.

وظيفتك تجاهها أن ترعى الشرع وأحكامه، فإن لم تجد بعد التبصر ودقة النظر، ما يخالف متفقاً عليه من مبادئ الشرع وأحكامه، فألجم فمك عن قالة السوء بحق عباد الله مهما استغربت أحوالهم وعجزت عن فهم شؤونهم، ووجّه فؤادك إلى حسن الظن بهم، فذاك هو الأمثل والأليق بواجب الأدب مع عباد الله.

واعلم أن في عباد الله الصالحين من أخضعهم الله لأحوال لاخيار لهم تجاهها ولاسبيل أمامهم للتخلص منها.. فسلّم إليهم أحوالهم، دون أن تلزم نفسك بما لم يلزمك الله به من ذلك.

قلت مرة لواحد من أصحاب هذه الأحوال، وقد رأيت الكثير من دلائل صلاحه وصدقه: ادع الله لي أن أكون مثلك، فقال لي: وماحاجتك إلى ذلك، إن الناس عندئذ لن يستفيدوا ولن يفهموا منك شيئاً.

فتأمل في معنى كلامه هذا، إنه يقول لي: لكل منا وظيفة أقامه الله عليها، أما أنا فوظيفتي ما ترى من الحال التي أنا فيها، وأما أنت فوظيفتك أن تخاطب الناس وتحاورهم بما علمك الله.

* * *

الحكمة الثامنة عشرة

«إحالتك الأعمال على وجود الفراغ؛ من رعونات النفس»

أولاً: يجب أن نعلم أن «**الأعمال**» التي يعنيها ابن عطاء الله هنا هي الوظائف والأوامر الدينية.

ثانياً: إن المعنى الذي تتضمنه هذه الحكمة معروف ومألوف، غير أنه يغيب مع ذلك عن كثير من الأذهان، لدى التوجه إلى الوظائف والأعمال الدينية. ومن ثم فقد كان هذا المعنى بحاجة إلى دراسة وشرح كما أن الناس بحاجة إلى التنبيه إلى أهمية هذا المعنى، وإلى خطورة الإعراض عنه والاستهانة به. ونبدأ ببيان ذلك بشيء من التفصيل:

يقول أحدهم، وقد انهمك في مشروعه التجاري، لمن يذكّره بأوامر الله، والارتباط بمجلس من مجالس العلم، أو التقيد بمنهاج دراسي خفيف يتعلم من خلاله عقائد الإسلام وأحكامه، يقول له:

إنني قد وضعت هذا الذي تقول في برنامج أعمالي، وأدرجته في سلّم وظائفي، لكنني أنتظر الفراغ من مشروعي التجاري هذا الذي ملك عليّ سائر أوقاتي.. إنني مضطر أن أوليه الآن كل وقتي وجهدي لأنني إن لم أفعل ذلك، فلسوف تفوتني الفرصة بدون ريب؟..

وتقول لأحدهم: إن الله قد أكرمك بالمال الوفير، ومتعك ببحبوحة من العيش، فهلاّ عدت بشيء من فضول أموالك إلى هؤلاء المحتاجين الذين من حولك. فيجيب: ومن قال لك إني ذاهل عنهم أو أنني ناسٍ لواجبي تجاههم؟ إنني قد قررت، إذا نجح مشروعي التجاري هذا الذي أنا منهمك فيه الآن، بناء مستوصف للفقراء، بناء مشفى، سأعود بعشرين في المئة من ريع مشروعي هذا إلى الأسر الفقيرة لاسيما الشباب المحتاجين إلى الزواج.. سأفعل.. وسأتصدق.. أَنْظِرْني فقط إلى ظهور نتائج المشروع!..

وتتجه إلى طائفة الموظفين، وذوي الرتب العسكرية في القطعات والمعسكرات، فتذكرهم بحقوق الله عز وجل، والوظيفة العظمى التي خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له ما في السماوات والأرض خادماً له على طريق أدائها، من الإقبال على معرفة العقائد الإيمانية أولاً، والالتزام بأوامر الله السلوكية ثانياً، فيقول لك أحدهم، وهو يشعرك بأنه يتبوأ وظيفة حساسة، تتجه إليها أنظار الرقباء:

بيني وبين الوصول إلى التقاعد خمس سنوات، ولا أخفيك أنني سأتجه فور تقاعدي حاجاً إلى بيت الله الحرام، ولسوف تجدني بعد ذلك في أول صف في المسجد عند كل صلاة. ولا أخفيك أنني شديد الرغبة في دراسة القرآن والعكوف على فهمه وتفسيره.. سأضع منهاجاً لدراسة الإسلام وأحكامه.

فإن قلت له: فما الذي يمنعك من أن تباشر ذلك من الآن؟ حدّق في عينيك مشيراً، ثم مصرحاً إن لم تفهم، بأنه يمارس وظيفة حساسة ويتبوأ مركزاً يلفت الأنظار.

* * *

ما الذي يقال لهؤلاء المستعجلين في أمور معاشهم التي ضمنها الله لهم، والمسوّفين لواجباتهم الربانية التي كلفهم الله بها؟

نقول ما قاله ابن عطاء الله: إنها رعونة من رعونات النفس.

ولكنا نبدأ فنسأله قبل أن نواجهه بهذه الحقيقة: ما المهمة التي خلقك الله من أجلها؟ لعله لا يعلم الجواب، ولعله لم يصغِ في يوم من الأيام إلى حديث الله عن مهمة الإنسان ووظيفته التي خلق من أجلها. إذن نضعه أمام قول الله تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦-٥٧]. ونضعه أمام قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤] وأمام قوله تعالى: ﴿.. قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦].

إذن فالمطلوب من الإنسان الذي قضى الله أن يكون له نصيب من الحياة فوق هذه الأرض، أن يعرف ربه من خلال معرفته لنفسه عبداً مملوكاً له، ثم أن يصغي إلى الوصايا والأوامر والنواهي التي خاطبه الله بها، فينهض بها وينفذها على الوجه المطلوب.

ثم إن الله ضمن للإنسان في مقابل ذلك حاجاته وأسباب طمأنينته ورغد عيشه وسخر لمصلحته سائر المكونات التي حوله، كما قد قال له ممثَّلاً في شخص آدم عليه السلام إذ خاطبه وهو في الجنة بما حكاه لنا في محكم كتابه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيها وَلا تَضْحَى﴾ [طه: ٢٠/١١٨-١١٩].

وإليك هذا المثال الذي يقرب إليك هذه الحقيقة، وما أكثر الناس التائهين عنها:

موظف أرسله رئيس الدولة إلى بلدة في دولة نائية، ليقوم بمهمة محدودة كلَّفه بها. من الطبيعي أن يكلِّف سفير هذه الدولة باستقباله لدى وصوله إلى تلك البلدة، وأن تهيّأ له فيها إقامة كريمة، وأن توفّر له أسباب الراحة على اختلافها، إلى جانب العلاوات المالية التي تقدم إليه.

ليس في الناس من يجهل أن الرجل إنما أوفد إلى تلك البلدة النائية ليستجيب لما قد كلفه به رئيس الدولة من القيام بالمهمة التي أوضحها له، على خير وجه، فتلك هي وظيفته التي يجب أن ينفق في سبيلها وقته طوال غيابه في ذلك المكان، وإنما توفر له ماتوفر من المال وأسباب الراحة والنعيم هناك، ليكون كله مسخراً وخادماً على طريق إنجازه للمهمة التي أوفد من أجلها.

فماذا تقول فيمن ركن إلى ذلك النعيم وأسبابه، وعانق تلك المتع واستنفد وقته كله في اعتصارها والتلذذ بها، ناسياً أو متناسياً الوظيفة التي أوفد إلى تلك الديار من أجلها، أو مسوفاً لواجباته تجاهها ريثما يروي ظمأه أو يشبع نهمه من أسباب النعيم التي أحيطت به؟!..

أقل مايقال عنه في ذلك إنه قد خان سيده ورئيسه فيما قد كلف به، وأنه استسلم لرعونات نفسه.

ألا فلتعلم أنها هي ذاتها قصة الإنسان الذي أوفد إلى هذه الحياة الدنيا لمهمة قدسية أنبأه الله بها وشرحها له في خطابه الذي شرفه

وكلمه به، ولكنه أعرض عنها ونسيها أو تناساها، واتجه بدلاً عنها إلى الدنيا التي سخرها الله له على طريق السير إلى أداء مهمته، فركن إليها، واستمتع بها، ورقص على إيقاعاتها، ونسي سيّده وأوامره. وفضله وإكرامه. التقط المغانم فعانقها، وأعرض عن المغارم والواجبات فنسيها أو استخف بها!!..

وفي أحسن الأحوال، يَعِدُ من يذكِّره بالوظائف التي يلاحقه الله بها في هذه الحياة، بأنه سيلتفت إليها ويهتم بها عندما يذوي شبابه وتتراجع غرائزه وتنطفئ جذوة نشاطه وتنكسر حدّة نهمه وإقباله. فيعاف بقايا لذائذه ونعيمه، ويمضي ثمالة عمره مقوس الظهر، معتمداً على عكاز، عندئذ سيقبل على الله، ويعطيه من نفسه ومن إمكاناته ماقد طلبه منه!!..

فهل بوسعك أن تتصور للحظة واحدة أن هذا هو شأن العبد المملوك مع ربه المالك؟ أم هل تتصور أن هذا هو شأن الإنسان الوفيّ مع سيده المنعم المتكرم المتفضل؟!..

أما الآن، فإليك تحليل هذه الرعونة التي يقع فيها هذا الشخص وأمثاله، من خلال بيان أبعادها التالية:

أولاً: من أين لهذا الإنسان أنه سيعيش إلى أن يفرغ من مشاريعه التجارية، أو من أحلامه التوسعية، أو إلى أن يتقاعد من وظيفته؟ ومن الذي أخبره، فصدّقه، أنه سيعيش إلى الأمد الذي يحلم به، وأن الموت لن يتخطفه بعد أيام أو بعد أسابيع؟

وأنت تعلم أن ا لله قضى بالموت على كل حيّ وأكـد للإنسـان أنـه لن يتخلص من عادية الموت مهما أمكنته الحيل ومهما تمكن من ناصيـة العلم واستكثر من نتائج قدراتـه، ولحكمـة بـاهرة عظيمـة أخفـى عنـه ميقات قضائه هـذا، فليـس في النـاس كلهـم مـن يعلـم أيـن يقـف مـن الطابور الممتد أمام باب الموت، أهو يقف في أوله أم في آخره، أم فيمـا بين طرفيه!..

وكم من إنسان مدّ جسوراً من الآمـال بينـه وبـين ظلمـات الغيـب الذي هو مقبل عليه، فلم يتح له أن يقطف من آمالـه تلـك إلا الحسـرة والأسى، فقد كان الموت المخبوء وراء أذنه أسرع إليـه مـن آمالـه الـتي كان ينسجها. وحاق به قول ا لله عز وجـل: ﴿يـا أَيُّهـا الإِنْسـانُ إِنَّـكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٨٤/٦].

ثانياً: لماذا يجعل هذا الإنسان التسويف من نصيب واجباته الأساسـية التي خلقه ا لله من أجلها، ولايجعله من نصيب أنشطته الدنيوية ورغباتـه المعيشية التي ضمنها ا لله تعالى له؟..

لمـاذا يلهـث وراء مجموعـة أعمـال ويتجـه إلى عـدة مشـاريع في آن واحد يمزق وقته بينها ويقضي على راحته في سبيلها كلهـا، فـإذا جـاء من ينصحه بأن يريح نفسه وأن لا يجمع على كيانه ركاماً من المشاريع والوظائف والمهام في وقت واحد، أجاب قائلاً: الواجبـات المعيشـية أو التجارية كثيرة، وكل منها مرهون بوقتـه، فـإن هـو أخـر واحـداً منهـا ريثما ينجز الذي قبله فاتته الفرصة وخسر الصفقة!..

فإن قلت له: ففيم الحـرص علـى الاستئثار بكـل هـذه المشـاريع أو الصفقات، وهلا اكتفيت بما قـد يغنيـك منهـا؟ أجـابك بـدرس طويـل

يعلمك من خلاله الطموح الذي لا يقف عند حدّ، ولا يعرف ما يسمى بمقياس الحاجة أو مقومات العيش الكريم.

قل له: ما الذي ذكّرك بهذا الطموح الذي تعتزّ به وتعلمنا إياه، عندما تكون بصدد ما قد ضمنه الله لك من أمور معاشك ودنياك، وما الذي أنساك هذا الطموح ذاته، وزجك في نقيضه من الكسل والإهمال، عندما تجد من يذكرك بالوظيفة التي طلبها الله منك وخلقك من أجلها؟

ثم ذكّره بحكمة أخرى لابن عطاء الله، يقول فيها: ((اجتهادك فيما ضُمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك)).

ثالثاً: إن الوظائف الدينية التي كلف الله الإنسان بها، ذات هدف معروف ومكرر في كتاب الله تعالى، ألا وهو التربية وتزكية النفس. ودور هذا الهدف يتمثل في تقيد الأنشطة والأعمال الدنيوية من تجارة وصناعة وزراعة، ووظائف أياً كانت، بقيود الأخلاق لكي تبعدها عن سبل الغش والخداع والختل والمكر بالآخرين.

وهذا يتوقف على أن يتمازج النشاط الدنيوي بأشكاله وأنواعه المختلفة بالوظائف الدينية التي تربي الفرد وتزكي النفس... إذ يغدو الالتزام بالوظائف والأوامر الدينية رقيباً على استقامة السلوك بصدد الأنشطة والالتزامات الدنيوية على اختلافها، فيتسامى كل من التاجر والصانع والزارع والعامل والموظف والعسكري، عن الخيانة والخداع والدجل في المعاملة، ويتفانى العامل والموظف والعسكري ورجل الأمن صدقاً وإخلاصاً في أداء المهمة.

أجل.. إن هذا الاشتباك المتمازج بين الدين والدنيا، هو الذي ييسر للدين أن يحقق مهمته في حياة الفرد والمجتمع، وهو الذي يبرز للدنيا وجهها الحضاري والإنساني المسعد الصحيح.

أمّا ما يعمد إليه هؤلاء الذين يصرّون على أن يفكوا الاشتباك بين الأعمال والأنشطة الدنيوية من جانب، والوظائف والواجبات الدينية من جانب آخر، بحيث تسير أعمالهم ووظائفهم الدنيوية بعيدة ومتحررة عن سلطان الدين وقيوده، وبحيث يتم إرجاء الواجبات الدينية، إلى مابعد الفراغ، بل إلى مابعد الشبع من المتع والرغائب الدنيوية، فهذا تعطيل خطير لوظيفة الدين في حياة الإنسان، وإقصاء له عن مناخه الاجتماعي الذي يجب أن يوجد وأن تظهر فاعليته فيه، وإنه لغباء ثقيل وممجوج في جهل مهمة الدين وحكمته في حياة الإنسان، أو هو عبث مقصود يراد منه إطلاق أيدي الماكرين والخادعين المدجلين بحقوق الناس، وبالمصالح الشخصية والاجتماعية، دونما ضابط أو رقيب.

وإلاّ فمن الذي يعلم أن الطعام لابدّ في إعداده من ملح أو سمن يصلحه، ثم يعدّ الطعام ويطبخه مع ذلك دون ملح ولا سمن، فيقدم الطعام للآكلين في طبق، ويقدم كلاً من الملح والسمن في طبق آخر، ويدعوهم إلى أن يبدؤوا فيأكلوا الطعام كما قد حضّره أولاً، ثم يتحولوا إلى تناول الملح والسمن ثانياً.

إن الذي يرجئ عمل الدين ووظيفته إلى مابعد فراغ الناس من أنشطتهم وأعمالهم الدنيوية المتنوعة ووظائفهم الاجتماعية والسياسية

المتفاوتة، حيث التقاعد بعد الجهد والعمل، وتوديعُ الحياة من خلال التعامل مع أيامها القليلة الباقية، إنما يقصي الدين بذلك عن وظيفته التي أقامه الله عليها، كما يقصي ذلك الأحمق ملح الطعام عن وظيفته التي أعدّ لها.

* * *

وأخيراً، وبالإضافة إلى هذا كله، يجب أن يعلم كل منا أن جهده كله، بكل ما يتنوع ويتفرع إليه، مِلْكٌ لله عز وجل، كما أن ذاته وكيانه ملك له. فليس في أنشطته وأعماله ما هو عائد إلى الله، وما هو عائد إليه هو كما قد يتوهم بعض الناس...

إن هذا الوهم يتناقض تناقضاً حادّاً مع الخطاب الذي علّمنا وأمرنا الله أن نتوجه به إليه في فاتحة كل صلاة: ((إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)).

إذن فجهودي التجارية والصناعية والزراعية والوظيفية والسياسية، يجب أن أمارس من خلالها عبوديتي لله عز وجل. أي يجب عليّ أن أنهض بها أو بما أقامني الله منها، استجابة لأمره الذي وجهه إليّ عندما كلفني وبني جنسي بعمارة الأرض التي أقامنا الله عليها، على الوجه وبالطريقة التي رسمها لنا وقيدنا بها. وكم يجدر بنا أن نتبين هذه الوظيفة من خلال قوله عن ذاته العلية في حقنا: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ [هود: ١١/٦١] ومن خلال قوله للملائكة حكايةً لنا: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠].

فاعجب لمن يحاول أن يقسم مملكة الله بينه وبين نفسه، يقتطع منها لنفسه حصة يزعم أن لا حقّ لله فيها، ويحيل الأخرى إلى الله يزعم أنها هي وحده ملكه وحقه، فإذا ناقشه في ذلك باحث، حاول أن يسكته مستشهداً بالمقولة الذائعة: ((أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)) وكأنه لا يعلم أن قيصر من حيث هو، بقضّه وقضيضه، ليس إلا ملكاً لله!..

لقد بحثت عن كلمة ((المِلْكِ)) هل نسبها الله إلى الإنسان في آية مّا من قرآنه بالنسبة لأيٍّ مما قد يضع يده عليه، فلم أجد.. وإنما وجدته يقول: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٥٧/٧]، ووجدته يقول: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٣٣]، ووجدته يقول: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [هود: ١١/٣].

فمن أدرك اليوم هذه الحقيقة البدهية، فذاك، وقد أحرز بذلك الخير لنفسه، ومن لم يدركها، فلسوف تتبيّن له بكل جلاء ووضوح عندما يقع في سياق الموت ويجد نفسه راحلاً إلى الله مجرداً عن كل ماكان يتوهم أنه شريك مع الله في امتلاكه وفي حق استعماله كما يريد.

* * *

الحكمة التاسعة عشرة

((لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من دون إخراج))

۞ نظرتَ، فوجدتَ أن كلاً من ظروفك ووضعك ومستواك الدراسي وجّهك إلى كلية الطب، وتأملت فوجدت أن طريقك في هذه الكلية إلى دراسة الطب، صاف عن شوائب الحرمة، بعيد عن مطارح السوء، ولكنك عدت إلى نفسك فشعرت أنك ميال إلى أن تتحول إلى دراسة الهندسة متأملاً أن يكون لك حظ من خلال هذا الاختصاص في بناء المساجد والمعاهد ونحوها، أو إلى دراسة الشريعة في كلية الشريعة، لتكون بذلك أقرب إلى معرفة الإسلام وأحكامه وإلى خدمة دين الله والدعوة إليه... يقول لك ابن عطاء الله، لاتتكلف التحول مما اختاره الله لك من العمل المباح بدون تكلف، متأملاً أن يستعملك الله فيما هو أرضى له، من خلال التحول إلى العمل الثاني الذي تتوق نفسك إليه، ذلك لأن الله قادر على أن يستعملك فيما يزيدك قرباً إليه، ويزيده رضاً عنك، دون أن تتحول عن العمل الذي أقامك فيه. إذا أحبك الله عز وجل فما أيسر أن يستعملك في أجلّ القربات التي يحبها من خلال اختصاصك الذي ساقتك ظروفك إليه.. يعلمك دينه وشريعته وأنت جالس على مقاعد كلية الطب، يستخدمك في عمارة مساجده ورعاية معاهده، وأنت تستقبل المرضى في عيادتك. هذا فضلاً عن القربات الجليلة التي ستحظى بها من خلال اهتمامك بعافية الناس وسهرك على تطبيبهم.

۞ أقامك الله عز وجل، ضمن ظروف وأسباب أحاطت بك، على صناعة أسستها ومضيت في بناء مقوماتها، وتأملت فوجدت أنها لا تزجك في معصية ولا تحملك على أي سوء، ولكنك تتبعت حال جنود يقومون على الثغور ويحرسون الأمة وحقوقها من العدو المتربص بها والطامع فيها، وعدت إلى ما قد وعد الله به المجاهدين والقائمين على الثغور من المثوبة العظمى والأجر الكبير الذي أكده الله لهم في كثير من نصوص كتابه، فاستهواك هذا الجهاد المبرور، واتجهت إلى الله تطلب منه أن ينقلك عما أقامك فيه، ليستعملك في ذلك العمل الثاني، الذي وعد من الأجر الكبير عليه ما وعد.... يقول لك ابن عطاء الله: لا، إياك أن تطلب منه ذلك، فليس عسيراً عليه أن يستعملك فيما يكسبك الأجر ذاته، دون أن يخرجك من عملك الذي أقامك فيه.

۞ نظرَتِ الزوجةُ الماضيةُ في نسج أسباب السعادة لزوجها، وفي العمل على تربية أولادها وتنشئتهم نشأة صالحة، إلى أتراب وصديقات لها ينشطن في أعمال الدعوة الإسلامية والاستزادة من الثقافة والمعارف الإسلامية، فتمنت على الله أن ييسر لها سبيل انتقال مما هي فيه، إلى هذا الجهاد الدعوي والنشاط العلمي، لتنال الأجر الذي وعد به أرباب الدعوة إلى دين الله.. يقول لها ابن عطاء الله: لاتتمنَيْ على الله خلاف ما أقامك فيه. إن كنت تبحثين في هذا عن حظ يروق لنفسك فلن ينالك على ذلك أي أجر، وإن كنت تتلهفين للمثوبة، فإن الله قادر على أن يكرمك بها وأنت تعكفين على هذا الذي أقامك الله فيه.

ومصدر الخطأ في هذه الرغبة وأمثالها، عدة أمور:

الأمر الأول: أن صاحب هذه الرغبة يخيل إليه أن المثوبة منوطة آليّاً بسبب مادي، فما لم يتحقق هذا المناط لا تأتي المثوبة أو الأجر.. يخيل إليه أن التعامل بالشريعة الإسلامية دراسة وتدريساً ودعوة إليها مصدر لأجر كبير، وأن الارتباط بينهما مادي وطبيعي، ومن ثم فإن هذا الأجر لا يتأتى إلا بالتوجه إلى هذا العمل حصراً.

غير أن الحقيقة ليست كذلك. فالمؤجر والمثيب في كل الأحوال وعلى كل الأمور هو الله عز وجل، فهو الذي أناط إكرامه ومثوبته بما قد أناطهما به من أنشطة وأعمال، هذا إلى جانب ما يجب أن تعلمه من أن الله لا يحتاج إلى من يسخره لأداء عمل ذي فائدة دينية أو اجتماعية أو اقتصادية مثلاً. فالموفق والمعين في كل ذلك هو الله عز وجل، ولكنه عز وجل قضى لطفاً منه ورحمة أن يثيب عباده بعضهم ببعض، يسخر هذا لمصلحة ذاك أو لمصلحة المجموعة فيؤجره على هذا الذي سخره له، فهو المعين وهو المؤجر على ما قد أعان عليه، فالله عز وجل مثلاً هو الشافي كما قد حكى الله عز وجل عن خليله إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٠].

ولكنه مع ذلك يؤجر الطبيب الذي يسعى متلهفاً للعمل على شفاء مريضه، وكم قلنا في المناسبات: الله هو الشافي، والأطباء هم الذين يأخذون الأجر من الناس والثواب من الله.

الأمر الثاني: أن المصالح التي تدور أحكام الشريعة الإسلامية عليها كثيرة ومتنوعة جداً، وأكاد أقول: ليس فيها ما هو أجلّ وأبعث على المثوبة والأجر من الآخر، إن صفا القصد وخلصت النية لله عز وجل.

وأساس ذلك أن المصالح التي بها تقوم حياة الأفراد والمجتمعات كثيرة ومتنوعة كما قلنا، والدين الحق إنما يتمثل (بعد توفر الاعتقاد الصحيح) في العكوف على خدمة الأمة من خلال رعاية هذه المصالح.

ونظراً إلى أن الشخص الواحد لا يتأتّى له أن ينهض برعاية سائر تلك المصالح، فقد كان من حكمة الله ولطفه أن يسّر كلاً من عباده الصالحين لخدمة مصلحة من مصالح الأمة، وإنك لتنظر فتجد أنه عز وجل قد وزع مسؤوليات الأمة فيما بين عباده طبقاً للقدرات والرغبات المتنوعة التي قسمها بينهم.

وإنما الشرط الوحيد عندئذ ليتساوى الجميع في نيل المثوبة الربانية والحصول على رضا الله عز وجل، أن تكون نياتهم خالصة لوجهه عز وجل، وأن لا تكون لأهوائهم ومصالحهم الدنيوية ورعوناتهم النفسية أي مدخل إلى أعمالهم وخدماتهم تلك.

فإذا تبينت هذه الحقيقة، لم يبق معنى ديني موجب لتطلع إنسان أقامه الله على خدمة المجتمع من خلال واحدة من مصالحه الكثيرة، إلى التحول من عمله الذي أقامه الله فيه إلى عمل آخر، وإذا كان حافزه إلى ذلك، التطلع إلى مزيد من المثوبة يتخيله في الانتقال إلى العمل الآخر، فإن الله قادر على أن يكرمه بذلك المزيد دون أن يتحول عن عمله ذاك، بل ذلك هو المأمول من كرم الله وإحسانه.

الأمر الثالث: إن الانتقال المادي من مجال اختصاص إلى مجال اختصاص آخر، ليس شرطاً لابدّ منه للجمع بين وظيفتين أو مصلحتين في خدمة الأمة والمجتمع.

إن المخلص في عمله لله لا يحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى أن يعرض عن المجال الذي هو فيه إلى المجال الآخر، بل بوسعه أن يجمع بين خدمات شتى وهو في موقعه ذاك لم يتحول عنه.

أرأيت إلى من شاء الله أن ييسر له دراسة الطب والالتحاق بكليته، إن بوسعه، إن هو رغب في خدمة دين الله عن طريق دراسة شريعته والتبصر الواسع بأحكامها، أن يفعل ذلك دون أن يتحول من موقعه الذي هو فيه إلى كلية الشريعة ويلازم مقاعدها بشكل رسمي.

إن سبيله إلى هذه الخدمة الأخرى ميسر ومفتوح، أينما كان وفي أي موقع وجد، وذو الحرقة على دراسة دين الله والتوسع في معارفه، يتنقل كما تتنقل النحلة التواقة إلى الرحيق، من حلقة إلى أخرى ومن درس إلى غيره، في المعاهد الرسمية وفي الحلقات المسجدية والدروس الخاصة، دون أن يتحول من اختصاصه الذي يسّره الله له وأقامه فيه. بل إن هذا هو شأن المخلص لوجه الله، لا يهمه المعهد الذي ينتمي الناس إليه، ولا الشهادة التي يعودون بها، وإنما يهمه أن ينهل من العلوم والمعارف الدينية التي فيه. وهذا معنى قول ابن عطاء الله: فلو شاء لاستعملك من دون إخراج.

وقد ضربت لك في بيان هذا الأمر، مثال الطالب في كلية الطب عندما يتوق إلى خدمة الدين من خلال دراسة الشريعة، فقس أنت عليه سائر الاختصاصات والخدمات الإسلامية الأخرى.

الأمر الرابع والأخير: النية!!.. لا تنس أن نيّة المرء هي مصدر المثوبة إن صلحت وَصَفَتْ عن الشوائب وتوجهت بصاحبها إلى مقصد واحد

هو مرضاة الله. وهي السبب في ضياع الجهد وغياب المثوبة والأجر، عندما تتجه بصاحبها إلى غاية من الغايات الدنيوية الأخرى، وما أكثرها، وما أخطرها على عمل المسلم وجهوده التي يضني نفسه في بذلها.

فإذا عرفت ذلك، فإنك لن تتعلق بمظاهر الأعمال وصورها، ولن تربط المثوبة بأنواع الأعمال، وما قد يبدو لك من تفاوتها في الأهمية وفي ما قد تحققه من خير. بل ستتجه بالاهتمام والتمحيص إلى النية التي تدفعك إلى هذه الأعمال أياً كانت.

والآن، أفيساورك شك في أن يكون واحد كالعالم الرباني عبد الله ابن المبارك، جاهلاً بهذه الحكمة التي تبينت لك وتجلى لك موقعها في حقيقة هذا الدين ومنهجه التربوي والاجتماعي القويم، فيحمله جهله بها على أن يرسل إلى الفضيل بن عياض -فيما زعموا- أبياتاً يقرّعه فيها على موقعه الذي أقامه الله فيه، متعبداً متبتلاً في مكة، ويسخر من ركعاته وعباداته هناك، ويدعوه إلى الخروج مما هو فيه والالتحاق به في موقعه الجهادي، ليراه كيف يبارز علوج الشرك والطغيان، وليبصره وقد تخضّب نحره بدمه، فتهونَ في عينيه مدامع خشوعه التي يتخضب بها وجهه!!..

أجل.. فقد نسبوا إلى عبد الله بن المبارك زوراً وبهتاناً هذا التقريع الساخر من الفضيل وهذا الطلب الملحّ بأن يقتلع نفسه من الحال التي أقامه الله فيها ويتحول إلى موقعه هو الذي يتباهى عليه به، وذلك في أبيات ركيكة ألصقت به دون أي سند، يبرأ شعر ابن المبارك إلى الله منها، أولها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا   لعلمت أنك بالعبادة تلعب

وهل تعلم من هو **فضيل بن عياض**؟

هو ذاك الذي كان قلب ابن المبارك فياضاً بحبه وتعظيمه وتبجيله، كان يقول عنه: ((إذا نظرتُ إلى فضيل بن عياض جدّد فيَّ الحزن، ومقتُّ نفسي)) ويقول عنه: ((مابقي على ظهر الأرض أفضل من فضيل ابن عياض)) ولقد كان من أشد الناس خوفاً من ا لله.

وهل تعلم من هو **عبد ا لله بن المبارك**؟

هو ذاك الذي سئل عن رجلين، أحدهما قتل في سبيل ا لله، والآخر أشدّ خوفاً من ا لله، فقال: أحبّهما إليّ أخوفهما.. وهو الذي سأله بعض إخوانه -وكانوا على ثغر من ثغور القتال يتذاكرون مسائل العلم- أترى يا أبا عبد الرحمن أن في أعمال البرّ ما هو أرضى لله مما نحن فيه؟ قال: نعم... رجل يسعى على عياله، قام من جوف الليل يتفقد حال صبيته ويطمئن إلى راحتهم وأغطيتهم.

أفيمكن أن تستبقي معشار عقلك ثم تصدق أن عبد ا لله بن المبارك هذا والذي قال عن الفضيل ما قد سمعت، يوجّه إليه أبيات تقريعٍ وسخرية من عباداته، ويتباهى عليه بما هو فيه، ويدعوه إلى أن يأتي فيرى نحره المخضب بدمائه، مع العلم بأن نحره لم يخضب يوماً من بدمه؟!..

ولعلك تعود إلى كتابي (شخصيات استوقفتني) ص٦٧ فيما بعد. لتقف على الأدلة الناطقة ببراءة عبد ا لله بن المبارك من هذا الهراء وفي مقدمتها عدم وجود أيّ سند لنسبة هذه الأبيات إليه.

أخيراً، لا تنسَ أن ابن عطاء الله إنما يتحدث عن الأعمال المباحة، بل الأعمال الصالحة، التي أقام الله عباده فيها، فهي التي ينطبق عليها المبدأ الذي يوصي به ابن عطاء الله.

أما العمل الذي لا مبرر له في ميزان الشرع، مما قد يجد المسلم أنه متورط فيه، فإن الخروج من هذا العمل واجب، بل الدخول فيه والركون إليه محرّم.

ولسنا الآن بصدد تحديد الأعمال المحرمة وبيان أصنافها، فالبحث في ذلك يحتاج إلى بيان طويل الذيل.

إنما المهم أن تعلم بأن على المسلم أن يتعرف على الوظائف والأعمال التي تساق إليه، أو يدفع إليها، وأن يتبين حكم الله تعالى في الإقدام عليها، فإن علم أنها داخلة في صنف المحرمات فليتجنبها، ولا يقولن إن الله قد أقامني في هذا العمل وليتذكر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٨].

والله الموفق والهادي إلى سواء صراطه المستقيم.

* * *

الحكمة العشرون

((ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها، إلاّ ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولاتبرجت له ظواهر المكوّنات إلاّ ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر))

هذه الحكمة، ذات أهمية كبرى، وكأن ابن عطاء الله نبَّه إليها ليجعل منها كابحاً يلجم به أفواه مدّعي القرب والوصول، ومصطنعي الولاية من أولئك الذين يتعاملون مع مريديهم بالخوارق، بل بدعوى الخوارق.

وهي -فيما ستجد فيما قد تضمنته من المعاني الجليلة- تعيد السالك إلى حمى كتاب الله وهديه، وإلى ساحة السنة النبوية وضوابطها، وتجعل السبيل الموصل إلى التزكية ودرجة الإحسان، خاضعاً لما تنزل من وحي كتاب الله وهدى رسوله، فإن شرد السبيل عنهما فذلك هو التيه الذي لا بدّ أن يزجّ الشاردين إليه في الضلال الوبيل.

زيدٌ من الناس، كان بالأمس القريب شارداً عن صراط الله معرضاً عن كلامه وخطابه، منغمساً في بحار شهواته وأهوائه.. ثم إن هداية أدركته، فشرح الله صدره للإسلام، وتعرف على أوامره وأحكامه، ثم أخذ يلزم نفسه بأساسيات الدين، يصلي فرائضه، يصوم شهره، ويبتعد جهد استطاعته عن المحرمات. ويؤدي ما أمكنه من الطاعات.

زيد هذا، كان الشيطان يغريه من قبلُ بالموبقات ويحبِّب إليه الفواحش والمحرمات، فلما اتجه إلى الله يصغي إلى عظيم خطابه ويسعى سعيه للالتزام بأهم أوامره والابتعاد عن معاصيه؛ لم يعد سبيل الإغراء له بالموبقات مجدياً، فيسلك الشيطان إليه سبيلاً آخر يتفق والحال التي آل زيدٌ إليها.

يوسوس إليه قائلاً: ألا ترى كيف أصبحت من خيرة عباد الله الصالحين.. تصلي الفرائض دون انقطاع، تصوم رمضان صابراً محتسباً، ترى الناس يتهافتون على الفواحش والموبقات، وأنت مصرّ على تجنبها.. ألا تلاحظ أنك قد أصبحت من أولياء الله المقربين؟..

فإن هو ركن إلى هذا الوسواس ولغوه، وتشرب هذا الإيحاء إلى مكمن اليقين من نفسه، عاد إلى شرٍّ مما كان عليه سابقاً قبل توبته لأن العُجْبَ الذي يتسرب إلى مشاعر بعض المتعبدين، من أخطر أسباب هلاك صاحبه، وهو من أشد الأمراض التي تستقر في القلب فتهلك صاحبه، وهو من أخطر ما سماه الله: باطن الإثم.

والشيطان يضع في طريق كل فئة أو نوع من الناس، الفخ، أو الكمين الذي يناسبه، فالملتزمون منهم يؤخذون بداء العجب والاعتداد بالذات وتخيل أنهم أصبحوا من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين. وإذا استسلموا لهذا التصور، خسروا قرباتهم وذهبت طاعاتهم كلها أدراج الرياح؟

فما السبيل العاصم لزيد هذا من هذا الوسواس الشيطاني؟

السبيل هو أن يأخذ نفسه بهذا الذي يقوله ابن عطاء الله.. يجيب وسواس الشيطان قائلاً: أين أنا من الوصول إلى سدّة القرب؟ إنني لا أزال أحطو الخطوات الأولى في مدارج السلوك.. ها أنا لا أزال غريقاً في بحار التقصير.. بضاعتي كلها ركعات صلاة مفروضة وصيام أيام معدودة، أين أنا من النوافل والقيام في الأسحار؟ أين أنا من الخشوع في الصلاة ومن نسيان الدنيا إذا أقبلتُ أناجي الله؟ أين أنا من القلب النابض بذكر الله؟ ومن الابتعاد عن كل ما حرّم الله؟ بل ماقيمة هذا التافه من طاعاتي أمام ما أنا غارق فيه من نعم الله وفضله وآلائه. إنني لا أزال أحبّ في أول الطريق، ومطمح قلبي من رضا الله ما يزال بعيداً بعيداً أمامي.

فهو هذا معنى قول ابن عطاء الله: ((ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها، إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تطلبه أمامك)).

فإذا التجأ زيد من وسواس الشيطان إلى سلوك هذا السبيل (وهو سبيل العبودية المثلى) فلسوف تحصنه عبوديته هذه ضدّ لغو الشيطان ووساوسه، بل ستتجه به همته إلى أخذ نفسه بالمزيد والمزيد من الطاعات والقربات، وإلى تجنب المزيد والمزيد من المحرمات والمكروهات، كان لايصلي أكثر من فرائضه، ولا يصوم أكثر من شهره، دون أن يأخذ نفسه بمجلس ذكر أو أن يلزمها بحضور حلقة علم. فلما أعرض عن وساوس الشيطان وأخذ يصغي إلى هواتف الحقيقة (على حدّ تعبير ابن عطاء الله) التي تناديه قائلة: إن الذي تطلبه من رضا الله لا يزال بعيداً أمامك، قفزت به همته إلى أن يضيف إلى فرائضه السننَ، وأن يلزم نفسه بورد من الأذكار وقراءة القرآن، ثم

لازمه الشعور بالتقصير، فقفزت به همته إلى القيام في الأسحار، وإلى أن يصلي صلاة مودع للدنيا كلما وقف بين يدي الله.

والشأن في هذا السالك أنه كلما خطا خطوةَ قُرْبٍ إلى الله عن طريق مزيد من الالتزام، ازداد شعوراً بعظمة الله وسلطانه وعظيم حقه عليه، ومن ثم ازداد شعوراً بتقصيره في جنب الله عز وجل. وسيظل على هذه الحال، كلما ازداد قرباً منه بمزيد من الالتزام، ازداد شعوراً بعظيم حق الله عليه، ومن ثم تبينت له جوانب جديدة من تقصيره. فلا تنفك عنه هذه الحال إلى الممات.

هل هنالك نهاية لرحلة السعي في أداء كامل حقوق الله، يصل إليها السالك قبل الموت؟..

لا... لا نهاية لهذه الرحلة بالنسبة لأي من عباد الله قط.

لو أمكن لنبي أو وليّ أن يصل إليها، إذن لأمكن له أن يؤدي حقوق الله عليه كاملة ولأصبحت ذمته بريئة من أفضال الله عليه، فمن؟ ومتى؟ وكيف؟ يستطيع أن يعتق نفسه من آلاء الله عليه؟

إن سلوكه إلى الله إنما هو بفضل الله وتوفيقه، وإن اللسان الذي يحركه بشكر الله إنما هو من أعطياته ومننه، كذلكم العين التي يبصر بها والأذن التي يسمع بها والرجل التي يمشي بها، كل ذلك من مواهب الله وإحسانه، والقوة التي بها يركع ويسجد بين يديه، والمال الذي يتصدق به، والعقل الذي يدرك به، كل ذلك منح من الله عز وجل!.. إذن فكلما ازداد العبد قرباً إلى الله تعالى باستعماله لهذه الوسائل التي أكرمه الله بها، تزداد منة الله عليه، ويتراكم المزيد من

حقوق الله في عنقه، فقل لي: كيف وأنَّى يتاح لهذا العبد أن يحرر نفسه من حقوق الله وأفضاله عليه، وأن يرقى إلى حالة يؤدي فيها كامل الذمم التي عليه لله تعالى، دون تقصير؟

غير أن الشخص الذي يكون حديث عهد بمعرفة الله والإقبال عليه والانضباط بأوامره، لا يدرك هذا الذي قلته لك، بل يظن أنه أدى كل ما لله عليه إن رأى نفسه يصلي الفرائض في مواقيتها، ومن ثم فإن سبيل الشيطان إليه يسير.

والعلاج الذي يجب أن يأخذ هذا الشخص به نفسه، هو الاهتمام بذكر الله والتأمل في صفاته والإحسان الذي يفد إلى العبد من الله عز وجل.

وبعبارة أخرى: إن علاجه يتمثل في الإقبال إلى معرفة الله، من خلال دراسة بحوث العقيدة، بالطريقة القرآنية التي يسلكها العلماء الربانيون، لا بالطريقة الفلسفية التي يلتقي عليها المجادلون وعشاق المباريات الكلامية.

فهذا العلاج من شأنه أن يملأ القلب تعظيماً لله، وأن يجعل الشعور أسيراً لآلاء الله وجليل نعمه التي لا تحصى. ومن ثم فلا بدّ أن يلازمه الشعور بالتقصير في جنب الله، مهما ارتقى في درجات السلوك ومهما أكثر من الطاعات والقربات.

وانظر إلى ماكان عليه حال رسول الله، الذي كان مضرب المثل في الالتزام بأوامر الله، وشكره، وأداء حقوقه؛ لقد كان على الرغم من كل ذلك، يعود إلى نفسه فيرى نفسه مقصراً في شكر الله متهاوناً في

أداء حقوقه، متلبساً بالذنب، موغلاً في الغفلة عن الله، فيُهرَعُ إلى الاستغفار كما لو كان واحداً من العصاة المعرضين عن الله فعلاً!..

إليك، فاسمع، استغفاره هذا الذي كان يناجي به ربه عز وجل: ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))[1].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: ((إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مئة مرة))[2].

فشعوره المتزايد، ﷺ، بعظيم حق الله عليه، يشعره بتقصيره الذي يدفعه إلى الاستغفار وطلب الصفح منه عز وجل.

وإذا تأملنا في حال الصالحين الذين جاؤوا بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ممن التزموا هديه وساروا على سنته، وشهد لهم السلف الصالح بالاستقامة والتقوى، نجد أنهم كلما ازدادوا معرفة لله وقرباً منه، ازدادت نفوسهم لديهم ضآلة، وظهر لهم المزيد من سوء حالهم، فتضاعفت الخشية منه في نفوسهم، والتعظيم له في قلوبهم. ورد في ترجمة عبد الله بن المبارك أنه أقبل إلى زمزم وكان حاجّاً، فاستقى دلواً واستقبل البيت فقال: اللهم إن عبد الله بن المؤمل حدثني عن ابن الزبير عن جابر عن رسولك ﷺ قال: ((ماء زمزم لما شرب له))

---

(١) رواه البخاري من حديث شداد بن أوس.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود، من حديث الأغرّ المزني.

اللهم إني أشربه لعطش يوم القيامة. فشرب منه ما شاء الله أن يشرب[١].

ولو أن أحدنا وقف في المقام ذاته ليشرب من ماء زمزم، وتذكر الحديث ذاته، لعرض بين يدي شربه آماله ورغباته الدنيوية، واتجه إلى الله بطلبها، من تجارة أو زواج أو حل معضلة أو نحو ذلك من أمور الدنيا. فما الفرق بيننا وبين أمثال عبد الله بن المبارك في هذا الأمر؟

الفرق أن واحداً مثلي يرى أنه قد أدى كل ما قد طلبه الله منه على خير وجه، بل زاد وأجاد، فها هو يشتغل بالدعوة، يعلم الناس دينهم يؤلف الكتب في الدفاع عن الإسلام والتصدي للعابثين به والمتربصين به، ففيمَ يخاف من ظمأ يوم القيامة، وهو مطمئن إلى أنه سينال آنذاك المثوبة التي ينتظرها وسيكرمه الله بالجزاء الأوفى، إذن فليطلب في هذه المناسبة حاجاته الدنيوية ورغباته العاجلة.

أما ابن المبارك وأمثاله، فقد كانوا كلما ازدادوا معرفة بالله ازدادوا شعوراً بتقصيرهم وعجزهم عن أداء حقوق الربوبية في أعناقهم، فزادهم ذلك الشعور خشية من الله وتعظيماً له، وزادهم تبتلاً له وانكساراً وتذللاً بين يديه. فإذا وقف أحدهم في موقف يستجاب فيه الدعاء، نسي رغباته الدنيوية وحاجاته العاجلة، واستغرق في همِّ ما هو مقبل عليه من أحداث يوم القيامة.. ورأى نفسه مجرداً عن الأمل بأيّ عمل يستأهل به مثوبة الله وإحسانه. إن هو إلا التعلق برحمة الله والدعاء الواجف في هذا الموقف، بأن يعامله الله يوم القيامة بما هو

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٤/١٩، وتاريخ بغداد ١٠/١٦٦.

جَلَّ جلاله أهل له من الصفح والغفران، لا بما هو -في نظره- أهل له من الهلاك والبوار. فيخاطب الله قائلاً: اللهم إني أشرب ماء زمزم لتقيني من ظمأ ذلك اليوم.

وإني لأذكر في هذا الصدد أن مسؤولاً كبيراً ذا مكانة مرموقة في الدولة زار والدي رحمه الله لأول مرة دون سابق معرفة. واستقبله والدي في غرفته الصغيرة المتواضعة كما يستقبل عامة من يزوره من الناس... وجلس الرجل كمن يحبّ أن يتعرف على شيء غريب يتبدّى في حال إنسان مجهول. ثم نظر إلى والدي وخاطبه بالكلمة التقليدية التي يخاطب بها عادةً أمثالُه أمثالَ والدي، قال له: ادع الله لنا ياشيخي فنحن مقصرون!..

نظر إليه والدي قائلاً: أفجادٌ أنت بقولك هذا؟.. أفموقن أنت بأنك مقصر حقاً؟.. إن كنت كذلك فاطمئن بالاً إلى رحمة الله وسعة مغفرته.

ثم قال له: أتشكو تقصيرك إليّ؟ مَنْ منا ليس مقصراً في جنب الله؟

لعلك سمعت الناس يقولون عني: شيخ ملا.. شيخ ملا... ورأيت سجادتي أمامي والسبحة في يدي ومظهري بهذه العمامة واللحية، فغرك ذلك مني فظننتني أحسن حالاً منك، وجئت تشكو إليّ تقصيرك.. من منا غير مقصر في حق إلهنا ووليّ أمرنا؟

ثم أخذ رحمه الله يكلمه عن عظيم حق الربوبية لله على عباده، وعن ضعف الإنسان تجاه أداء أي جزء من أجزاء هذه الحقوق. وأكد له أن خير مايقرب العبد إلى الرب التذلل الصادق على أعتابه، والعزم

على أن يظل يتابع الخطى على طريق الالتزام بأوامره جهد استطاعته، موقناً بأنه لو عاش عمر الدهر كله، فإنه لن يستطيع أداء أصغر جزء من حقوق الله عليه.

أذن أعود فأقول لك: إذا أراد الشيطان أن يفتَّ في عضدك ويوسوس إليك بأنك قد أديت كامل ما افترضه الله عليك وطلبه منك، فأعرض عن وساوسه وأَصْغِ إلى صوت الحقيقة التي شرحتها لك من خلال الصفحات القليلة الماضية، تجد أنها تقول لك:

ألا إن الكمال لايزال أمامك، ولايزال ظهرك مثقلاً بعظيم حق الله عليك، فتجاوز هذه المراحل لا تقف عندها، ولا تلتفت إلى حديث الشيطان ومكره، وليكن رأس مالك الذي تتعامل به مع الله عز وجل أن تعلن له عن عجزك وضعفك، وأن توقن بأنك كلما ازددت توفيقاً في أداء أوامره، ازدادت منته عليك، وتضاعف افتقارك إلى رحمته بك ومغفرته لك.

* * *

ثم ينقلنا ابن عطاء الله إلى **الشطر الثاني من حكمته** هذه، فيقول:

«ولا تبرجت له ظواهر المكوَّنات إلا ونادته حقائقها: إنما نحن فتنة فلا تكفر».

تتبرج المكوَّنات للسالكين **بمعنيين اثنين:**

أحدهما: انفتاح الدنيا على السالك، وتكاثر النعم وأسباب المتع من حوله..

ثانيهما: انقشاع بعض أسرارها له، من خلال خوارق تبدو له بين الحين والآخر.

وللشيطان صولة وجولة، أمام كل من هذين المعنيين، إذ يسعى سعيه اللاهث إلى توظيفه لإبعاد السالك عن مواصلة السير إلى ا لله، ولشغله عن مجاهدة النفس وأهوائها وعن مراقبة الذات أن لا تتيه وتنحرف، بما قد يلذّ له من بوارق النعم والمتع التي تتكاثر بين يديه، أو من بوارق الخوارق التي تلوح له فيحسبها شهادة ولاية أو علوّ في درجته عند ا لله عز وجل.

وكم من صلحاء وسالكين تخطَّفهم الشيطان ثم قذف بهم في أودية الضلال والشقاء، عندما نصب لهم من هذين الخطرين شِرْكَيْنِ تصيَّدهم بهما أو بواحد منهما.

تفتح الدنيا على المرشد وتساق إليه النعم وترخص بين يديه المتع، بقطع النظر عن الأسباب التي تيسر له ذلك، فإن كان ممن تشبع بنصيحة ابن عطاء ا لله هذه، مرّ غير عابئ بها ولا واقف عندها، موقناً أنها تقول له بلسان الحال، فعلاً: إنما نحن فتنة فلا تكفر.

ومعنى كونه لا يعبأ بها ولا يقف عندها، أنه لا يجعل لها مغرس حب في قلبه، ولا يجعل منها هدفاً يسعى إليه، أو زينة يتباهى بها، أو متعة يركن إليها فتصدّه عما هو بصدده من التوجه قلباً وقالباً إلى ما به بلوغ مرضاة ا لله.

وإن كان ممن يتخذ الإرشاد مصدر تجارة، ويجعل من حسن سيرته وربّاني سلوكه بين الناس، شارة مميزة يتجمل بها، ومركزاً يتبوَّؤه في قلوب الناس، فإنها لا بدّ أن تستهويه فتجذبه إليها فتحبسه في أقطارها، ولا بدّ أن يقطعه الشيطان عن مواصلة السير في الطريق

المقرب إلى الله، ثم يسقيه من تلك المتع والنعم التي تتراقص بين يديه وفي أحضانه كؤوساً إثر كؤوس، حتى يثمل بها، ويحجب عن المصير الذي كان يؤرقه، والإله الذي كان يسعى لاهثاً إلى استرضائه، فيصبح مثله كالذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦/٧] .

فهذا هو أحد **المعنيين المرادين لتبرج المكوّنات أمام السالكين**.

وإليك الآن **بيان المعنى الثاني**:

يسير العالم المرشد (ولايكون المرشد إلا عالماً ولا العالم الرباني إلا مرشداً) في طريقه متعلماً ومعلماً ومرشداً للناس، فتقبل إليه جماهيرهم من كل حدب وصوب، ويشعر من تأثرهم به وهداية الكثير منهم على يده أن له قدم صدق عند الله، وأنه ذو نفحات قدسية وكرامات ربانية، فإن كان من المتشبعين بأخطار النفس والهوى، والمتبصرين بمداخل الشيطان ومزالقه، لم يقف عند هذه المشاعر والأوهام، ومرّ بها مستغفراً الله تعالى، موقناً بأنه عبد سوء، وأنه شديد الحاجة إلى حماية الله وستره.

أما إن لم يكن قد أخذ حظه كافياً من تزكية النفس ودوام مراقبة الله، وكان ممن يتعامل بكلمات الدين وشعاراته، بعيداً عن جوهره ولبابه، فإن الحال التي وصفت من إقبال الناس إليه وتأثرهم به. وازدهار كلماته في نفوس الناس، لا بدّ أن تأسره فتسكره، فتوقظ بين جوانحه الاستكبار والإعجاب، وهي آفة راقدة بالفطرة في كيان كل

إنسان، إلاّ أن هذه الآفة تصطبغ في كيانه بصبغة الوظيفة التي هو فيها، فيكون استكباره بوظائف الدين، وليس استكباراً على الدين ووظائفه كما هو شأن المارقين والملحدين.

ومن شأن النفس الأمارة بالسوء أن تزيده اندفاعاً في هذا السبيل، أما الشيطان فيجمِّل له هذا المسعى ويوهمه أنه ليس إلا واحداً من كبار المرشدين الربانيين ومن أوليائه الصالحين، وأن عليه أن يلفت نظر مريديه إلى هذه الحقيقة، حتى يكونوا أكثر انتفاعاً به واقتداء بسلوكه وانقياداً لتوجيهاته.

ومع اندفاعه في هذا السلوك وتصديقه لهذا الوهم الشيطاني المنبعث في كيانه، يدبج مجالسه ودروسه وعظاته، بالحديث عن مناماته التي يرى فيها رسول الله ﷺ، بل ربما حدّثهم عن رؤيته له يقظة لا مناماً، ويشيع عن نفسه الخوارق والكرامات التي يميزه الله بها فتشهد على عظيم حاله وشديد قربه من الله.

وأنا لا أستبعد أن يكون بعض ما ينسبه إلى نفسه من الخوارق صحيحاً، بل الأصل هو الصدق فيمن لم يعلم عنه الكذب. ولكن الراجح أن في شياطين الجن من يجندون أنفسهم لخدمة هؤلاء التائهين والمستكبرين بوظائفهم الدينية، ليدفعوا بهم إلى مزيد من اعتقاد الولاية في حق أنفسهم، وإلى مزيد من الاستدراج على طريق الإعجاب بأنفسهم. فيقحموهم من وراء ذلك بأودية الهلاك ويدفعوهم إلى أحابيل الإهلاك.

والميزان الشرعي في هذا أن الكرامة الحقيقية التي تكون دليلاً على صلاح صاحبها وعلى تقواه وولايته، هي الاستقامة على شريعة الله والانضباط بأوامر الله المتجهة إلى إصلاح كلٍّ من الظاهر والباطن. فمن تمتع بهذه الاستقامة واصطبغ ظاهره وباطنه بجوهر العبودية لله وثبت على ذلك فهو الوليّ الذي عرفه الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣/١٠] بعد قوله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢/١٠].

وقد اجتمعت كلمة العلماء الصالحين الذين شهد لهم السلف الصالح بعلوّ المنزلة عند الله تعالى على أنه لا قيمة لحال من يُرى ماشياً على البحر، أو طائراً في الجو، أو مظهراً لما هو أغرب من ذلك من الخوارق، إن لم يتمتع بهذه الاستقامة على أوامر الله وشرعه ظاهراً وباطناً.

ذلك لأن الشياطين ييسّرون لأوليائهم من الخوارق مايفوق في الغرابة المشي على البحار والطيران في الهواء، فلا يكون ذلك دليلاً إلاّ على إغواء الشياطين لهم، والتحكم بهم.

فإن التبس عليك الأمر، ولم تعلم شيئاً عن حال صاحب هذه الخوارق أمستقيم هو أم لا، فانظر إلى موقفه من الخوارق التي تنسب إليه أو التي تظهر على يديه، فإن رأيته حريصاً على أن لا ينوّه ولا يأبه بها، يوصي من حوله بأن لا يتحدثوا بها ولا يرددوها عنه، مؤكداً في المناسبات بأن الخوارق التي تجري على أيدي بعض الناس لا أهمية ولا قيمة لها، إنما الأهمية تكمن في الاستقامة التي أمر الله بها رسوله،

فبعث ذلك الأمر في قلبه ﷺ من مشاعر الخشية وثقل المسؤولية، ماشيّبه كما قال ذلك عن نفسه. فاعلم أن هذا الموقف منه دليل على استقامته، وعلى أنه إنما يستنزل من عند الله لنفسه الكرامة الحقيقية التي عبرّ عنها البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٧].

أما إن رأيته يصطنع المناسبات ليذكر بها أو يستعمل أقصى درجات اللباقة ليستنطق بالحديث عنها والتذكير بها المريدين الذين من حوله، ويجعل من الحديث عن الخوارق وأنواعها وأهميتها، نسيج دروسه ومواعظه، ويصرّ على أن يغرس الثقة به في قلوب الناس عن طريق الخوارق التي يزعم أن الله يخصّه ويؤيده بها، فاعلم أنه مفتون بنفسه وأنه من هواة التبجيل والتمجيد وعلو المكانة بين الناس، وأنه إنما يتخذ مما يسميه الكرامات والمنامات وما قاله له رسول الله في المنام أو اليقظة، هالة دعاية أو دعوة لنفسه.

وإن رأيت أيّ خارقة ظهرت على يد واحد من أصحاب هذا الشأن فاعلم أنها استدراجٌ فتنه الله تعالى به. ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٦٨/٤٤-٤٥].

ولاتتوهمن أن الاستدراج إنما يبتلى به الكافرون فقط، بل إن الله قد يبتلي به كل من يسخر دينه عز وجل لأهوائه ومطامحه الدنيوية.

كثيرون هم الذين يحدثوني عن شيوخهم والكرامات التي يؤيّدون بها، وعن رؤيتهم لرسول الله في المنام والأقوال التي قالها لهم عليه

الصلاة والسلام، مما يعدّ شهادة منه على عظيم جاههم عند الله عز وجل.

ثم إنهم اليوم يخبروني برؤية شيوخهم لرسول الله ﷺ يقظة لا مناماً. ويطلعوني على الحوارات التي تجري بينهم وبين رسول الله، وعلى مواقفه ﷺ من كثير من الحوادث والمشكلات المعاصرة.

فماذا يقول الشرع في حق هؤلاء الناس؟ يقول الشرع في حق من يزعم أنه يرى رسول الله يقظة: إنه يجب أن يعزر.

ذلك لأن أياً من أصحاب رسول الله بعد وفاته أو التابعين أو تابعي التابعين أو تابعيهم، لم يزعم أنه رأى رسول الله يقظة، فيما وعاه التاريخ الإسلامي العام أو تاريخ التراجم.

ولو كان في الصالحين من هو أهل لأن يرى رسول الله يقظة، لكان رجال السلف الذين شهد لهم رسول الله بالخيرية والأفضلية، هم أولى الصالحين بذلك.

ونحن لا نستدل بهذا الذي عرفناه من تاريخ السلف الصالح، على أن رؤية رسول الله يقظة مستحيلة. معاذ الله، فرسول الله حيّ يتمتع بحياة برزخية متميزة عن حياة غيره من الأولياء الصالحين، وإمكانية رؤية أهل البرزخ عقلاً قائمة.

ولكن الإمكانية العقلية لها شيء، وادعاء وقوعها شيء آخر.

إن التاريخ لايعلم أن في العصور المفضلة الثلاثة، بل الأربعة، من ادعى هذه الرؤية.. فهي إما أنها لم تقع، أو إنها ربما وقعت لبعض منهم، ولكنه لم يزعمها لنفسه ولم يتحدث بها، لا في مجالسه الخاصة. ولا على الملأ وأمام عامة الناس، كما يفعل بعضهم اليوم.

إذن فالذي يدعي أنه رأى، أو يرى، رسول الله يقظة، في زماننا هذا ينبغي أن يعزر لأنه كاذب. إذ لو رآه فعلاً بناء على الإمكان العقلي، لكان إذن من أصلح الصالحين ولحملته حاله المتميزة من الصلاح والفضل والتقوى والقرب من الله، على أن يصمت ولايجلجل بهذا الأمر بين الناس، بل لا بدّ أن تحمله حاله تلك على أن لا يفتح فمه بهذا الخبر لأحد، وأن يزداد وجلاً وتواضعاً وخوفاً من الله عز وجل.

ولماذا يحدث الشيخ مريديه بمثل هذه المزاعم أو الأخبار؟!.

أمَا إنها لا تقنع مرتاباً بالحق، ولا تعرّف جاهلاً بالدين، ولا ترقق قلباً جللته القسوة، ولا تقرب فاسقاً إلى حظيرة التوبة والالتزام.

أغلب الظن أنه لا يملك حصيلة من العلم واسعة بدين الله عز وجل يردّ بها غائلة الجاحدين ويروي بها غلّة الجاهلين، ويحبّب بها الإيمان بالله إلى القلوب، فهو يغطي جهالته هذه بما يتسنى له من دعوى الخوارق والكرامات وأعاجيب التحويلات.

فلئن صح أن تكون هذه الدعاوى، أو حتى هذه العروض، من نوع العمل الإرشادي وجهود الدعوة إلى الله والتبصير بدين الله، فما أيسر أن تكون عروض السحرة وقرناء الجان، ومن تبعهم من الممخرقين وذوي المهارات اليدوية، مادة متميزة رائعة في عمل الدعوة الإسلامية والإرشاد الديني.

* * *

فإذا تبيّن لنا هذا، فإن النتيجة التي يريد ابن عطاء الله أن ينتهي بنا إليها هي أن على السالك أياً كانت مرتبته أن لا يفرح بالخوارق التي قد يجريها الله على يديه، وأن لا يلتفت إليها التفاتة فرح واهتمام.

فإنه إن فعل ذلك، كان كالطفل، وضع في حجره حبات ذات ألوان زاهية من السكاكر والحلوى، فهو يلهو ويفرح بها!.. وما أدراه أن الله يمتحنه بهذه الخوارق أفيلهو بها ويطمئن إليها وتعود به إلى طفولة إقباله على الله، وحداثة عهده بالسلوك على صراطه سبحانه، أم إن تعلقه بالله وشديد تعظيمه له وصادق شوقه إليه، كل ذلك يحجبه عن الاهتمام بتلك الخارقة والالتفات إليها، فيواصل طريقه سعياً إلى استنزال المزيد من رضا الله ومغفرته وعفوه. متناسياً بل ناسياً ذلك العارض الذي وقع له والذي لا يقدم ولا يؤخر أمام عظيم طموحاته وآماله.

فتلك هي حصيلة المعنى الذي تضمنه قول ابن عطاء الله: «..ولا تبرجت له ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر» أي إنما نحن مادة امتحانية سخرنا الله لامتحانك (وابن عطاء الله يستنطق الخوارق بهذا الكلام بأسلوبه البليغ كما ترى) فإياك أن تفتن بظواهرنا وأن تنسب لنفسك ما لا تملكه من تصرفات الله بنا. فإنما أنت في كل الأحوال عبد عاجز ضعيف؛ فالزم واقع عجزك وضعفك، وعد إلى مزيد من التبتل والانكسار على أعتاب مولاك وخالقك.

* * *

بقي أن نختم شرح هذه الحكمة بالتحذير مما عليه حال كثير من العوام من النظر إلى قيمة العالم أو المرشد الديني، من خلال ماقد يتراءى له أو ينسب إليه من الخوارق والكرامات، فإن كان ممن يتحدث الناس عن كراماته الخارقة، تفتحت له نفسه وشدّ الرحال إليه ووثق به، وصدّقه في كل ما يقول، وسلّم له كل أفعاله وتصرّفاته، دون أن يعود في شيء من ذلك إلى ميزان القرآن والسنة.

وإن لم يكن له نصيب من أقاويل الناس وحكاياتهم عن كراماته، ربما سألوا عن ذلك واستوضحوا.. حيطة منهم قبل أن يعرضوا عنه ويسيئوا الظن به، فإن تأكدوا أن الرجل ليس في كل من حوله من يروي عنه خارقة وقعت له، لم يشكّوا بأنه فارغ من الأسرار، بعيد عن الأنوار العلوية، وبأنه حديث عهد بالمعارف الدينية والعلوم الربانية، ومن ثم فلا بدّ أن يعرضوا عنه ولا يلقوا بالاً له!..

مقياس ولاية الأولياء عندهم ما قد عرفوا به ونسب إليهم من هذه الخوارق والأعاجيب.

ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من الأولياء الصالحين الذين شهد لهم السلف الصالح بالاستقامة والتقوى، نسجت من حولهم قصص وحكايات عن خوارق نسبت إليهم باسم الكرامات التي جاءت شاهداً على علو مكانتهم عند الله عز وجل.

وقد ثبت لدى التحقيق أن معظم تلك الحكايات مختلقة لا أصل لها، وإنما تخيلها ثم رواها عنهم مريدون محبون، دفعهم الحب إلى أن ينسبوا إليهم هذا الذي يعدّ في نظرهم الشرط الذي لا بدّ منه لحيازة العالم المرشد على وصف الولاية ومن ثم على لقب: الولي!..

وقد عرفت أن الحقيقة ليست كذلك!..

عندما ألفت كتابي (هذا والدي) في ترجمة حياة والدي الشيخ ملا رمضان رحمه الله، لم أعرّج فيه على ذكر شيء من الكرامات، ولم أنسب إلى والدي شيئاً منها... ولما ظهر الكتاب وانتشر، اطّلع عليه بعض الفضلاء الذين كانوا يترددون على والدي بين الحين والآخر، ممن يهمهم أمر الكرامات ولا يستطيعون أن يتخيلوا أي انفكاك بينها وبين صلاح الصالحين وتقواهم. فأقبل إليّ مستنكراً يقول:

كتابك هذا ناقص.. فأنت لم تتحدث فيه عن أهم ما كان يجب أن تحكيه عن الوالد!.. قلت: ماهو؟.. قال: كراماته العجيبة!..

قلت له: إنني تريثت كثيراً في تأليف هذا الكتاب مخافة أن لا يرضيه حديثي عنه. ثم إني استخرت الله واستشرت بعض الصالحين. فأشاروا إليّ بالمضي فيه، شريطة أن أسلك في حديثي عنه المنهج الذي يرضيه...

وأنا أعلم أنه كان شديد الكراهية للوقوف في تراجم الصالحين عند كراماتهم، وكان أشدّ ما يكون كراهية، عندما يجلس إليه من ينقب له عن خارقة أو كرامة.

ففيم تطلب مني أن أخلط عملي في إخراج هذا الكتاب بما يغض والدي ولا يسرّه، وهو في حياته البرزخية التي آل إليها؟

قال لي: ولكني سأتمم نقص كتابك، وألحق به الفصل الذي أسقطته أنت منه.

وغاب عني.. ثم أقبل إليّ بعد حين يحمل إليّ نسخاً من كتيّب سماه (الفصل الساقط من كتاب هذا والدي) ضمنه حكايات عن خوارق نسبها إلى والدي رحمه الله، ولا علم لي بها، ومن ثم لا أستطيع أن أثبتها ولا أن أنكرها.

لقد كان اهتمام هذا الأخ الفاضل بالحكايات التي رواها عن والدي، والتي لا تحمل في طيها أي إرشاد أو توجيه ديني أو علمي، وإنما تحمل روحاً من التسلية من خلال الغرائب التي فيها، أكبر بكثير من اهتمامه بالعبر والعظات التي تؤخذ من سيرة والدي، منذ هجرته إلى دمشق إلى الساعات التي ودع فيها الدنيا متجهاً إلى لقاء ربه عز وجل.

وإنها لآفةُ تعامُلِ كثير من العامة اليوم مع العلماء المعروفين بصلاحهم واستقامتهم وشدّة تعلقهم با لله عز وجل.

وإني لأقول لهؤلاء الأخوة: ماذا يفيدني في ديني وإصلاح حالي أن أصغي إلى قصة تقول: أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه، قدمت إليه مرّةً دجاجة مشوية، فلما أكلها جمع عظامها المتناثرة على المائدة، ثم قال لها: قومي بإذن الله، فقامت للتوّ دجاجةً حية، وانطلقت تخفق بجناحيها؟

ولكن كم وكم يفيدني في إصلاح حالي، وإيقاظي من غفلات الأهواء، إلى مصيري الذي أنا مقبل إليه، وفي ترقيق قلبي بعد القسوة التي غلف بها، أن أصغي إلى عظاته ونصائحه الفواحة بعبير الإخلاص وحرقة القلب الملتاع بمحبة الله عز وجل، في مجلس من مجالسه الإيمانية الرائعة، في كتابه ((الفتح الرباني والفيض الرحماني))!...

فلماذا أضيع الوقت في تسلية من خلال سماع حكاية، لا أدري أصحيحة هي أم مختلقة، وأحرم نفسي من نصائح عقلانية ونورانية تمخر الكيان مني إلى مقرّ القناعة في العقل وإلى منتهى التأثر في سويداء القلب؟!..

* * *

الحكمة الحادية والعشرون

((طَلبُكَ منْهُ اتِّهامٌ لَهْ. وطلبُكَ لَهُ غيْبَةٌ مِنْكَ عنْه. وطلبُكَ لِغَيرِه لِقِلَّةِ حيائِكَ مِنْه، وطلبُكَ مِنْ غيرِه لِوُجُودِ بُعْدِكَ عنْه))

هذه الحكمة تتألف من أربع فقرات، لكل منها معنى مستقل. فلنبدأ بشرح **الفقرة الأولى** منها: ((**طلبك منه اتهام له**)):

قضت محكمة نمرود على سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، بالحرق لأنه كسّر أصنامهم.. وجيء بالحطب الكثير فأضرمت فيه النيران، حتى ارتفعت ألسنة اللهب واشتدّ أواره، وجيء بسيدنا إبراهيم مقيداً ووضع في المنجنيق (القاذف) ليلقى به منه إلى تلك النيران الموقدة.

فهل في الساعات التي يحتاج فيها العبد إلى ربه عز وجل كهذه الساعة التي مرّ بها سيدنا إبراهيم احتياجاً إلى لطف الله وحمايته؟!..

ومع ذلك فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام لم يتجه إلى ربه عز وجل بأي طلب. بل قال وهو يرمى به في النار: حسبي الله ونعم الوكيل[1].

وهذه الكلمة استسلام لأمر الله وحكمه، وليس فيها رائحة طلب لشيء.

فما الذي صرف خليل الرحمن عن المسألة وطلب النجاة من عتو نمرود وبطشه؟..

---

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس.

إنه حالٌ هيمنت عليه في تلك الساعة، ألجمته عن السؤال..

كان يعلم أنه إنما حكم عليه بهذا العقاب الفريد من نوعه لأنه انتصر لوحدانية الله بكل ما أوتي من وسيلة وقدرة. وهو يعلم بأن الله عز وجل لا بدّ أن يبادل حبه لذاته العليّة بحبه الذي هو أجلّ وأقدس، بل هو الأسبق في قضاء الله وعلمه، وهل يتخلى المحب عن محبوبه، بل هل يتخلى المحبوب جل جلاله عن عبده الذي يحبه؟ هيهات، بل معاذ الله!...

لقد كان سيدنا إبراهيم إذن واثقاً الثقة التامة بأن مولاه الواحد المحب المحبوب لن يتخلى عنه.

وهذا هو معنى قوله: حسبي الله ونعم الوكيل.

إنها كلمة الواثق برحمة الله المطمئن إلى حمايته له ودفاعه عنه وانتصاره له، فكيف يتجه إليه بالمسألة والطلب مع ذلك؟!..

إن حاله التي كان فيها من عظيم الثقة بلطف الله وبانتصاره له وتداركه له بالحماية، يتناقض بشكل حاد مع الطلب الذي يفترض أن يتوجه به إلى الله عز وجل.. فطلبه في هذه الحال التي هو فيها إنما يفسر باتهامه الله عز وجل بأنه لن يتداركه بالحماية من بطش نمرود إن هو لم يطلب منه ذلك. وصاحب هذه الثقة يتبوء مركزاً سامياً عند الله عز وجل.

يشير إليه الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله عن ربه عز وجل: ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي

السائلين»[1] إذ المراد بالذكر هنا شدّة ثقة العبد بالرب، واستغراق القلب في هذه الحال.

قلت لك: هذه حال تنتاب العبد المؤمن بربه عز وجل من جراء وضع مرّ به أو عمل قام به، فضاعف ذلك من ثقته برحمة الله وحمايته ونصره وتأييده. وتلك هي الحال التي هيمنت على سيدنا إبراهيم فألجمت فاه عن التوجه إلى الله بالمسألة والطلب.. والأمر أو العمل الذي أورثه تلك الحال انتصاره لدين الله ووحدانيته، عندما أقبل فكسر كل تلك الأصنام وجعلها جذاذاً متناثرة. إنه -وقد انتصر لمولاه وخالقه- أيقن أنه عز وجل ناصره وأنه لن يتخلى عنه، فكيف يسأله مع ذلك سؤال الخائف المرتاب.

ولكن هذه الحال قد تغيب لتظهر في مكانها حال أخرى تتجلى من خلالها مشاعر العبودية لله عز وجل خوفاً من مقت الله وغضبه وتحسباً لعقاب يرى العبد أنه متعرض له، وذلك لتقصير وقع فيه أو لسوء بدر منه، فتدفعه هذه الحال إلى أن يلوذ بكرم الله وصفحه، وإلى أن يرجوه الصفح عن زلاته والعفو عن تقصيره، ومغفرة ذنوبه وما وقع فيه من سوء.

وقد تجلت في حياة سيدنا إبراهيم هذه الحالة الثانية، كما تجلت فيها الحالة الأولى التي وصفتها لك.

تأمل في كلامه هذا الذي يرويه عنه ربّه عز وجل بعد أن جادل قومه وأباه في مسألة الأصنام التي يعبدونها: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاّ رَبَّ

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ، والبيهقي في شعب الإيمان، والبزار في مسنده من حديث عمر بن الخطاب.

الْعالَمِينَ ، الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٧٧-٨٢].

إذن فالحال التي انتابت سيدنا إبراهيم هنا هي الخوف من تقصيره في جنب الله والخوف من عواقب ما يسميه خطيئة ارتكبها فاستحق بها العقاب.. إن من الطبيعي أن تدفعه هذه الحال الثانية إلى أن يبسط كفيه بالدعاء تذللاً وانكساراً بين يدي الله عز وجل، وهذا ماحكاه عنه بيان الله عز وجل بعد أن تحدث عن خطيئته وطمعه بمغفرة الله له، إنه يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ ، وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضّالِّينَ ، وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ، إلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٣-٨٩].

وعن هذه الحالة الثانية يتحدث ابن عطاء الله في حكمته الأخرى الآتية قائلاً: ((**لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقلَّ فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحق الربوبية**)).

إذن هما **حالتان تعتريان المؤمن**:

إحداهما تبعث فيه الخجل من الطلب والدعاء، وذلك عندما يوحي الطلب بضعف ثقة الطالب أو السائل بربّه عز وجل، وما قد ألزم به ذاته العليّة تجاهه.

الأخرى تبعث فيه الخوف مما يرى نفسه مستحقاً له من الزجر الإلهي والتأديب الرباني، فيدعوه ذلك الخوف إلى الانكسار والتذلل

على أعتاب الله عز وجل، وإلى أن يسأله التفضل بالصفح عن إساءاته وزلّاته وأي الحالتين تعرّض لها المؤمن، فإنها على كل حال لا تكون إلّا من ثمرة صدق العبودية لله تعالى. والمؤمن الصادق المتفاعل مع إيمانه، لا بدّ أن يتقلب، من علاقته بالله عز وجل، في إحدى الحالتين.

* * *

ثم ينتقل بنا ابن عطاء الله إلى **الفقرة الثانية** فيقول: ((**وطلبك له غيبة منك عنه**)).

طلبك له.. أي بحثك عنه. تقول: طلبت فلاناً، أو طلبت آية في كتاب الله، أي فتشت وبحثت عنها أو عنه.

وإنما يكون طلب الشيء عند غيابه، وإلا فلا معنى لطلبه؟

فمتى كان الله غائباً حتى يطلب أي حتى يبحث عنه؟!..

لقد سبق أن أكد ابن عطاء الله في الحكمة السادسة عشرة أن الله عز وجل ليس محجوباً بشيء عن بصيرة الإنسان وعقله.

إذ ما من شيء يفترض أن يكون حجاباً عن الله تعالى إلا وهو دليل عليه، فكيف يكون الدليل على الشيء حجاباً دون رؤيته أو العلم به؟!..

وتأمل في دقة التعبير في قوله: ((...غيبة منك عنه)) إنه يقول لك: عندما تجد نفسك في حالة تحتاج فيها إلى البحث عن الله، فاعلم بأنه ليس غائباً عنك وراء حجاب قد حجبه عنك، ولكنك أنت الغائب عنه داخل سجن من الجهالة أو التيه أقصاك عنه... إذ إن الذي عَشِيَتْ

عيناه عن رؤية ما هو موجود أمامه، لا يقال إن الموجود غائب عنه، ولكن يقال إنه هو الغائب عن الموجود، إذ الحجاب يتمثل في ضعف لاصق به، وليس متمثلاً في غشاء مسدل على الموجود.

وتلك هي حال من عَشِيَ عقله، بسبب استكبار هيمن عليه أو عصبية استعبدته، فلم يعد يؤمن بوجود الخالق عز وجل، وراح يسأل: أين هو؟ دلّني عليه.

قل له: إنه أمامك، بل إنه ملء بصيرتك وإدراكك، ولكن فلتمزق العصابة التي عصبت بها بصيرتك، بتحررك من الاستكبار الذي ران عليك، تعلم عندئذ أنك أنت الذي كنت غائباً عنه داخل سجن مظلم من كبريائك.

وما أعتقد أننا بحاجة إلى مزيد شرح لهذه الفقرة، بعد الذي ذكرناه مفصلاً ومطولاً في شرح الحكمة السادسة عشرة.

* * *

أما **الفقرة الثالثة**، فيقول فيها ابن عطاء الله: ((**وطلبك لغيره لقلة حيائك منه**)).

((الغير)) هنا تشمل الأشخاص أو الكائنات التي يتوهم أن لها فاعلية مع الله أو من دون الله، كما تشمل الأعراض والمتع التي يبتغيها ويتعلق بها الإنسان من دون الله عز وجل.

فمن تأمل في هذه المكونات وعظيم إبداعها ورائع نظامها، ودقائق أهدافها، ثم ابتغى لها خالقاً ومنظماً من دون الله عز وجل، فقد بالغ في جرأته على الله وعدم الاستحياء منه.

ولا يشترط لابتغاء غير الله أن يذهب هذا المبتغي في البحث عن غيره مذهب الملاحدة والمنكرين لوجود الله عز وجل، بل يدخل في ذلك، على حد تعبير ابن عطاء الله هنا، من صدّق بسببية حقيقية بين الخالق ومخلوقاته، فأضاف الغذاء إلى فاعلية القوت والنبات، وأضاف فاعليتها إلى فاعلية السحب والأمطار، وأضاف فاعليتهما إلى أبخرة البخار، موقناً بأن لتلك السلسلة من الأسباب الجعلية الظاهرة، فاعلية حقيقية طبيعية أو فاعلية أودعها الله في الأشياء ثم تركها تفعل فعلها.

إن على الموقن بوحدانية الله عز وجل أن يعلم أن الله واحد في ذاته العلية، وواحد أيضاً في صفاته السنية كلها، فلا يشركه في تلك الصفات شيء.

وهذا التوحيد يستلزم أن تعلم أن ما نظنه أسباباً، في نظام هذه المكونات إنما هو اقترانات شاءها الله تعالى بين سابق ولاحق، استمرت وتكررت، فتبدّى لنا من ذلك التكرار المستمر أن السابق منهما سبب والمتأخر منهما مسبَّب.

ولو شاء الله عز وجل لفك عرى هذا الاقتران بينهما، فظهرت الحقيقة التي لايجوز أن تغيب عن البصائر، وهي أن الخالق للسابق واللاحق والعلاقة السارية بينهما (إن كانت ثمة علاقة) هو الله عز وجل.

إذن فتجاهل هذه الحقيقة، وابتغاء الباحث لمسبب غير الله، معه أو من دونه، إنما هو من جرأته على الله تعالى وقلة حيائه منه.

ثم إن كلمة (غير) تشمل كما قلنا الأعراض والمتع الدنيوية بل الأخروية أيضاً عندما يتوجه إليها الإنسان ويطلبها من دون الله تعالى.

✿ بلغني مما روي عن رسول الله ﷺ أن من داوم على قراءة سورة الواقعة، وقاه الله من الفقر، فاندفعت إلى قراءة السورة والمداومة عليها، (وقد كنت من قبل معرضاً عنها غير آبه بها، كشأني بالنسبة للسور الأخرى في القرآن) لا تقرباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه والإصغاء إلى خطابه وروائع مناجاته، ولكن وسيلةً أستدرُّ بها الرزق والمال.

لا ريب أن هذا يدلّ على قلة حيائي من الله عز وجل.

✿ قرأتَ في القرآن كلام الله عن الجنة ونعيمها، وأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فاستهواك ذلك النعيم وتعلقت آمالك به، ثم علمت أن لا سبيل لك إليه إلا إن أديت ما قد افترضه الله عليك من واجبات وأعرضت عما حذرك الله منه من محرمات، فتوجهت إلى الالتزام بذلك كله، لا لشيء إلاّ رغبة في الحصول على ذلك النعيم الخالد الذي أخبرك الله عنه فآمنت به. بحيث علمت من نفسك أنك إن أيقنت أن طاعاتك ستذهب هدراً ولن تنال من ورائها هذا الذي تحلم به، فلن تلقي بالاً لها، ولن تستجيب لأوامر الله التي يخاطبك بها، أو بحيث علمت أنك إن أيقنت أنّ بوسعك أن تحتال للوصول إلى ذلك النعيم دون أن ترهق نفسك بشيء من هذه الطاعات والالتزامات، فلسوف تستعمل تلك الحيلة قفزاً فوق الالتزام بأوامره عز وجل..

فاعلم إذن أن هذا دليل على قلة حيائك من الله عز وجل، بل هو دليل على جرأتك عليه!..

ولكن إياك أن تسيء فهم هذا الكلام الواضح الذي لا يمتري فيه عاقل آمن بعبوديته لله وبربوبية الله له، على غرار بعض الأغبياء أو المتغابين، فتظن أن المطلوب من العبد المؤمن أن لا يطلب الجنة وأن لا يستجير من النيران، فهذا الشرق الذي قد تتوهمه، لا علاقة له بالغرب الذي نتحدث فيه.

لقد أطمعنا الله بجنته، إذن يجب علينا أن نطمع، فيها وأن نسأله باستمرار أن يَمْتَنَّ علينا بها، وهذا من كمال عبودية الإنسان لله..

ولقد حذّرنا وخوّفنا من ناره، إذن يجب علينا أن نستشعر الخوف الحقيقي منها وأن نستعيذ بالله منها، وهذا أيضاً من كمال عبودية الإنسان له عز وجل.

ولكن عليك في كلا الحالتين أن تجعل عبادتك لذاته العلية، لأنه ربك ولأنك عبده، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥] بحيث توطن نفسك أن لا تبارح بابه عبداً صاغراً ذليلاً تؤدي كل مايطلبه منك جهد استطاعتك، مهما فعل بك وقضى عليك، فإنما أنت في كل الحالات عبده، وهو في كل الحالات ربك لا ربّ لك سواه.

ربما ساقك الضعف والشعور بالحاجة إلى أن تطلب منه اللطف بك والصفح عنك، وصرف السوء عنك، والفضل عليك بالمن والمغفرة والعطاء، لا حرج.. بل هذا هو شأن العبد تجاه ربه..

ولكن ليس لك قطّ أن تجعل التزامك لأوامره مشروطاً بما تطلبه من عطاياه.

فالعبد لا يملك أن يشرط على ربه شيئاً.

أليس هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، والذي شرحته لك بهذه الأسطر من بدهيات الحقائق التي ما ينبغي أن تغيب عن بال عاقل آمن بأنه عبد لله؟

إذن فما الذي زادته رابعة العدوية على هذه الحقيقة أو نقصته منها عندما كانت تناجي ربها قائلة: اللهم إني ماعبدتك خوفاً من نارك ولاطمعاً في جنتك ولكني علمت أنك رب تستحق العبادة فعبدتك.

وأنت تعلم، إن كنت ممن تتبعت أدعية رابعة في عباداتها وخلواتها، أنها كانت كثيرة الاستجارة من عذاب الله والبكاء عند الآيات التي يصف الله فيها عقابه الذي توعد به الجاحدين والمستكبرين، وكانت كثيرة الأمل برحمة الله والطلب لمغفرته وأن يكرمها بجنته.

ولكن فلتعلم أن هذا الطلب والاستجداء شيء، وأن ربط العبادات والطاعات بشرط الجنة شيء آخر، فلايذهبن بك الغباء مذهباً تخلط فيه بين هذا وذاك.

ولايُدْخلنَّ عليك شيئاً من الوهم تجاه هذه الحقيقة الواضحة، مايفهمه بعض الناس خطأ من قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢].

فربط الجنة، جزاءً، بالعمل الصالح، إنما هو بالتفضّل من طرف واحد، إن صح التعبير، وهو الله عز وجل، وليس باتفاقية تَمَّتْ من

طرفي العبد والرب جل جلاله!.. إنه من قبيل قول الله عز وجل: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥].

فهل بوسعك أن تفهم من هذه الآية أن عقداً حقيقياً من الاستقراض والإقراض يجري ما بين الله تعالى وعبده، يُلْزَم الله بموجبه أن يعيد ما اقترضه من عبده ومعه أضعاف مضاعفه؟!.. وهل يملك العبد شيئاً حتى يقرضه لربه؟!..

المسألة ليست إلا تعبيراً حلواً عن لطف الله وتفضله إذ جعل جنته حقاً لمن يؤدي ما افترضه الله عليه. وإلاّ فقل لي كيف تستطيع أن تجمع وتنسق بين تفضل الله عليك بهذا العطاء، وبين تسمية هذا الذي يتفضل ويمتنّ به عليك حقاً تستوجبه؟

وإليك هذا المثل المقرب، ولله المثل الأعلى، رجل غني كريم مرّ في طريقه بفقير منعته العفة عن المسألة، فوضع أمامه بين أيدي المارة هناتٍ رخيصة تافهة كعلب كبريت، دفاتر صغيرة، أقلام رصاص.. تحركت الرحمة في قلب الغني الكريم له، ولم يشأ أن يحرج مشاعر عفته، فاشترى منه واحدة من تلك العلب ونقده قيمةً لها، ورقة من فئة الألف ليرة.

هل في الناس من يجهل أن هذا العقد إنما جرى من طرف واحد، هو الغني الكريم الذي أصرّ على أن يغطي إكرامه بصورةٍ لعقد شراء؟

فيا عجباً لهذا الفقير إن بلغ به الغباء إلى أن تغيب عنه هذه الحقيقة، وأن يتصور أن عقد بيع حقيقي جرى بينه وبين هذا الذي جاء ملهوفاً

ليشتري منه ما هو بـأمس الحاجـة إليـه مـن علبـة الكـبريت الـتي لـو لم يتفضل عليه الفقير فيبيعها له بألف ليرة سورية، لوقع المشتري من ذلك في ضيم لا مفرّ له منه!..

أليس الذي يتصور أن عقداً حقيقياً جرى بينه وبـين ا لله عـز وجـل ينصّ على أنه إن نفذ المطالب والأوامر التي خاطبه ا لله بها، استحق في مقابل ذلك الجنة التي وعده ا لله بها طبقـاً للمواصفـات الـتي التزم لـه بها، نسخة طبق الأصل لذلك الفقير المغرور الذي توهم أنه إنما استحق الألف ليرة ثمناً لعلبة الكبريت التي باعها؟!..

ومع ذلك فإن على من ظل الوهم راكباً رأسه أن يدرك قول رسول ا لله في الحديث الصحيح: ((لن يُدخل أحدَكـم الجنـة عملـه، قـالوا ولا أنت يارسول ا لله؟ قال: ولا أنا. إلا أن يتغمدني ا لله برحمته))[١].

* * *

ويختم ابن عطاء ا لله حكمته هـذه بقولـه: **وطلبـك مـن غـيره لوجـود بعدك عنه.**

قد تكون لك حاجات أو رغبات تطلبها، والمفروض في هذه الحالـة أن تطلبها منَ الواحد الذي لا يملك أن يحققها لك غـيره، فـإن تحولـت عنه، وطلبتها من غيره، فإنما ذلـك بسـبب بعـدك عـن ا لله عـز وجـل. وليس المراد بالبعد هنا، البعد المكاني الذي تحدّه المسافات، وإنمـا المـراد الجهل به أو النسيان له.

إذ لو لم تكن جاهلاً به أو ناسياً له، لعلمت أنه لا نافع ولا ضارّ في الكون غيره، ولأيقنت أن كل ما يتم في الكون من حركات وسكنات

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

وتقلبات وأحوال فبتدبيره وبأمره يتم. والكل جنود له لا يخرجون عن مشيئته وحكمه قيد شعرة.

وليس المراد أيضاً بالطلب الذي يحذر منه ابن عطاء الله هنا، تعاملك مع نظام الأسباب والمسببات، كما قد أقامه الله في هذه الحياة الدنيا، وإنما الذي يعنيه توجه القلب والعقل إلى ما سوى الله باعتقاد أنه ذو أثر أو فاعلية من دون الله عز وجل.

ولشرح هذه الفقرة ينبغي أن نعلم أن الإنسان مكلف بصدد هذه المسألة **بموقفين**: موقف اعتقادي، وموقف سلوكي.

أما **الموقف الاعتقادي** فيتلخص فيما قلته لك: أن يعلم جازماً أن لا نافع ولا ضارّ ولا محرّك ولا مسكّن في الكون كله إلاّ الإله الواحد الذي فطره، وكيف يكون شريكاً مع الله في شيء من ذلك من لم يكن موجوداً ولم يكن شريكاً معه في الخلق والإبداع.

ولست بحاجة إلى عرض الأدلة العقلية والنقلية بعد الذي بينته لك من ذلك من قبل.

فإن غاب عنك شيء منها، فعد إلى ماذكرته لك في تفسير قول الله تعالى عن ذاته العليّة «القيوم» وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٥] وفي تفسير قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٣٥/٤١].

ثم كيف يصدّق العقل، أو يتصور، أن ينهض المخلوق، فيصبح شريكاً مع خالقه، أو أن يقوم بالتنظيم والتدبير مقام خالقه؟!..

كيف يتصور أن يكون الموجود الضعيف الذي ظهر وجوده بين ضعفي عدم سابق وعدم لاحق، ذا قدرة في التدبير أو التحريك؟!..

من أجل هذا وجه سيدنا رسول الله ﷺ نصيحته الغالية هذه إلى سيدنا عبد الله بن عباس قائلاً: ((ياغلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))(١).

وأما **الموقف السلوكي**، فيتلخص في ضرورة الانسجام والمواءمة مع النظام الذي سيّر الله كونه هذا عليه، أعني نظام السببية الذي أقيمت علاقة الأشياء بعضها مع بعض على أساسه.

فأنت ترى فيما يبدو لك أنه ما من ظاهرة تبدو على مسرح هذه الدنيا إلا وهي متأثرة بظاهرة قبلها ومؤثرة في أخرى تأتي من بعدها. لا يشذّ عن ذلك شيء اللهم إلا الخوارق النادرة التي يقضي بها الله في كونه لحكم وأسباب، كالتي تقع للرسل والأنبياء.

إن الواجب الذي يكلف الله به عباده، هو التعامل الإيجابي مع هذا النظام والانسجام معه..

لقد قضى الله تعالى أن يخلق الشبع في الإنسان عندما يتناول قدراً معيناً من الطعام، إذن فعلى المسلم أن يتخذ طريقه إلى الشبع بهذه

---

(١) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عباس، وقال عنه: حسن صحيح.

الوسيلة، ولقد قضى الله أن يخلق في كيانه الريّ بعد الظمأ، عندما يتناول فيشرب كأساً من الماء، إذن يجب عليه أن يتخلص من الظمأ المهلك بهذه الوسيلة، وقضى أن يخلق فيه الشفاء من المرض عندما يتناول الدواء الذي قرر الأطباء أهميته وجدواه، إذن ينبغي أن يتداوى كما أمر بذلك رسول الله.. ولقد قضى الله أن يخلق الاحتراق عند ملامسة النار، وأن يخلق الموت عند تجرع السم، إذن يحرم على الإنسان أن يعرض نفسه للوقوع في النار أو لتناول السم.

ومن زعم أنه لا يريد التعامل مع هذه الأسباب الظاهرية أو (الجعلية) كما يسميها علماء التوحيد، لأنه يتعامل مع عقيدته التي لا يرتاب فيها، وهي أن النافع والضار هو الله عز وجل، فهو مثلاً لا يريد أن يأكل إن جاع ولا يريد أن يشرب إن ظمئ، ولا يريد أن يتقي النار المحرقة ولا السم المهلك، فهو قليل الأدب مع الله، إذ يتدلل عليه بما لا حَقَّ له فيه و لم يخوّله أي سبيل إليه.

قضى الله أن يربط الأشياء بعضها ببعض ربطاً صورياً، لحكمة باهرة بوسعك أن تطّلع عليها في كتب العقيدة، وإنما يريد هذا المتدلل على الله بما لم يأذن له فيه، أن يقول له: أنا أعلم أنك أنت الذي تحرق، لا النار، وأنت الذي تهلك لا السم، وأنت الذي تروي الظمآن لا الماء. وقد قررت أن أتعامل مع الكون بناء على ما أعتقد، لا بناء على ماتظهر وتنظم. فأرني الحق الذي أعتقده، ولا تعاملني حسب النظام الذي تقود به المخلوقات!!..

فمن أنت حتى تتجرأ عليه وتطلب منه أن يتخلّى عن قراره الذي اتخذه للسير بالمكونات على أساس من رابطة العلل الشكلية أو الجعلية،

وأن يشبعك بدون طعام ويرويك بدون ماء، ويشفيك بدون دواء، وأن يحميك من السم إن تجرعته، ومن النار إن اقتحمت فيها... إلخ؟؟..

هذا الدلال الممجوج الثقيل، لم يدْن إليه بأي التفاتة لا الرسل والأنبياء ولا الربانيون الصادقون من علماء هذه الأمة..

وإن وجدت من صبغ نفسه بصبغة التصوف: أو سمعت بترجمته في غابر الأزمان، وكان من عادته أن لا يلتفت (في سلوكه) إلى عالم الأسباب، لأنه مصرٌّ على أن يقنعك بأنه دائماً مع المسبب، فاعلم أنه معطّل للشرع، وأنه جاهل بمبادئ التوحيد وقواعده، وأنه يتسامى على الرسل والأنبياء بمتطلباته التي يتدلل بها على الله عز وجل.

نعم... يجب على المسلم أن يتعامل مع الأسباب تحت سلطان الشرع وضمن قيوده وضوابطه. أي يتعامل معها ويبحث عن السبيل إليها، مادام الشرع يأمر بذلك، أو لا ينهى عن ذلك على أقل تقدير.

فأما عندما يتعارض حكم شرعي ثابت مع الأخذ بسبب ما من الأسباب فإن القيمة التي كان الشرع قد أولاها لذلك السبب تؤول إلى السقوط. كأن يهرع إلى الدواء الذي وصفه الطبيب له، فعلم أنه مسكر، فإنَّ أَخْذَهُ بذلك السبب يغدو محرماً بالاتفاق[1].

وكأن يهرع إلى السوق ليمارس أعماله التجارية، دون أن يبالي بدخول وقت الظهر من يوم الجمعة، محتجاً بأن على المسلم أن يتفاعل

(١) هذا ما لم يثبت أنه لاعلاج لذلك الداء غيره، كما قرر ابن عابدين في حاشيته والعز ابن عبد السلام في كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، انظر كتابي مع الناس ص٦-٧.

وينسجم مع ما قد قضى الله به من نظام الأسباب والمسببات، ومثل ذلك أن يأخذ من حساب واجباته الدينية، لأعماله ووظائفه الدنيوية، وكأن تصرّ المرأة على الخروج إلى العمل والكسب، في جوّ موبوء لا تملك فيه المحافظة على الواجبات الشخصية التي كلفها الله بها.

ففي هذه الصور وأمثالها، تسقط شرعية الاهتمام بالأسباب، وتبرز في مكانها فاعلية العقيدة التي يجب أن لا تغيب عن بال المسلم في كل الأحوال، وهي أن الله هو وحده مسبب الأسباب، وإن هي إلا روابط شكلية أقامها الله عز وجل، نوليها الأهمية عندما يأمرنا بذلك الشرع الإلهي، ونعرض عنها تعاملاً مع الحقيقة عندما ينهانا عن ذلك الشرع.

فإن أقامك الله في عالم الأسباب، وأحاط بك نظامها، فَسِرْ مع مقتضاه، وابحث عن المسببات من خلال سعيك وراء الأسباب.

وإن أقامك الله في عالم التجريد، وتخلّت عنك الأسباب وبعدت عنك ظروفها، فعد إلى الأصل واركن إلى المسبب، وانتظر العطاء والفرج من المسبب عز وجل.

وفي كلا الحالين، لا تعلق فؤادك إلاّ بمولاك الذي بيده كل شيء والذي إليه مردّ كل شيء، وردد مع المنشد قوله:

لاتعلق بسواه أملاً إنما يسقيك من قد زرعك

* * *

الحكمة الثانية والعشرون

((ما من نفَس تبديه إلاّ وله قدر فيك يمضيه))

النَفَس هو هذا الهواء الصاعد والنازل من وراء صدرك. وهو يتألف من شهيق وزفير.. وحياة الإنسان إن هي إلا مجموعة أنفاسه. وإنما تتحقق أعمال أحدنا وأقواله وتصرفاته وأنشطته، في ساحة هذه الأنفاس التي يتمتع بها.

إذن، فابن عطاء الله يخاطب كلاً منا من خلال حكمته هذه قائلاً: يا ابن آدم، إن كل تقلباتك وكل أحوالك الصغيرة والكبيرة الخفية والمعلنة، داخل في قضاء الله وقدره، بحيث ماتكاد تطلق شهقة ثم زفرة إلا وهو داخل في سجلّ علم الله عنك.

وأساس هذا قول رسول الله ﷺ: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس))[1] ومن ثم فإن معرفة هذه الحقيقة واليقين بها من أوليات العقيدة الإسلامية.

أما ثمرة تشبع المسلم بهذه الحقيقة، فهي أنه يستريح بذلك ويريح. على أن لا ينسى ما قلناه من ضرورة التعامل مع الأسباب لا اعتماداً عليها ولكن تأدباً مع الله عز وجل في الخضوع للنظام الذي سيَّر هذه المكونات على أساسه.

ينهض المسلم بما كلفه الله به، ويبحث عن المسبَّبات عن طريق التعامل مع أسبابها، فإن هو وصل إلى مبتغاه حمد الله عز وجل موقناً

---

(١) رواه مسلم وأحمد، من حديث عبد الله بن عمر.

بأن الله هو المتفضل عليه، وإن لم يصل إليه استسلم لحكم الله موقناً أن الله لم يقدّر له في سابق غيبه وعلمه هذا الأمر، واستراح من القلق والاضطراب متذكراً قول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

ومن ثمرات تشبع المسلم بهذه الحقيقة أنه لا يبالي أن يغامر في سبيل ما شرعه الله له أو أمره به، بجسده وراحته، بل بماله وحياته إن تطلب الأمر ذلك، إذ هو يعلم أن ما قد سجل في علم الله وغيبه القديم لا بدّ أن يجري ويتم، سواء أعرض عما ينبغي أن يفعله وتكاسل، أو أقبل وغامر.. إذن فالكسل غير وارد، لأن الله قد أمره بالسعي والعمل وبذل كل ما يملك من جهد، مادامت الغاية مشروعة أو مطلوبة، والإقدام لا حاجة إلى الخوف من نتائجه وأخطاره، مادام المقدّر لا بدّ أن يجري وأن يتحقق في ميقاته.

والنتيجة أن يلتزم المسلم الذي أيقن بهذا، بميزان الشرع في إقدامه وإحجامه، ثم لا يبالي بشيء من المخاوف التي قد تصيبه أو تطوف به.. وتتجلّى هذه النتيجة أكثر ما تتجلى، في أنشطة المسلمين، في العصور الغابرة على طريق الجهاد والدعوة إلى الله عز وجل والعمل على نشر المبادئ والقيم الإسلامية، الاعتقادية منها والحضارية. فقد ضربوا الأمثلة المدهشة في المغامرة بالمال والحياة ومفارقة الأوطان والتعرض لشتى الأخطار، وها هم أولاء قد تناثرت قبورهم في أنحاء العالم الإسلامي الذي لم يكن إسلامياً آنذاك.

ولو ساءلت نفسك عن السرّ الذي حملهم على كل ذلك، لعلمت بدون كثير تأمل أو جهد أنه الالتزام بأوامر الله أولاً، والاستهانة بالأخطار على تفاوتها وتنوعها ثانياً، ولكن، فمن أين جاءت تلك الاستهانة؟.. لا ريب أنها إنما جاءت من اليقين بأن كل ما سيواجه الإنسان في حياته ليس إلا مصداقاً لقضاء الله وقدره.

* * *

بوسعك أن تعلم إذ أن كل مايجري في حياة الإنسان، من أعماله وتصرفاته الاختيارية، وشؤونه وأحداثه الاضطرارية، مرآة دقيقة للقدر المغيّب عنا في علم الله عز وجل. وليس في شؤون الإنسان وتصرفاته ما هو داخل في هذه المرآة وما هو خارج منها، بل الكل مرآة دقيقة لقدر الله عز وجل.

ولكن كثيراً من المسلمين يظلون ويا للأسف في جهالة عمياء تجاه هذه الحقيقة التي هي من أوليات الدين.

تسألني فتيات هذا السؤال الدائم: هل الزواج قسمة ونصيب؟

أقول: ما معنى قسمة ونصيب، تقول السائلة: يعني أهو قضاء وقدر؟

ويسألني السؤال نفسه كثير من الشباب!!..

تقع حادثة ما، وينتهي التحقيق في التعرف على حقيقة الحادثة وأسبابها، إلى أنها قضاء وقدر!.. أي ليس لها خلفيات مسبِّبة. ومعنى ذلك أن الحادثة لو كانت مستندة إلى خلفيات مسببة، إذن لما كان لها علاقة بالقضاء والقدر!..

وقد انتشر هذا التصور الأخرق، حتى غدا ذلك مصطلحاً يعتمده كثير من القانونيين والمحامين، في تقسيم الحوادث إلى ما له سبب جرمي وإلى ما ليس له سبب جرمي.

كل هذا... ورسول الله يقول في الحديث الصحيح والمعروف: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)).

* * *

ولكن ما القضاء والقدر؟

هذا أيضاً مايتيه أكثر المسلمين عن معرفته اليوم. وأظن أن تيههم هذا هو سبب جهلهم بأن كل شيء في الدنيا بقضاء وقدر.

القضاء هو علم الله بكل ماسيجري في الكون، أي مستقبلاً، من الحوادث الطبيعية، والتصرفات البشرية القسرية منها والاختيارية.

والقدر وقوع هذا الذي تعلق به علم الله تعالى، مطابقاً لعلمه، إذن فالقضاء هو علم الله بكل ماسيجري مستقبلاً.

والقدر هو المرحلة التنفيذية لذلك المعلوم الذي كان مخبوءاً في غيبه عز وجل.

وهل يساورك شك في أن الله يعلم ماسيجري في ملكوته، وهل يجري شيء ما في ملكوته إلا بخلقه وقدرته، فكيف لا يحيط علمه بما قرر أو (خطط) خلقه أو إعدامه أو تكييفه؟ وليس قضاء الله عز وجل أكثر من علمه بما قد قرر فعله.

فإذا علمت أن قضاء الله هو علمه بما سيكون، علمت أن القضاء لا علاقة له بالجبر أو الاختيار كما يتوهم كثير من الناس. إذ القضاء هو العلم، والعلم صفة كاشفة لا تستلزم بحدّ ذاتها جبراً ولا اختياراً.

ولكن بوسعك أن تتبين ما قد تعلق به علم الله عز وجل، وأن تتأمل فيه لتدرك أنه ينقسم:

إلى ما علم الله أنه سيخلقه بأمر تكويني لاعلاقة للاختيار الإنساني به، كالحوادث التي تعرض لما يسمونه الطبيعة من فياضانات وزلازل وتقلبات مناخية وتطورات نباتية وكالحوادث التي تنزل قسراً بالإنسان، من ولادة وموت وأمراض وعاهات ورقاد، ويقظة، وسقوط...إلخ.

وإلى ما علم الله أنه سيخلقه تبعاً لما قد تتجه إليه رغبة الإنسان واختياره، مثل كافة التصرفات والأعمال التي يمارسها أحدنا برغبته واختياره. دور الإنسان فيها التوجه واتخاذ القرار، بمقتضى ما أودع الله فيه من ملكة تجعله صاحب اختيار، ودور الباري عز وجل (إن صح التعبير) أن يخلق هذا الذي وقع اختيار الإنسان عليه وعزم على فعله.

فهذان النوعان من الأشياء التي تخضع للخلق التكويني، والأشياء التي يخضع فيها الخلق لإرادة الإنسان واختياره، كلاهما داخل في معلومات الله عز وجل قبل أن يوجدها.. إذن فكل ذلك داخل في قضاء الله عز وجل، وذلك لما علمنا من أن قضاء الله علمه بكل ما سيجري في الكون.

أعود فأقول: إن مشكلة عالمنا الإسلامي أن أكثر المسلمين فيه يمارسون إسلاماً تقليدياً، فارغاً عن مضمون المعرفة له، وبعيداً عن مضمون الالتزام الدقيق به!..

يقول أحدهم: فإذا كان الله يعلم سلفاً أنني سأعصيه، إذن فهو الذي أجبرني على المعصية!.. وكم من مثقفين، بل متفلسفين، واجهوني بهذا الإشكال!... دون أن يعلم أحدهم أن صفة العلم صفة كاشفة للمعلوم كما هو، وليست صفة مؤثرة، أي فهو (العلم) كالضوء المنبثق من مقدمة سيارتك، يريك ويكشف لك الطريق كما هو، دون أي تأثير فيه.

أرأيت لو كان لك ولد يحضّر للحصول على الثانوية العامة، وكنت تنصحه وتلحّ عليه دوماً أن يُقْبِل على الدراسة، ولا يتوانى عنها... فلما أدى الامتحان لم يكتب له النجاح، أرأيت لو قلت له: لقد كنت أعلم أن النجاح لن يكون حليفك، أفيسوغ له، فيما يقضي به العلم، أن يقول لك: فأنت الذي حرمتني النجاح إذن؟

لا عِلْمُ الوالد باستحقاق ابنه للنجاح سبب لنجاحه، ولا عِلْمُهُ باستحقاق ابنه للرسوب سبب لرسوبه، السبب في كل الأحوال يعود إلى العامل المؤثر، وهو القابلية أوعدم القابلية.

كذلكم العبد بالنسبة لربه الذي أعطاه العقل ومتعه بالاختيار لا علمه باستقامته على طريق الفوز والعلاج سبب للفوز، ولا عِلْمُهُ بعدم استقامته سبب لعدم الفوز وللشقاء. إنما السبب في كل الأحوال مايختاره العبد لنفسه ثم مايبذل من جهد على طريق ذلك الاختيار.

وصدق الله القائل: ﴿وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء: ١٣/١٧].

إن الجهل الذريع بحقائق الإسلام، لاسيما الاعتقادية منها، لاسيما مبحث التسيير والتخيير في حياة الإنسان، هو الذي حملني منذ سنوات على إخراج كتابي المعروف (الإنسان مسيّر أم مخير).

وأعتقد أن الإحالة إلى هذا الكتاب تغنيني عن المزيد في شرح هذه الحكمة.

غير أن المهم أن تعلم أن كل مايصدر عن الإنسان من شؤونه القسرية وأعماله الاختيارية على اختلافها، داخل في علم الله سلفاً، أي إنه جل جلاله يعلم كل ماسيصدر عنه من ذلك، كلٌّ في ميقاته الزماني وحيزه المكاني، وعِلْمُ الله بما سيجري في الكون هو الذي يسمى قضاء، فإذا وقع المعلوم، ولن يقع إلا طبق علم الله به، سمّي ذلك الوقوع المطابق لعلم الله قدراً.

وهذا معنى قول رسول الله: ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)).

* * *

الحكمة الثالثة والعشرون

((لاتترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له، فيما هو مقيمك فيه))

من المعلوم أن هذه الحياة الدنيا، مليئة بالمغريات والملهيات والمنسيات التي من شأنها أن تقطع العبد عن الله عز وجل. وصدق الله جل جلاله إذ يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

ومهما حاول الإنسان أن ينتقي لنفسه حياة صافية نظيفة من هذه الشواغل، فلن يعثر عليها، مادام يتقلب في فجاج هذه الحياة الدنيا.

إذ إن هذه الشواغل هي المادة الامتحانية التي شاء الله تعالى أن يبتلي بها عباده، فإذا ترفعوا فوقها وتغلبوا على آفاتها، استجابة لأمر الله عز وجل، وفّى لهم وعده، وأجزل لهم المثوبة والأجر، وأكرمهم بنعيم مقيم وسعادة خالدة، وإن ركنوا إليها وتركوها تتغلب على الوظيفة التي أقامهم الله عليها، فنسوا في سبيلها الله ووصاياه وأحكامه، نفذ فيهم وعيده، وقضى عليهم بشقاء لا نهاية له.

إذن فلا مطمع في أن يتخلص الإنسان، مادام في هذه الحياة الدنيا، من هذه الشواغل التي عبر عنها ابن عطاء الله بالأغيار، بل المطلوب

منه أن يعيش في غمارها، وأن يصارعها حتى يتغلب عليها، فيسخرها لأوامر الله ومرضاته، ولا يتركها تسخره للانزلاق في حمأة الشهوات والأهواء. وهذا معنى قول العلماء الربانيين «الخلوة في الجلوة» أي ليست الخلوة التي يطلبها الله منك أن تفرّ من نظام الحياة الدنيا ومجتمعها الإنساني، إلى كهف قصي لا يراك فيه أحد ولا تراه، وإنما الخلوة التي يحبها ويشرعها الله لك، أن تكون داخلاً في معترك هذه الحياة ومترفعاً في الوقت ذاته فوق أوضارها، تجابه تيارات متعها ومغرياتها متحكماً بها، لا متحكمة بك.

غير أن في الناس من يجهل هذا القانون الرباني والحكمة منه، فيستسلم لشواغل الحياة وآفاتها، محدثاً نفسه أنه إنما يستقبل منها شواغل عابرة، وأنها تمرَّ به وتتجاوزه عما قريب، ولسوف يفرغ عندئذ لشأنه الذي أمره الله به.

فإن كان يمرّ بمرحلة الشباب، حدث نفسه أن الاستسلام لنزوات الشباب شرّ لا بدّ منه، ولا محيص عنه، ولكن الشباب سينقضي عما قريب فتفرغ عندئذ حياته من عقابيله ونزواته، ومن شأن هذا التصور أن يدفعه إلى مزيد من الاستسلام لها، ومن ثم إلى الغفلة عن مراقبة الله عز وجل.

وإن كان مقيماً في أحد أصقاع أوربا أو أمريكا، لدراسة أو تجارة أو لشأن ما من شؤونه، حدثته نفسه أن لا مناص من الاستسلام لذلك الجو الخانق والموبوء الذي هو فيه. وأن ليس أمامه إلا خيار واحد، هو أن ينتظر مرور هذه الحال وانقضاءها، حيث تزول الشواغل ويتحرر

عندئذ من سلطانها.. ومن شأن هذا التصور أن يزداد استسلاماً لذلك الجو الموبوء، دون أن يشعر بأي حاجة إلى مراقبة الله عز وجل والاستعانة به.

وكذلك شأن كثير من الناس تجاه الشواغل الأخرى التي قضى الله أن تفور بها هذه الحياة الدنيا.

فما **العلاج**؟

العلاج مايقوله ابن عطاء الله!.. يجب أن يعلم كل منا أن انتظار التخلص من الشواغل الدنيوية جهل بحقيقة الدنيا وانتظار في غير طائل. إذ الشواغل التي من شأنها أن تقطع الإنسان عن الله موجودة، وستظل موجودة إلاّ أنها متنوعة حسب مقتضيات تبدل الأزمنة والأمكنة.. للشباب شواغله وآفاته.. وللكهولة أيضاً شواغلها وآفاتها.. وللشيخوخة أيضاً آفاتها ونزواتها.

وشواغل الإقامة في ديار الغرب، لن تنتهي إلى غير بديل، بل ستسلمك تلك الشواغل لدى عودتك إلى دار إقامتك، إلى شواغل أخرى من نوع آخر.

وشواغل السوق ليست شراً من شواغل الأهل والزوجة والدار..

إن الدنيا كلها، كيفما تقلبت في جنباتها، وأنى شرّقت أو غربت منها، مليئة بالشواغل والأغيار الملهية والمنسية، إذن فكيف الخلاص منها؟

إن الخلاص لايكون بالفرار منها، على أن الفرار منها، مع البقاء في هذه الحياة غير ممكن. لأن الشواغل التي عبر عنها ابن عطاء الله

بالأغيار، ليست محصورةً بما تراه عيناك من زينة الحياة الدنيا وزخارفها ومغرياتها، وفتنة الناس بعضهم ببعض، حتى تقول لنفسك: سأنجو منها بالابتعاد عنها واللجوء إلى العزلة والخلوات.

إن نفسك التي بين جنبيك مليئة بالشواغل والأغيار، بل إنها لشواغل أسوأ وأخطر من تلك التي تطوف بك أو تجابهك في الأسواق والملتقيات والمجتمعات!..

إن حديث نفسك لك عن المزايا التي تتمتع بها، والقربات التي لم يرتفع إلى شأوها غيرك، وأنت قابع في خلوتك من أخطر الشواغل المهلكة لك، وإن انشغال قلبك بأولئك الذين ينتقدون حالك، وينتقصون شأنك، وشعورك بالألم منهم أو الحقد عليهم، من أسوء الأغيار التي تحجبك عن الله عز وجل وتنسيك شأنك الذي يجب أن تعنى به وتنصرف إليه.

وإن انصراف فكرك إلى الدار الجميلة التي تتمنى لو أبدلها الله بدارك البسيطة الضيقة التي تقيم فيها، أو إلى الشهوات التي حرمت كيانك منها ظاهراً وشغلت بها سرّك باطناً، كل ذلك من الشواغل المخيفة التي قد تحجبك عن الله عز وجل، وعن مهامّك التي أقامك الله فيها وألزمك بها.

فقل لي إذن: هب أنك فررت من شواغل الأسواق والمجتمعات والملتقيات، فإلى أين تفرّ من هذه الشواغل التي تفيض بها نفسك التي بين جنبيك؟

إن الفرار من الأغيار أياً كانت وأينما وجدت، إنما يكون بالالتجاء إلى الله عز وجل. وهذا من معاني قول الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٠].

ومعنى الفرار إليه كثرة الالتجاء إليه بالدعاء والشكوى من حال النفس وضعف الكيان، مع مراقبته الدائمة بواسطة كثرة ذكره ودوام تذكره.

وما من ريب أن الإنسان إن أخذ نفسه بهذا الدواء الذي يعبر عنه البيان الإلهي بالفرار إلى الله وداوم عليه، فإن الله يجعل له من ذلك مايشبه قارب النجاة لمن تلاطمت من حوله الأمواج.

قد تكون الظروف ألجأته إلى الإقامة في ديار غربة وكفر، أو تكون أعماله التجارية أو الصناعية اضطرته إلى الاندماج في مجتمعات أو مجموعات من الناس، يبثون من سلوكهم وأنفسهم وباء مهلكاً في كل ماحولهم، أو تكون ضروراته الدراسية زجته بين أقران تائهين عن الله منغمسين في الموبقات.. ومع ذلك فإنّ بوسعه أن يرى قوارب النجاة أمامه مهيّأة في انتظاره، فإن هو فرّ ملتجئاً إلى واحد منها، فلسوف يرى فيها سلامته وأمنه من كل تلك المهالك والأخطار. وقد علمت أن هذه القوارب، إنما تتمثل في صدق الالتجاء إلى الله والدوام عليه، مع كثرة ذكر الله ومراقبته.

ولم يكن فرار أصحاب رسول الله ومن جاء بعدهم من السلف الصالح، إلا إلى هذا الملاذ.

إنك لتعلم أن رسالة الدعوة إلى الله زجتهم في مخاضة الدنيا، بكل مافيها من ألوان المغريات والعواصف المهلكة، ووباء الفسوق، وفتنة المال والحضارات.. فما الذي عصمهم من موبقاتها وآفاتها؟.

إنهم لم يتراجعوا، لينكمشوا عنها إلى سابق عزلتهم وخلواتهم داخل أقطار الجزيرة العربية، بل خاضوا غمار الدنيا التي انفتحت عليهم، متوكلين على الله توكلاً حقيقياً، لا لفظياً كشأننا اليوم، مقبلين على زاد دائم من مراقبة الله وذكره وكثرة الالتجاء إليه والانكسار بين يديه، داعين متضرعين أن يحميهم الله عز وجل من تلك التيارات المهلكة التي لا قبل لهم بها وأن لا يكلهم إلى نفوسهم الأمارة وكياناتهم الضعيفة.. فأسعفهم الله عز وجل واستجاب لهم، وأكرمهم بوقاية كوقايته عز وجل للوليد في المهد.

وليس خبر عبد الرحمن الداخل وأصحابه القلة عنك ببعيد!..

ألم يغامروا في سبيل نشر رسالة الله، ويتجهوا بها إلى عالم جديد لا علم لهم به، ولاخبر لديهم عنه، لقد كان ذلك العالم الجديد الذي وفدوا إليه مليئاً بالأخطار المتجهة إلى معاشهم وحياتهم الدنيوية، وبالأخطار والشواغل المتجهة إلى دينهم وعلاقتهم بالله عز وجل.

فكيف وقاهم الله شر تلك الأخطار كلها؟ وكيف أخضع الله لهم تلك المجتمعات. وأنار أمامهم ومن حولهم تلك الليالي الحالكات؟

لو أنهم استسلموا للواقع، وانتظروا، أو ترقبوا، فراغهم من تلك الأغيار، على حد تعبير ابن عطاء الله، متصورين أنها ستمرّ بهم وتجتازهم، إذن لاختنقوا في حمأتها، وأصبحوا أثراً بعد عين، وبقيت تلك المجتمعات تخب في ظلامها.

لقد كان سبيلهم إلى تلك الوقاية الإلهية العجيبة، فرارهم إلى الله.

وكان معنى فرارهم إليه شدّة التجائهم إليه.. كانوا إذا دعوه، دعوه دعاء المضطر الواجف، وكانوا يراقبونه في كل حركاتهم وسكناتهم وأطوارهم، كانت جسومهم وظواهرهم تتقلب في غمار تلك العواصف والتيارات والمغريات والأخطار، غير أن قلوبهم وأفكارهم كانت منصرفة بالذكر والرجاء إلى مدبر الكائنات جل جلاله.

ولو اعتبر المسلمون اليوم بهذه الحكمة التي اعتصرها ابن عطاء الله من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح، واتخذوها لأنفسهم منهجاً، إذن لكتب الله لهم من التأييد ماكتبه لعبد الرحمن الداخل وصحبه.

وصدق الله القائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤].

* * *

الحكمة الرابعة والعشرون

((لاتستغرب وقوع الأكدار، مادامت في هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ماهو مستحَقٌ وصفها وواجب نعتها))

هذه الحكمة تقرر واقعاً مشاهداً، توالت على تأكيده الأجيال، وعبر عنه الحكماء والشعراء. إذن فليس ثمة مايدعو إلى حشد البراهين على هذا الذي يقرره ابن عطاء الله.

ولكن لماذا قضى الله أن تكون دارنا الدنيوية هذه مشوبة بالأكدار، وأن يكون نعيمها ممزوجاً بالغصص، وأن تكون ليالي السرور فيها مهددة بالمصائب التي قد تكمن وراءها؟

والجواب: أن لله تعالى حكمة باهرة في ذلك، تتجلى في تذكرنا **لحقيقتين اثنتين:**

الحقيقة الأولى: أن الله عز وجل جعل من هذه الدنيا دار تكليف، بل جعل منها قاعة امتحان إن جاز التعبير. وقد علمنا في أكثر من مناسبة مرّت أن المهمة التي كلّف بها الإنسان في حياته الدنيوية هذه، هي: أن يمارس عبوديته لله بالسلوك الاختياري، كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري، وإنما يمارس الإنسان عبوديته لله بالسلوك الاختياري، من خلال تنفيذ أوامره، والانقياد لأحكامه والخضوع الطوعي لسلطانه. وبذلك غدا الإنسان مكلفاً .

فإذا فرضنا أن الحياة التي أقام الله الإنسان فيها، ليس فيها إلا النعيم الصافي من الأكدار، فيها السرور الذي لاتشوبه منغّصات، أنى التفت الإنسان لا يجد إلا ما لذّ وطاب، وكيفما تقلب وجد نفسه فوق مهاد من الرفاهية الصافية من كل شوب، إذن فمن خلال أي سلوك أو من خلال أي استجابة لأوامر الله تتجلى عبودية الإنسان هذه، أي عبوديته لله بسلوكه الاختياري؟

ممارسة العبودية ثمرة للتكليف، والتكليف لا يسمى تكليفاً إلا إن كان ملاحقةً للمكلَّف بما فيه كلفة أي مشقة. وإذا كانت الدنيا كما قد وصفت نعيماً مقيماً صافياً عن المنغصات، فأنى للمشقة أن تظهر، وفي أي أحوال هذا النعيم يتجلّى ويبرز؟

عندما يرى الإنسان نفسه معافى في بدنه لا يتهدده مرض، مستقراً في عهد شبابه لا يعاني من نذير كهولة ولا مشيب، قد حماه الله من أفواه الشامتين والساخرين، ومن أيدي الظالمين وفجور الطاغين، غارقاً في بحر من النعيم وأسبابه فلا يتهدده فقر ولا تدنو إليه فاقة ولا عوز، آماله محققة وأحلامه مزدهرة. ثم إن التكاليف الإلهية لم تنتقص له شيئاً من رغده ونعيمه هذا، بل جاءت متساوقة مسايرة لتيارات رغائبه وأحلامه، فكيف يسمى ذلك تكليفاً والكلفة لم توجد، بل كيف يسمى ذلك ممارسة للعبودية وسط مناخ لا موجب فيه لتذلل ولا انكسار، لا افتقار فيه لحاجة أو التجاء؟

ولقد علمت مما مرّ ذكره سابقاً أن الدعاء هو العبادة، وقد علمت أيضاً أن الدعاء ثمرة الحاجة والفاقة والخوف من الآلام والمصائب، فمن

لم يكن خائفاً على نفسه منها، وكان واثقاً من أنه يعيش في كلاءة حياة ليس فيها إلا مقومات الرغد والنعمة والسرور، فهو أبعد ما يكون عن أن يمدّ يد فاقة أو ضراعة إلى الله. ولماذا يمدّها وهو لايعاني من فاقة ولا يخشى على نفسه من ضيم، وليس من حوله ما يهدد نعيمه بأي مكروه.

إذن، فحياة هي الرغد الصافي عن الشوائب، مع الابتلاء بالتكاليف التي خاطب الله بها عباده، بينهما من التشاكس والتناقض ما لا يخفى على ذي بصيرة قط.

ومن المعلوم أن سَدَى ولحمة التكاليف الإلهية هما الصبر والشكر. فمن خلالهما تستبين العبودية الطوعية لله تعالى.

وإنما يكون الصبر أمام الشدائد والمصائب والآلام. في حين أن الشكر يكون باستخدام النعم التي أسداها الله تعالى للإنسان للمهام والوظائف التي خلق من أجلها. فمادّة الصبر هي المصائب والشدائد، ومادة الشكر هي النعم والرغائب، إذن فحياة التكليف هذه ينبغي أن تكون مزيجاً من هذه وتلك.

وقد نبه البيان الإلهي الإنسان إلى ما لابدّ أن يواجهه في حياته الدنيوية هذه، من هذا المزيج، ولفت نظره إلى الحكمة من ذلك. كي لايفاجأ منها بما لم يتوقع.

من ذلك قوله جل جلاله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦/٣].

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٥-١٥٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٠].

وفتنة الناس بعضهم ببعض، تتمثل في الخصومات والأذى ينال بعضهم من بعض، كما تتمثل في ابتلاء الغني منهم بالفقير والفقير بالغني.

والبيان الجامع لأشتات هذه الابتلاءات كلها قول الله تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/١-٢].

وإذا تبين لك أن الحياة الدنيا هي دار التكليف أو الابتلاء والامتحان، بان وظهر لك أن الحياة الآخرة هي دار المثوبة والجزاء. انظر إلى هذا الربط بينهما من خلال قوله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٥].

الحقيقة الثانية: أن الشأن في هذه الحياة الدنيا إذن، أن تكون محدودة بميقات معين، هو ميقات الامتحان الذي قضى به الله عز وجل لعباده فيها، وبعبارة أخرى: الشأن فيها إذن أن تكون ممراً امتحانياً إلى مقرّ

عاقبة وجزاء. وقد قضى الله تعالى أن تكون البوابة التي يعبر منها الناس، من حياتهم الدنيا هذه، إلى حياتهم البرزخية التي هي مقدمة لحياتهم الآخرة، بوابة الموت!..

إذن فالموت هو عاقبة كل حيّ في هذه الحياة الدنيا، وقد علمت أن الموت ليس عدماً كما قد يتوهم بعضهم، وإنما هو انتقال من حياة إلى حياة أخرى.

أفترى إذن أنّ من الحكمة أن يجعل الله من هذه الحياة الدنيا التي هي ميقات الامتحان، ومن ثم فهي أشبه ماتكون باستراحة في طريق مسافر، مثابةَ نِعَمٍ صافيةً عن الشوائب والكدورات، ولذائذَ ومتعاً تتسامى فوق كل الغصص والمعكرات، وأن لايبتلى منها الإنسان بآفة، ولايتهدد شبابه كهولة ولاشيخوخة، ولايتهدد عافيته ألم ولامرض؟...

تخيل أنك تتقلب متنعماً في حياة من هذا القبيل، إذن فلسوف تزداد تعلقاً بها كلما امتدّ عمرك فيها، فكيف تكون حالك إن جاءك الموت ودُعيت إلى الرحيل من هذه الحياة؟..

سيكون فراقك لها وانتقالك منها، أشبه مايكون بكتلة من الحرير تعلقت من سائر أنحائها بنبات كثيف ذي رؤوس يابسة شائكة، جاء من اجتذبها بيده جذبة واحدة بشدة، فتقطع منها في يده ما تقطع، وتناثر منها ماتناثر بين الشوك.

كل شيء في كيانك سيكون متعلقاً بالحياة التي عشقتها وبالدنيا التي استهوتك الإقامة الدائمة فيها. ولن يكون لديك أي استعداد لفراقها... وفيم تفارقها، وكل ما رأيته وسمعته وذقته منها جعلك تركن إليها ركون الماء في العود والروح في الجسد، والعاشق إلى المعشوق؟!..

فكان من عظيم لطف الله بعباده، أن جعل نعيم الناس في دنياهم بمقدار احتياجهم إليه على طريق تحقيق المهام التي كلفوا بها، وجعل عافيتهم أداة يسخرونها في هذا المضمار، وآتاهم من القدرات والإمكانات والأموال مايسخرونه لإنجاز الوظيفة التي أقامها الله عليها.

ثم إنه عز وجل جعل إقبالهم إلى الدنيا واستشرافهم لنعيمها أشدّ ما يكون في زمن شبابهم إذ يكونون حديثي عهد بالإقبال إلى الحياة والتعرف عليها، فإذا دخلوا في مرحلة الكهولة تناقص إقبالهم إلى متع الدنيا وأهوائها، تحت وطأة القوة المتراجعة والغرائز التي تميل إلى الملل أو البرود.. فإذا دخلوا في مدارج الشيخوخة، ازداد ذلك الإقبال تراجعاً، وعادت علاقتهم بأكثر متع الدنيا كمن طال عهده بالجلوس إلى مائدة عليها ألوان من الطعام، تذوق من كل لون منها ثم عاد يتذوق ويطعم منه، إلى أن تبرّم به وملّه، واتجهت منه الرغبة إلى جديد ومستحدث غير منظور.

هذا بالإضافة إلى غصص الآلام والأسقام والمصائب التي تنال منه بين الحين والآخر.

كل ذلك يُهَيِّئُهُ نفسياً لساعة الرحيل التي يوشك أن يحين ميقاتها، فإذا طرق الموت بابه فعلاً، بعد هذه المقدمات، لم يأسف على الدنيا التي يرحل منها، ولم يفارقها مفارقة العاشق معشوقه، بل يفارقها مفارقة ذاك الذي طال عهده بالمائدة التي ظل جالساً إليها، لاشك أنه قد ملّ منها، قبل أن تملّ هي منه.

ولا تنس أنـي أتحدث عمن بدأ حياته فتعرف على هذه الدنيا وعلاقته بها من خلال معرفته، بل يقينه بالحقيقة الأولى التي شرحتها لك قبل قليل.

إنه يتخذها استراحة في طريق، ومنزلاً موقوتاً يريح فيه جسمه، ويجدد نشاطه ويتناول ما قد يحتاج إليه من طعام وشراب، ليواصل سيره بعد ذلك إلى غايته، غير آبه بما قد رآه في تلك الاستراحة من ملهيات، وغير متأثر بما قد ناله فيها من موحشات.

ذلك لأنه قد تشبع ببيان الله لهوية هذه الحياة الدنيا، ووقف طويلاً يتدبر أمام قوله تعالى: ﴿إِنَّما هَذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ [غافر: ٤٠/٣٩].

المهم أن كلاً من المنطق والذوق يقتضي أن يكون المنزل الذي يقيم فيه النازل لمدة موقوتة، مطبوعاً بطابع التوقيت، وأن تكون وسائل الراحة فيه بالقدر المتفق مع طبيعة الإقامة المؤقتة، كي يتاح للراحل عنه أن يتركه دون أي تعلق به ودون أي أسف على فراقه.

على أن هذا النظام الذي أقامه الله في علاقة الإنسان بالحياة الدنيا فيه قدر كبير من الرحمة واللطف، حتى لمن عاش حياته ثم رحل عنها دون أن يتعرف على حقيقتها وعلى واجباته فيها، وعلى علاقته بمولاه وخالقه الذي استودعه فيها إلى حين، ثم نقله عنها إلى المصير الذي لا بدّ أن ينتهي إليه هو وأمثاله من أفراد هذه الخليقة.

إذ الكهولة والشيخوخة بعد الشباب.. والآفات والأوجاع التي تتسرب إلى الجسم.. ومصائب الدنيا وابتلاءاتها، كل ذلك جامع

مشترك يواجه المؤمن والملحد والفاسق، ومن ثم فإن من شأن هذه الآفات إذا تسربت ثم تزايدت، أن تعكر صفو العلاقة بين الإنسان ودنياه التي كان بالأمس شديد التعلق بها، فإذا حان رحيله عنها لم يكن له بها من تعلق، أو يكون له بها تعلق من يرى فيها ذكريات أيامه الجميلة الخوالي.

* * *

فابن عطاء الله يلفت النظر في حكمته هذه إلى ضرورة معرفة الإنسان لهذا كله، كي يكون على بيّنة من الدار التي أنزله الله فيها وعلاقتها بالوظيفة التي خلق الإنسان من أجلها، ولكي لايفاجأ منها بما لم يكن يتوقع. فإنّ ذلك أحرى بأن ينسجم معها، وبأن لايركن إليها ركون الهائم بها المعتمد بكليته عليها.

وانظر في هذا إلى **الفرق مابين المؤمن والكافر**.

أما **المؤمن** الذي فتح عينيه على الدنيا التي أقامه الله فيها، من خلال تعريف القرآن بها: دار ابتلاء، يتمازج الخير فيها بالشر، يُفتتن فيها الإنسان بأخيه الإنسان، يُبتلى فيها بالنعمة ليشكرها فلا يطغى ولا يبطر بها، ويبتلى فيها بالمصيبة ليصبر عليها، ويحتسبها بأجر من الله، فلا يضجر منها. ثم إن الله سيوفي كل إنسان حقه لقاء شكره عند النعمة، ولقاء صبره عند المصيبة، يوم الجزاء، عندما يقوم الناس كلهم لرب العالمين، تماماً كما يؤكد بيان الله عز وجل القائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥] والقائل: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣] أقول: أما المؤمن الذي عرف هذا كله عن الدنيا قبل أن يتعامل معها، فإنه لن يفاجأ منها بأي مجهول، ولن يضيمه منها أي مكروه. بل يقبل عليها إقبال الموظف إذ يدخل دائرته لأداء وظيفته.. أو إقبال الطالب أُدْخِلَ إلى قاعة الامتحان، لأداء الامتحان الذي هو بصدده.

إذا أقبلت إليه النعمة استقبلها عالماً بواجبه تجاهها، بل تجاه من أسداها إليه، فاستعملها ونعم بها على الوجه الذي شرعه الله، دون بغي ولا طغيان.

وإذا واجهته المصيبة أياً كان نوعها، استقبلها متجملاً راضياً صابراً محتسباً أجره على ذلك عند الله، ملتجئاً إليه عز وجل أن يعينه على الثبات والصبر، وأن يكرمه بالعفو والعافية.

وهو في كلا الحالتين يمارس عبوديته لله تعالى بصدق. فلا هو يُخدع بالنعم والمتع ومباهج الدنيا ولذائذها، إذ يعلم أنها ظلال زائلة، ولا هو يجزع من المصائب ويشقى بسببها، لأنه يعلم أنها ابتلاءات من الله عز وجل يمتحن العبد بها، ثم إنه يؤجر الأجر الأوفى عليها إن هو نجح في امتحانه بها فصبر وتجمل وسأل الله العون والتوفيق.

ثم إنه ينظر إلى الدنيا، طال أو قصر أجله فيها، من خلال المنظار الذي يتجلى له في محكم بيان الله عز وجل، وإذا هي أيام قليلة تافهة، بالنسبة لما هو مقبل إليه من بعد، فلا خيرها إن غاض أو غاب مأسوف عليه، ولا شرها إن أقبل أو استفحل مشكلة ذات بال.. ذلك لأنه قد تشبع بمثل قول الله تعالى:

- ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤/٧٧].

- ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧].

ثم إنه يدرك إلى جانب ذلك أن الله الذي [أقامه]؟ في دنيا هذا الابتلاء، أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، فلايضيع للإنسان جهداً بذله في سبيل خير، ولايهمل له حقاً اغتصبه منه ظالم، ولايترك له أي ظلم اقترفه أو جريرة اكتسبها، بل يقضي بين عباده في ذلك كله يوم الجزاء الموعود طبق قانونه عز وجل الساري على عباده جميعاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

فهذا المؤمن الذي استقبل حياته الدنيا هذه، واستقبل معها بوعي ويقين هذا التقرير الإلهي عنها، سيعيش حياة هنيئة على كل حال، سواء تنقل في ظلال النعمة والرخاء، أو تقلب بين أمواج الشدائد والبأساء، إنه سيكون فعلاً كما قال رسول الله عنه:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[1].

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ من حديث صهيب، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة، بألفاظ قريبة.

أما **الكافر**، ونقول بعبارة أشمل: أما غير المؤمن، فهو إنسان وفد إلى هذه الدنيا، وتعرّف على واقعها وهويتها، من خلال غرائزه ومشتهياته، فهو يريدها كما يهوى ويتمنى، ويصرّ إصراره على أن يكافح ويناضل في فجاجها، ليخضعها لما يشتهي ويريد... وهو إذ يصرّ إصراره هذا يرى ويوقن في قرارة نفسه أن حياته هذه التي يعيشها هي اليوم الذي لا غد من ورائه، فهي حظه الأوحد من الحياة التي تفتحت عيناه عليها، ومن ثم فإن عليه أن يغامر جهد استطاعته ليجعل حظه منها سعادة ورغداً وهناء، وليبعد ظلال المصائب والمآسي عنه بكل ما يملك إلى ذلك من سبيل.

ولكنه، إذ يسعى سعيه هذا، يفاجأ بأن هذه الدنيا ما كانت ولن تكون كما يريد، بل لابدّ أن يكون هو ـ شاء أم أبى ـ كما تريد!...

غير أنه وقد تجاهل أو جهل التقرير الإلهي الوارد عن حقيقة هذه الدنيا وشأنها، وعن المهمة التي خلق الإنسان من أجلها، وعن المستقر الذي ينتظره بعد أن يمرّ في هذا المستودع القصير، غير مستعدّ لأن يخضع بطواعية منه لنظام الدنيا ومايفاجأ به من أحداثها معه ومواقفها منه... وإنما ينساق إلى نظامها هذا قسراً وعلى مضض شديد منه وكره.

والسبب، أنه غير مستعد لأن يقيد نفسه بواجب الشكر عند مجيء النعم، ولا لأن يلزم نفسه بواجب الصبر عن ورود المصائب والآلام، إذ هو لا يؤمن بالثمرات التي ينالها على الشكر في الحالة الأولى، ولا يؤمن بالثمرات التي ينالها على الصبر في الحالة الثانية، لأن الدنيا في

وهمه هي يومه الوحيد الذي لا يملك أيّ غد من ورائه، ومن ثم فهي حظه الذي لا بديل له عنه ولا ثاني له من ورائه. فلمن يشكر؟ وفيم يصبر؟

فكيف تكون مشاعر هذا الإنسان الذي جاء يحمّل الدنيا أوقاراً من أحلامه وآماله الوردية الرائعة، وعندما يفاجأ منها بالغصص المنكرة، وبالمآسي والمصائب الموحشة؟ ما يكاد يفرح بساعات من لهوه الذي يطوف به ومشتهياته التي ترقص بين يديه، حتى تغيب عنه إشراقة هذه الساعات، وتتحول الدنيا من حوله إلى نقيض هذا الذي كان يفرح ويمرح فيه: سلسلة من المصائب والآلام المتنوعة تأخذه ولاتردّه..

ثم كيف تكون مشاعره عندما يجد أن ليل الشباب قد فارقه بكل ماكان يفيض به من قوة وغرائز ورغبات وأحلام مقبلة... وقد أقبل إليه من ورائه المشيب فالشيخوخة بكل ما فيها من ضعف وذبول، وبكل ما تحمله إليه من بشائر الموت ومقدماته؟..

كيف تكون مشاعره آنذاك، وهو لايزال موقناً بأنه سيرحل من دنياه هذه إلى عدم مطبق، وأنه إنما يمرّ بالأسطر الأخيرة من قصة وجوده في الحياة؟

وما هو معنى الصبر بالنسبة إليه؟ وماقيمته؟ وماجدواه؟ إن الصبر في حقيقته ليس أكثر من تعلق الأمل بخير متوقع. فإن لم يكن ثمة أمل يتعلق بيقين لا ريب فيه بالحياة الآخرة، فلا معنى للصبر في هذه الحال. وإنما هو الخضوع القسري لعذاب لا ثمرة من ورائه ولا مناص منه. وجدير بمن كانت هذه حاله أن يختنق أو ينفجر.

وإني لأشبّه حال كلٍّ من المؤمن والكافر في فرق ما بينهما في هذا الأمر، برجلين قضي عليهما أن يدخلا فيسيرا في نفق مظلم ذي اتجاه واحد، أحدهما يوقن أن النفق طريق لا بدّ منه ينتهي إلى واحة غناء فيها كل ما لذّ وطاب، والآخر يوقن أنه ينتهي إلى سدّ لا يمكن اختراقه. من الواضح أن الأول منهما كلما أوغل سائراً في ظلمات ذلك النفق انتعشت نفسه وازدهرت آماله وأحلامه إذ يعلم أنه غدا على مقربة من الواحة التي تكمن في نهايته.. وأن الثاني منهما كلما أوغل سائراً فيه أطبق الهم على خناقه وازدادت ظلمات النفق ضيقاً عليه، وتصور أن عاقبة ذلك النفق أن يتحول إلى قبر يختنق فيموت فيه.

ولعلّ بوسعك الآن أن تعلم السبب فيما يلجأ إليه جيل الضياع والتطوح في الغرب، من الركون إلى أنواع المخدرات، والاستسلام لغول المسكرات، والسبب في الأمراض النفسية المستشرية هناك، وفي الشذوذات المرهقة التي تنقلهم من شقاء إلى شقاء، ثم في النسبة المرعبة المتزايدة للمقدمين على الانتحار.

لديّ إحصاء يعود إلى ما لا يقل عن عشر سنوات، يقول إن عدد المنتحرين كل عام من طلاب وطالبات جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، مابين (١٢-١٣)ألف شخص، ولا أدري إلى أي حدّ ارتفع العدد في هذه الأيام.

* * *

بقي أن تعلم أنه لا النعم والمتع التي تتسابق إلى الإنسان وتغمره بلذائذها هي مصدر السعادة التي تهيمن على النفس وتنعش القلب،

ولا المصائب والأسقام التي قد تتكاثر لديه هي مصدر الشقاء الذي تصطبغ به النفس ويسيطر على الشعور.

رب إنسان لا تعلم المصائب سبيلاً إليه، تفيض داره بالمتع والنعم، ويفيض جسده بالصحة والعافية، ولكن قلبه لا يعلم مع ذلك طعم السعادة والسرور!.. يضيق بالدنيا كلها ذرعاً دون أن يشكو أي ألم، ويعاني من وحشة متلاحقة وهو في أبهى ساعات مرحه وتراقص الدنيا من حوله.

ورب إنسان غابت عنه متع الدنيا ونسيته مباهجها وأهواؤها، ابتلي بالفقر في جيبه وبالأسقام في جسده، وتنظر إليه فإذا البسمة الصادقة لا تفارق وجهه، والسرور الحقيقي يغمر قلبه.

ألا فلتعلم أن الأمر ليس فيه أي مفارقة، وليس فيه ما يدعو إلى العجب. مصدر الشعور بالسعادة والشقاء هو القلب..

والقلب هو مكان تجليات الله عز وجل الذي أضحك وأبكى، والذي إن شاء شرح من خلال ذلك صدرك، وإذا الدنيا كلها ترقص على إيقاع سرورك، وإن شاء بعث من خلال ذلك أيضاً فيه الوحشة والضيق، وإذا بمتع الدنيا كلها تتحول إلى ظلل داكنة سوداء تنفث في كيانك شعور التشاؤم، وتملأ قلبك بثقل الهموم.

إذن فاستخدم ماتطوله يداك من الدنيا وأسبابها لأَوَدِ حياتك وإقامة عيشك. ثم اطرق بيد الإيمان الحقيقي باب الله تعالى لإسعاد قلبك ولشرح صدرك. وابذل كل ما تملك من جهد في سبيل أن تكون ممن

قال عنهم رسول الله في الحديث الذي مرّ ذكره، وأعود فأختم به شرح هذه الحكمة:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[1].

* * *

(١) مرّ الحديث وتخريجه في ص ٣٤٣.

الحكمة الخامسة والعشرون

((ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك))

ولنبدأ بالعرض الإجمالي لمعنى هذه الحكمة:

يقول ابن عطاء الله: لن تخيب في طلب أمر تسعى إليه معتمداً على توفيق الله تعالى متبرئاً من أوهام حولك وقوتك. بل سيكون التوفيق فيه حليفك. ولن توفق في تحقيق الهدف الذي تبتغيه من طلب تعتمد فيه على حيلتك وأوهام قدراتك، بل سيكون الخذلان هو المآل.

تلك هي خلاصة معنى هذه الحكمة.

ولكن فلنتساءل بعد هذا: من أين جاء ابن عطاء الله بهذا الكلام؟ وما هو مستنده في هذا القرار؟

مصدر هذا الذي يقول ابن عطاء الله كتاب الله عز وجل وهدي نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وقراره هذا من أهم مبادئ التوحيد الذي هو لب العقيدة الإسلامية.

أجمع آية دالة على هذه الحقيقة الاعتقادية، قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٣٥/١٥]

والفقر الذي يثبته الله تعالى للناس ليس فقراً في المال دون غيره أو في المدارك والمعارف دون غيرها، وإنما هو الفقر بكل أشكاله وأنواعه، فالإنسان إذن فقير في طاقته وجهده، وفقير في علومه ومداركه، وفقير في كل مايحتاج إليه من مال ونحوه... إن تحرك فبقدرة الله يتحرك، وإن سعى في مناكب الأرض صانعاً زارعاً بانياً، فبتوفيق وبحول من الله تعالى يفعل ذلك كله.. وإن أدرك وتعلم واكتشف خفايا المكونات فبمنحة من علم الله ينال ذلك كله.. ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بما شاءَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥] فقد نسب الله إلى ذاته العلية ما قد يعدّه الإنسان علماً اقتبسه أو اكتشافاً ظهر له أو إبداعاً يتباهى به، مقرراً أن ذلك كله ليس إلا منحة يمنحه الله إياها من خزائن علمه.

وأجمع كلمة دالة على هذه الحقيقة مما علمنا إياه رسول الله ﷺ، قوله: ((لاحول ولاقوة إلاّ با لله)).

إن ((لا)) نافية للجنس، كما هو مثبت في قواعد اللغة العربية، فهي إذن تنفي جنس الحول والقوة عن الإنسان، أي فهو لايتمتع من ذلك كله بشيء، إلا أن يمنحه الله من ذلك مايشاء. فإن تحرك أو سعى الإنسان فبقدرة الله يسعى ويتحرك.

ولأمر ما أوصانا رسول الله ﷺ أن نكثر من ذكر هذه الكلمة القدسية الجامعة. روى محمد بن إسحاق أن مالكاً الأشجعي جاء إلى رسول الله فقال له: أُسِرَ ابني عوف، وشكى إليه جزع أمّه عليه، فقال له رسول الله ﷺ: أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول

((لاحول ولاقوة إلا با لله)) فأنقذه ا لله من الأسى وعاد إلى أبويه بخير وغنائم..

وانظر في بيان هذه الحقيقة إلى الكلمة البليغة الجامعة في الحديث النبوي الشريف: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ماينفعك، واستعن با لله ولاتعجز، وإن أصابك شيء فلاتقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر ا لله وماشاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))(١).

تأمل في قوله: ((استعن با لله، ولاتعجز)).. قدم الأمر بالاستعانة با لله، على النهي عن العجز، لكي يعلم الإنسان أن سبيل تخلصه من العجز إنما هو الاستعانة با لله عز وجل، إذن فالخطوة الأولى بين يدي كل جهد ونشاط هي الاستعانة با لله عز وجل، ثم تأتي الخطوة التي تليها متمثلة بالنهوض إلى العمل وطرد أسباب العجز. فالنشاط السلوكي ثمرة للاستعانة با لله عز وجل. وهذا هو السبب في تقديمه ﷺ الأمر بالاستعانة با لله على التحذير من التكاسل والعجز، إذ السبب في الترتيب هو الأول، والمسبَّب هو الثاني... ولو قال رسول ا لله ﷺ: لاتعجز، واستعن با لله، لجاءت الجملة مخالفة للترتيب الواقعي والمنطقي.

وقبل أن أنتقل بك إلى التطبيقات والأمثلة العملية والواقعية لهذه الحكمة، أذكرك بما هو مقرر في مبادئ العقيدة الإسلامية، وهو أن ا لله عز وجل يرفد الإنسان بالقدرة عندما يهبّ لاستعمالها في حركة أو قيام أو قعود أو مشي أو أي عمل يتجه للنهوض به، أي إنه لاتوجد في

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

كيان الإنسان قدرة أودعها الله لديه، ثم تركها وتركه لها، فهو يستعملها في شؤونه عندما يشاء..

ينبغي أن تعلم أن هذا التوهم خطأ منطقي وعلمي، بعد اليقين بألوهية الله تعالى وقيوميته على كل شيء. بل إن القدرة تفد إليك عند الحاجة الآنِيَّةِ إلى استعمالها، ثم تظل تسري في كيانك لحظة فلحظة مع استمرار الحاجة إليها. أي إن رعاية الله للإنسان موصولة به استمراراً، كاستمرار اتصال الأسلاك الكهربائية بالمولد، و لله المثل الأعلى.

واعلم أنك ـ في حالات نادرة تمرّ على كل منا ـ عندما تفاجأ بأن قوتك قد خانتك، إذ حاولت القيام فلم تستطع، أو حاولت أن تبسط يدك فتشنجت و لم تتمكن، اعلم أن الله قد قطع عنك في تلك اللحظة عونه ومدده. وليس تفسير ذلك أن في كيانك قوة مستقرة غابت في تلك اللحظات عنك، ومهما علل الأطباء هذه الظاهرة بأسباب وعوارض عضوية، فالحقيقة هي هذا الذي أقوله لك. إنهم لايرون المدد الإلهي الممتدّ إلى كيان الإنسان، لافي إقباله ولا في إدباره، ولكنهم يرون أثر ذلك في جسمه وأعضائه، فيحسبون الأثر مؤثراً والنتيجة سبباً.

وذلك هو شأن علماء الطبيعة في كل مايرصدونه من ظواهرَ إن بأعينهم أو بواسطة أجهزتهم، إنهم يدركون ويرصدون النتائج الخاضعة لتدبير الله، ولكنهم لايرصدون، لابأعينهم ولا بأجهزتهم، تدبير الله وفاعليته، فيتوهمون النتائج والآثار أسباباً ومؤثرات ذاتية،

وينسبون إليها من الفاعلية والتدبير ما ينبغي - لو اخترقوا الظواهر — أن ينسبوه لمصدره وهو الله عز وجل.

إذن فالإنسان أياً كان، وفي أي الظروف والأحوال وجد، إنما يتحرك وينشط بعون الله وبقدرته. تلك هي الحقيقة العلمية الثابتة، ومن ثم فهو المعتقد الذي يجب أن يدين به كل من آمن بالله إلهاً واحداً حقيقياً لاشريك له.

وأظن أنني فصلت القول في بيان هذه الحقيقة، في مناسبة مرّت خلال شرحنا للحكم الفائتة.

* * *

ولنتساءل الآن عن الثمرة التي نعود بها إلى أنفسنا من معرفة هذه الحقيقة.

إنني إذا عرفت هذه الحقيقة واستيقنها عقلي، فلسوف أكون دائماً مع الله عز وجل، في سائر حركاتي وسكناتي وأنشطتي وأعمالي المختلفة التي أقوم بها... أي لن يغيب عن بالي أنني فقير في كل تحركاتي هذه إلى معونة الله وإمداده. وسيحملني هذا اليقين على الاستعانة به عز وجل، كلما أقدمت على عمل ما: وظيفةٍ، تجارةٍ، صناعةٍ، زراعةٍ، عملٍ عسكري، نشاط سياسي.. إلخ. وهذا سيحملني بدوره على دوام ذكر الله ومراقبته، وكيف لاأذكره، بل كيف لا أداوم على ذكره وقد أيقنت أنني لا أتحرك إلا بقوته، ولا أنهض إلا بتوفيقه وأنه إن تخلى عني وقعت أسير عجز مطبق وضعف خانق. مثل

هذا الإنسان لابدّ أن يـردد دائمـاً، إن بلسـان قولـه أو بلسـان شـعوره وحاله: يارب!.. يناديه مستعيناً، مستغيثاً مفتقراً، ولابدّ أن يمزج سـائر تحركاته بهذا النداء المستمر مـع استمرار تحركاته وأنشـطته وأعمالـه، ولعمري هذا هو الفرار الذي أمرنا الله به إذ قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٠].

وهنا، أفترض أن في القراء من يستشكل قائلاً: هاأنا ذا قمت بعملي الدراسي في الجامعة معتمداً على نفسي، غير متذكر لشيء من هذا الذي تقول، ومع ذلك فقد حالفني التوفيق وتيسر مطلبي على الرغم من أنني طلبته بنفسي، ولم يتعسّر كما يؤكد ابن عطاء الله.

ثمة جوابان عن هذا الإشكال:

الجواب الأول: أن كلمة ((التوقف)) في كلام ابن عطاء هذا إنما تعني غياب التوفيق، وليست بمعنى انقطاع تيار القدرة عن صاحب الدراسة أو العمل، فهو يقول: ما من عمل تستعين فيه بالله عز وجل إلا ويكون توفيق الله حليفك. وما من عمل تستقل فيه بنفسك معتمداً فيه على ذاتك ناسياً أو منكراً يد الله التي تحركك إلا ويغيب التوفيق فيه عنك.

فما هو التوفيق؟ إنه لايتمثل في نجاحك الشكلي في دراستك ولا في حصولك على الشهادة الجامعية التي سعيت إليها.. وإنما يتمثل التوفيق في وصولك إلى الغاية التي توجهت إلى دراستك من أجلها.. وسعادتك بالهدف الذي ابتغيته.

فمن اعتمد على الله في جهوده، أياً كانت دراسةً أو غيرها، حقق له الله النتائج التي يسعى إليها، وأسعده بها.

ومن تجاهل عون الله له، واعتقد أنه إنما يصل إلى مايبتغيه بجهوده الذاتية وقدراته الشخصية، عاكسه التوفيق، وإن هو تحرك في نطاق الأسباب تحرك القادر الذي يخيل إليه أنه مستقل بأمر نفسه متمكن من تحقيق رغائبه.

الجواب الثاني: أن هذه القاعدة التي يذكرها ابن عطاء الله إنما يخاطبُ بها من سبق أن آمن بالله عز وجل، وبايعه على الإسلام والالتزام بأوامره وأحكامه. فأما الجاحدون الذين لم يؤمنوا به فضلاً عن عدم التزامهم بأوامره والاستسلام لشرعته فينطبق عليهم قول الله تعالى﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

إن الكافر أو الملحد لا يقال له: إنك لن توفق في أعمالك وشؤونك إن لم تستعن بالله عز وجل، إن هذا القول لو خوطب به يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٣]، ويتنافى مع قوله عز وجل: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادِ﴾ [آل عمران: ١٩٧/٣].

إن الكافر، لم يسمّ كافراً إلا لأنه جاحد بألوهية الله عز وجل، ومن ثم فهو غير ملتزم بأي بيعة لله عز وجل في اتباع أي من شرائعه وأحكامه.. وهذا هو السبب في أنه لايخاطب بشيء من فروع الدين

والشريعة كالصلاة والصيام والفرائض الأخرى، ولا يتوجه إليه النهي عن شيء من المحرمات التي نهى الله عنها.

إن هذا الذي يذكرنا به ابن عطاء الله أدب من آداب الإسلام، ينبثق من قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله». وهذه الآداب الإسلامية إنما يلزم بها ويخاطب بها المسلمون. إذ هي متفرعة عن كليات العقيدة الإسلامية، فمن لم يؤمن إيماناً حقيقياً بها، لامعنى لإلزامه بشيء من الفروع المنبثقة عنها.

* * *

إذا تبين هذا، فاعلم أن هذه القاعدة التي يذكرنا بها ابن عطاء الله، تصدق على كل من الفرد والمجتمع، فما من إنسان مؤمن بالله عز وجل، يوقن إذ ينشط في القيام بوظائفه وأعماله أن مصدر توفيقه وسند عونه إنما هو الله عز وجل، إلا كان التوفيق حليفه، إما بما يناله من ثمرات عمله مباشرة، أو بما قد يعوضه الله عن ذلك.. إذ إن من شأن هذا الإنسان الموقن بهذه الحقيقة أن لايخطو خطوة فيما هو مقبل عليه، إلاّ ذاكراً الله، ملتجئاً إليه، متضرعاً إليه أن يوفقه وأن لايتخلى عنه، وقد ألزم الله ذاته العلية بأن لايتخلى عمن يلوذ به ويلجأ إليه، ويعود في كل شؤونه وأعماله إليه.

وقد ذكرت طائفة من الأمثلة الواقعية على هذا، في مناسبات مرت خلال شرحنا للحكم الماضية.

كذلكم المجتمع.. إن المجتمع إذ يتحرك من خلال قادته وموجهيه، شأنه في هذه القاعدة كشأن الفرد، فما من فئة أو مجموعة أو مجتمع من الناس يتحرك تحت سلطان اليقين بأن القوة إنما هي قوة الله، وأن التوفيق والسداد من عنده، إلا توّج الله أعمال هذا المجتمع أو الفئة بالتوفيق والنصر... والعكس أيضاً صحيح. وإليك طائفة من الأمثلة العملية.

يوم بدر كان طلب المسلمين للنصر بالله عز وجل، فقد كانوا على يقين بأن قوتهم من حيث الكم والكيف أقل من أن تحقق لهم نصراً. ولكنهم كانوا يطلبون النصر بالله، ويثقون بوعده، ويضيفون إلى ذلك كثرة التجائهم إليه، وشدّة تضرعهم على أعتاب كرمه وجوده، وإنك لتعلم كم استمر رسول الله ﷺ ليلة الجمعة، يجأر إلى الله بالشكوى والدعاء ويسأله التوفيق والنصر.. فكان أن استجاب الله دعاءهم وحقق لهم النصر الذي سألوه، من حيث لايحتسبون. وصدقت فيهم القاعدة: «ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك» وصدق الله القائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٨/٩].

كذلك كان شأنهم في غزوة الخندق وغزوة خيبر وغزوة مؤتة وتبوك... بل في العاقبة التي انتهت إليها غزوة أحد أيضاً.

أما في غزوة حنين، فقد صدق في أوائلها الشطر الثاني من هذه القاعدة، هو «ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك». إذ وُجِدَ آنذاك في أصحاب رسول الله من أُعْجِبوا بكثرتهم، التي لم يروا مثلها في

صفوفهم قبل ذلك، فاستبشروا بالنصر اعتماداً عليها... ولكن البشارة لم تتحقق، والكثرة لم تفدهم شيئاً، فقد كان الغلط الذي تورطوا فيه أنهم طلبوا النصر بها واستبشروا اعتماداً عليها.. فصدق فيهم قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ [التوبة: ٩/٢٥].

وإذا تتبعت حال المجتمعات الإسلامية بعد عصر رسول الله إلى يومنا هذا، لم تعثر على واقع شذ عن هذه القاعدة.

الفتوحات التي تمت في عصر الخلفاء الراشدين، كانت خاضعة لهذه القاعدة..

الانتصارات التي تمت في العصور التي تلت عصر الخلافة الراشدة إنما كانت من تطبيقات هذه القاعدة.. والانتكاسات التي حدثت، كانت هي الأخرى من تطبيقاتها.

الغزوات الصليبية التي جاءت فهيمنت واحتلت أرضنا المباركة كانت من نتائج هذه القاعدة.. ولما ارتدت على أعقابها فيما بعد، عندما هبّ نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، كان ذلك أيضاً من ثمرات هذه القاعدة.

والفتح التاريخي العجيب الذي تم على يد السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية، إنما كان مصداقاً دقيقاً لهذه القاعدة، ومن وقف على الصورة المؤثرة حقاً لكثرة تضرعه والتجاءاته إلى الله، في خيمته التي كان يدير منها أعماله القتالية، داخل القلعة التي بناها في أقل من خمسة أشهر، وقف على ماتقشعر له القلوب، من أعاجيب تَذَلُّلِهِ وبكائه

ساجداً يناجي الله عز وجل (انظر ترجمة محمد الفاتح في كتاب العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني، تأليف علي همّت، ترجمة محمد إحسان). وصدق رسول الله ﷺ القائل: ((لتفتحن القسطنطينية. فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش))(١).

والخذلان الذي ران على العالم العربي وكثير من بقاع العالم الإسلامي، منذ أن تهاوت الخلافة الإسلامية، من آثار هذه القاعدة، وصدق رسول الله القائل: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قال قائل: أمن قلّة يارسول الله نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وسَيَنْزَعَنَّ الله الرهبة منكم من صدور أعدائكم، وسيقذِفَنَّ في قلوبكم الوهن. قالو: ما الوهن يارسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت))(٢).

ولايتسع المجال في هذا المقام لعرض الأدلة التفصيلية على هذا كله، إذ لسنا الآن بصدد استعراض الحوادث التاريخية وتحليلها ودراسة أسبابها، ولكن بوسعك أن تستبين أدلة الطرد والعكس لهذه القاعدة واضحة بينة من تفاصيل الأحداث التاريخية كلها، الجديد منها والقديم.

* * *

بقي أن ألفت النظر إلى أن هذه القاعدة التي ينبهنا إليها ابن عطاء الله، لاتعني أن على المؤمن الواثق بأن التوفيق والعون كله من عند

(١) رواه أحمد والحاكم في المستدرك من حديث بشر الغنوي.

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد، من حديث ثوبان.

الله، أن يهمل الحركة والأسباب وأن لايقيم وزناً للوسائل والمسخَّرات المادية في الطريق إلى الأهداف والغايات.

بل على المسلم الصادق في إسلامه أن يعلم أن يقين العقل بأن المستعان به في كل جهد وعمل هو الله عز وجل، شيء مجاله اليقين والاعتقاد، وأن يعلم أن تسخيره للأسباب التي أقامها الله في طريقه استجابةً لأمر الله وانسجاماً مع نظامه الكوني، شيء آخر.. وأن لاتعارض بين هذا وذاك، بل بينهما كمال الانسجام.

لقد قال الله تعالى: ﴿وَما النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦/٣] وقال ﴿أَمْ مَنْ هَذا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إنِ الْكافِرُونَ إلاّ فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٦٧/٢٠]. ولكنه قال أيضاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠].

فإذا اتخذ العبد المؤمن بالله الأسباب كلها وسخرها لأعماله ووظائفه كما شرع الله وأمر، فإن عليه أن يعلم أنه إنما يتحرك بقوة الله ويسير إلى أهدافه بعونه وتوفيقه. وقد علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الجمع المنسّق بين القاعدة الاعتقادية التي يذكرنا بها ابن عطاء الله، واستخدام الأسباب كلها في السلوك والأنشطة العملية، أثناء هجرته إلى المدينة المنورة.

وأختم شرح هذه الحكمة، للعبرة والدرس، بذكر هذه الحادثة:

زميل جامعي أودى إلى رحمة الله عز وجل، نشر ذات يوم مقالاً بعنوان: (عندما تعرف الأمة العربية أنها سيّد قدرها، تتخلص من

التخلف)، ضمنه كلاماً يناقض هذه الحكمة أو القاعدة التي يقررها ابن عطاء الله بشكل حاد.

كان هذا المقال هو السبب الأول في إخراج كتابي: ((من هو سيّد القدر في حياة الإنسان)) غير أن ردّي النظري عليه لم يكن ذا بال أمام الرّد العملي الذي أتاه من عند الله عز وجل. وأعتقد أن الله لو لم يرد به خيراً لما أسرع إليه بذلك الرد:

كان يمارس وظيفته ذات يوم بُعَيد نشره لذلك المقال، مزدهر العافية متضرج الوجه ممتلىء الصحة، وفجأة غاب عنه ذلك كله ووقع أرضاً!.. حمل إلى المشفى وعولج فيه أياماً دون أن يستبين سبباً لهذا الذي فوجىء به.

رأيته بعد ذلك بأشهر عرضاً ذاوي الوجه، مُنهَك القوى، سلمت عليه بتحية حارة، وسألته عن صحته وحاله، فقال لي:

((فضّلها الله عز وجل، ولطف بي، ولقد أكرمني فوفقني للقيام بعمرة، ولكم شكرته ودعوته هناك)).

ماذا بقي للإنسان إذن؟

بقي أن يستيقظ إلى هذه الحقيقة التي أفضنا في بيانها وشرحها، قبل أن يصيبه مثل هذا الخبل الذي تعرض له من كان يحلم بأن يكون سيّد قدره، ثم أن يلوذ في كل شؤونه وتصرفاته وأعماله بالله عز وجل، موقناً بأنه وحده السند، وبأن العبد، أياً كان، لايملك من دونه قوة ولاعلماً ولاتدبيراً، ثم ينهض بكل ما قد أمره الله به من واجبات، قائلاً بكل مشاعره وأحاسيسه الإدراكية ((لاحول ولاقوة إلا بالله)).

الحكمة السادسة والعشرون

«من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات »

نحن نعلم أن من أهم الأدعية التي ندعو الله بها ونكررها، الدعاء بحسن الخاتمة.. كما أننا نعلم أن الإنسان إذا آل إلى الله بخاتمة حسنة، آل إليه مغفوراً مكرماً، والعكس أيضاً صحيح، وكثيراً ما نستشهد على هذا بآيات من كتاب الله عز وجل من مثل قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٥٠/٣١-٣٣].

ولاريب أن هذا الدعاء مطلوب ومفيد، وأن اعتقادنا بأهمية حسن الخاتمة اعتقاد صحيح وسليم.

ولكن في الناس من يتصوَّرون أن هذا يعني، أن لاعبرة من سلوك الإنسان وحاله، إلا بما يكون منه في آوخر حياته. أي فلاحرج في أن يستجيب الشاب لأهوائه ونزواته، وأن يشرد عن أوامر الله وصراطه، وحسبه أن يرعوي إلى الله وأحكامه عندما تنزل به الشيخوخة أو يشعر أن مرضاً خطيراً قد أحدق به.

كثيرون هم الذين يتصورون هذا، يستسلمون لنزواتهم ورغباتهم في مقتبل العمر، وفي مرحلة القوة والنشاط، معتقدين أن العبرة بما تكون

عليه حال الإنسان في الأيام الأخيرة بل ربما الساعات الأخيرة من حياته.

ولكن فلتعلم أن هذا التصور خطأ قتّال، وخدعة شيطانية ماكرة!...

إن خاتمة حياة الإنسان لاتكون إلا ثمرة ونتيجة لما قبلها من البدايات والأحوال السابقة، إنها ليست إلا الصدى لما كان عليه حال الإنسان من قبل، معتَقَداً وسلوكاً.

أرأيت كيف ينشأ الأصل، ثُمَّ تنبثق عنه فروعه؟.. أرأيت إلى النبات كيف يخضرّ ثم ينمو، ثم تظهر الثمرة في أعلاه؟ كذلكم خاتمة حياة الإنسان، إنها فرع وثمرة لما كان عليه حاله من قبل.

ألا فلتعلم أنه بمقدار ماتكون بداءات حياتك سليمة مستقيمة لاعوج فيها، تضمن لنفسك خاتمة حسنة، إذا حان الرحيل وجاء الموت، وبمقدار ما تستسلم في البداءات السابقة من حياتك لعواصف الأهواء والشهوات ومحبة الأغيار، تغيب عنك هذه الخاتمة الحسنة.

تلك هي الحقيقة التي ينبهنا إليها ابن عطاء الله في حكمته هذه: ((**من علامات النجح في النهايات، الرجوع إلى الله في البدايات**)).

قد تقول ولكن الحديث الصحيح الذي يقول رسول الله في أوله: ((إنه ليجمع خلق أحدكم في بطن أمه..)) يؤكد خلاف هذا الذي تقول في نهايته، إذ يختمه رسول الله قائلاً: ((فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم

ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[١].

أقول: إنك إن فهمت الحديث على الوجه الذي توهمته، فذلك يعني أن الله عز وجل من شأنه أن يضيّع قربات الطائعين وأن يبدّدها لهم، ويسقط ما قد يكون فيها من قيمة من حيث هي طاعة أريد بها وجه الله.

وهذا الوهم باطل منفي عن ذات الله عز وجل، مناقض لصريح بيانه في محكم تبيانه، ألم يقل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ١٨/٣٠]، أو لم يقل: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]، أوليس هو القائل: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٥].

إذن لابدّ أن يفهم كلام رسول الله في هذا الحديث الذي يستشكله بعض الناس، بما يتفق وكلام الله عز وجل.

وسبيل التوفيق هو أن نعود إلى كلام رسول الله ذاته في هذا الحديث. فقد روى مسلم في صحيحه هذه الفقرة الأخيرة من الحديث بألفاظ قريبة أخرى من حديث سهل بن سعد الساعدي، جاءت هكذا: ((إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)).

---

(١) حديث إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً.. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه كلهم من حديث عبد الله بن مسعود.

إن كلمة «فيما يبدو للناس» الواردة في الحالتين في رواية سهل بن سعد هذه، تبرز وجه الانسجام التام بين الحكمة التي نحن الآن بصدد شرحها وكلام رسول الله في نهاية الحديث المذكور.

وفي ضوء هذه الرواية التي قيدت عمل الإنسان بكلمة «فيما يبدو للناس» ينبغي فهم الرواية الأخرى المطلقة والتي هي من رواية عبد الله بن مسعود، لأن القاعدة الأصولية المعروفة تقضي بتفسير اللفظ العام في ضوء الخاص والمطلق في ضوء المقيد، لا العكس[1].

إذن فالانفصال الذي قد تراه بين ختام حياة الإنسان وبداياتها إنما هو فيما يبدو، كما يقول رسول الله، أما في الحقيقة التي قد لاتبدو لك، فبينهما من الاتصال والتفاعل مابين السبب والمسبب، والمقدمة والنتيجة، والأصل والفرع.

وبيان ذلك أنك قد ترى الرجل يلازم المساجد، لاتفوته صلاة الجماعة، لايغيب عن مجالس العلم والذكر، تبدو عليه سيما الصالحين، ولكنه يرائي الناس في سره.. يجعل من سلوكه والتزامه هذا سبيلاً لثقة الناس به ومحبتهم له، كي تروج تجارته وتتحقق مصالحه، فهو يعمل عمل أهل الجنة في الظاهر، أي فيما يبدو للناس، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، إذ إن الله طيب لايقبل إلا طيباً، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله لاينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى

(١) انظر مزيداً من التفصيل في شرح هذا الحديث في كتابي (الإنسان مسير أم مخير) ص١٢٠ ومابعدها.

قلوبكم)) وأشار بإصبعه إلى صدره[١]. فختام حياته يأتي منسجماً مع واقع حاله السابق الذي يعلمه الله، وإن لم يكن منسجماً معه في الظاهر المخادع الذي يبدو لك.

وقد ترى الرجل عاكفاً على الموبقات مبتلى بالمحرمات، فهو فيما يبدو يعمل بعمل أهل النار ويسير نحو النهاية التي سينتهون إليها، ولكنك لاتطلع على ماوراء هذا الظاهر من خفايا شأنه، لعله يعود في نهاية كل يوم أو ليلة إلى داره، كسير القلب أسيف البال، يشكو إلى الله سوء حاله ويتضرع إليه أن ينتشله من وهدة انحرافه (والدعاء كما قد علمت لب العبادة، بل هو العبادة) ولعل آلامه الخفية هذه تدعوه إلى أن يتقرب إلى الله بما يتأمل أن يكون سبباً لتوبته أو شفيعاً له عند الله عز وجل، فيمعن في البحث عن الفقراء والضعفاء والمنكسرة قلوبهم لظلم حاق بهم أو لعجز انتابهم، يرعاهم ويكشف عنهم أسباب بؤسهم ويرفع يد الظلم عنهم، لايبتغي من وراء ذلك شيئاً إلا أن يكرمه الله، بالهداية وأن يتجلّى عليه بالمغفرة والصفح.

ولعلك لاترى من أعماله الخفية هذه شيئاً، إذ الغالب أنها إذ تصدر من هؤلاء التائهين تكون خفية، وتكون الدوافع إليها قلبية لايطلع عليها إلا الله عز وجل.

فإذا فوجئت بتوبة هذا الإنسان إلى الله قبيل وفاته، وبإقباله إليه بالأعمال الصالحة، يخيل إليك بسبب الظاهر من حاله السابقة التي لم

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه وأحمد من حديث أبي هريرة، وحديث: ((إن الله طيب لايقبل إلا طيباً)). رواه مسلم والترمذي والدارمي وأحمد.

تكن تعلم غيرها، أن الله قد أكرمه بخاتمة جاءت على غير أساس وبدون أي مقدمات، وقد تتوهم من جراء جهلك ببواطن الأمور أن هذه الحكمة غير دقيقة أو غير صحيحة.

ومما ييسر لك فهم هذا الذي نقول، أن تعلم أن الرجوع إلى الله في البدايات، ليس محصوراً في ظواهر الطاعات والعبادات، بل لاينطبق دائماً على هذه الظواهر، إن من الرجوع إلى الله عز وجل كثرة الالتجاء إليه والتضرع بالدعاء بين يديه، ولاشك أن من أحب الأعمال إلى الله أخفاها وأكثرها خصوصية بين العبد وربه. وهذا هو شأن الالتجاء إلى الله والانكسار على أعتابه بالدعاء الواجف.

ولعمري لاقيمة لظواهر الطاعات، إن لم يكن لها اتصال بجذور هذه الأحوال الخفية التي مكانها القلب والتي لايطلع عليها إلا الله عز وجل. إن ظواهر الطاعات تغدو عندئذ أشباحاً بدون أرواح، وصوراً مزيفة عن الحقائق، إنها أشبه ماتكون بهذه الزهور الاصطناعية لها صورة الزهور وليس فيها شيء من عبقها وأريجها!..

وإذا وقفت على مثل قول الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣] فاعلم أن الله لم يقض قضاءه هذا بحق أعمالهم تلك، إلاّ لأنهم ابتغوا بها معبوداً لهم غير الله عز وجل، من دنيا يسعون إليها أو أناس يطمعون في خيرهم أو يخافون من شرهم، أو رئاسة أو زعامة يحلمون بها.

وكيف يهدر الله أعمالهم ويحيلها إلى هباء منثور، عندما تكون نقية خالصة من الشوائب، وهو الذي يقول في محكم كتابه ﴿فَاسْتَجَابَ

لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣] وهو الذي يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠/١٨].

ثم إن إدراك هذه الحقيقة، يكشف لك اللغز الذي لايستبين تفسيره لكثير من الناس، والذي يتمثل في حال أناس كنت تراهم في الظاهر ـ أيام نشاطهم وإقبالهم إلى الحياة ـ من ذوي الطاعات والقربات والمنافسين لغيرهم في الخيرات والمبرات، فلما كانت خاتمة حياتهم اتجهوا إلى الموبقات وتحللوا من الالتزامات، ثم ماتوا عاكفين على هذه الحال. إن هذه الظاهرة تعني أنهم لم يكونوا من خلال طاعاتهم والتزاماتهم السابقة يتعاملون مع الله، وإنما كانوا يتعاملون مع مصالحهم ورغائبهم الدنيوية التي كانت تقتضيهم الظهور بمظهر الالتزامات الدينية، والأعمال الصالحة المبرورة، ولاتنس أن التعامل بالدين أيضاً سلعة تجارية رابحة لمن ابتغى ذلك، شأنها كشأن السلع التجارية الأخرى، كالأقمشة والأغذية وأعمال البناء ونحوها.

كما قد يتمثل في حال أناس آخرين، كنت تراهم في حال إقبالهم إلى الحياة، وفي مرحلة نشاطهم فيها، عاكفين على الغيّ شاردين عن أوامر الله، حتى إذا كانت الأيام أو الأشهر الأخيرة من حياتهم، تحولوا من حالهم تلك إلى حال أخرى من التوبة والإنابة إلى الله، وتحرروا من سائر الموبقات التي كانوا أسيرين لسلطانها، وضبطوا أنفسهم بأوامر الله وأحكامه، ثم جاءهم الموت وهم على هذه الحال... إن هذه الظاهرة تعني أنهم في حالهم الأولى، كانت لهم صلة خفية بالله عز وجل، تتمثل في قربات خفية يبتغون بها وجه الله عز

وجل، أو في كثير من الدعوات والالتجاءات إليه عز وجل أن يهديهم ويتداركهم بالعون على التوبة والإنابة إليه، ونحن لانطلع على هذه الأمور الخفية التي قضى الله تعالى أن تبقى سراً بين الله عز وجل وعباده هؤلاء.

فأما من استوى الظاهر والباطن في حياته من حيث الاستقامة على دين الله وأوامره، أو من حيث الشرود عنهما والتفلت عن ضوابطهما، فلابدّ أن تأتي الخاتمة متساوقة ومنسجمة مع البداية إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وستجد عندئذ مدى دقة هذه القاعدة القائلة: ((من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات)).

واعلم أن من ثمرات إدراكك لهذه الحكمة، وتبينك لمستنداتها من القرآن والسنة، كما أوضحنا، أن تكون كثير الأدب مع عباد الله جميعاً. شديد الحيطة في أحكامك عليهم كثير التحفظ في قراراتك بحقهم..

إن رأيت من يبدو على ظاهره الإعراض عن أوامر الله، والاستغراق في الموبقات والمنسيات والملهيات، فتوجه إليه بما تستطيع من النصح والتذكرة، وأْمُرْهُ ما وسعك الأمر بالمعروف، وانْهَهُ عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن إياك أن تحكم عليه في سرّك أو بلسانك بأنه من أهل الشقوة والعذاب، فإنك لاتعلم شيئاً من خفايا أمره وحاله مع الله عز وجل، ولاتعلم أَلَهُ خيوط من أعمال صالحية خفية يبتغي بها وجه الله عز وجل. بل كن على حذر من مثل هذا الحكم الغيابي عليه، بل ضع في اعتبارك أنه ربما أصبح في عاقبة أمره خيراً منك.

وإن رأيت من تبدو على ظاهره الاستقامة على أوامر الله وتتجلى في تصرفاته وأحواله سيما الصلاح والتقوى، فحسّن الظن به عملاً بقاعدة ((نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)) ولكن لاتجزم بعاقبة أمره، ولاتتأل على الله في حكمك له بالخاتمة الحسنة، فإنك لاتتطلع على خفايا قصده، ولاعلى سرائر أعماله وسلوكه. غير أن الحيطة في الأمر تقتضي أن تحسن الظن بهذا وذاك.

تحسن الظن بهذا، عملاً بقاعدة ضرورة الحكم بمقتضى الظاهر، وتحسن الظن بذلك أملاً في أن يكون له من الصلة الخفية بالله مايكون شفيعاً له بين يدي الله، وما يكون سببا في إكرام الله له بالخاتمة الحسنة، في دنياه.

إنّ أمر العصاة بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أياً كانوا، أمر حسن ومطلوب، بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن الترفع والاستكبار عليهم أمر سيّئ ومذموم، وليعلم من لايبالي بذلك أنه من هذا الشأن على خطر. ويبدو أنه ابتلاء يعاني منه كثير من الناس الذين يفرحون بأنهم مستقيمون ملتزمون بأوامر الله عز وجل.. يحملهم فرحهم بذلك على الانتقاص من شأن العصاة والتائهين وعلى ازدرائهم والشعور بالسمو فوقهم والتعالي عليهم.

أذكر يوم كنت ألقي دروس الحكم العطائية هذه في مسجد السنجقدار أن شاباً مخموراً اقتحم المسجد، أثناء الدرس، وهو يتطوح سكراً. واتخذ لنفسه مكاناً بين الجالسين، فهب إليه جمع من المصلين الجالسين وأقبلوا ينتهرونه ويعملون على طرده من المسجد.

قلت لهم: فيم تنتهرونه وتطردونه؟!.. عاص جاء يلوذ من عصيانه ببيت من بيوت الله عز وجل. أتحولون بينه وبين إلهه الذي جاء يلوذ به؟ وما أدراكم؟ لعل الله سيتقبل منه إقباله والتجاءه، فيطهره من عصيانه ويتوب عليه، ويغدو بعد أيام أو شهور خيراً مني ومنكم؟

ووضع أحدهم أمامي، خلال تلك الدروس ذاتها، ورقة حذرني فيها من أن في المسجد مخبرين جاؤوا للمراقبة وتتبع ما سأقوله في الدرس، ونعت صاحب الورقة هؤلاء المخبرين بصفات سيئة غير لائقة.

وأذكر أني علقت على ماجاء في هذه الورقة، مطولاً، ووجهت السؤال التالي إلى كاتب الورقة: من أين لك أن تجزم وتستيقن أنك أحسن حالاً عند الله، من هؤلاء الإخوة الذين تحذرني منهم؟ وما الضمانة التي تجعلك على يقين بأن الشيطان لن يغويك، ولن يتخطفك عن صراط الله عز وجل، ليزجك في شرٍ من الحال التي عليها هؤلاء الناس؟ وما القرار الذي اطلعت عليه بأن الله لن يهديهم إلى خير مما أنت عليه الآن؟

ثم لماذا تحتكر قابلية الاستفادة من سماع الحق، لنفسك؟ ألسنا جميعاً، نحن بني آدم، مفطورين على هذا الحق الذي نذكره ونتواصى به؟ أو لم يجهزنا الله جميعاً بالعقل المدرك وقابلية الانقياد للحق؟ وهب أن هؤلاء الناس أقبلو فجلسوا في هذا الملتقى المبارك في بيت الله عز وجل لغاية، ألم يقل رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن مثل هؤلاء الناس الذين تنتقصهم، نقلاً عن ربه عز وجل: ((..هم القوم، لايشقى بهم جليسهم)).

وصفوة القول أن على المسلم الذي أكرمه الله بالهداية والالتزام أن يكون متأدباً مع عباد الله، وأن عليه أن يدرك أن أشدّ الناس غواية وضلالاً، ربما أصبح أكثر منه هداية وأشد منه التزاماً... على أن لايصدّه ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلما اقتضى الأمر ذلك.

فإذا آل هذا العبد إلى الله، دون أن تدري بيقين حاله التي فارق الدنيا عليها، فافترض بل رجح أنه لم يفارقها إلا تائباً صالحاً مصطلحاً مع الله عز وجل، فإن خيراً من ظنك السوء به، وظنك المقت من الله له، أن تظن التوبة والإنابة منه إلى الله، والصفح والغفران من الله عز وجل له.

ولهذا صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم))، وقد ورد هذا الحديث بأكثر من طريق بألفاظ متقاربة[١].

وياعجباً لبعض الناس اليوم!.. كيف يحسنون الظن بالله في حق أنفسهم ويبالغون في الوقوف عند مظاهر ودلائل إكرامه ورحمته ومغفرته، ويستذكرون الآيات والأحاديث التي تؤكد سعة عفوه، فإذا

(١) رواه أبو داود والترمذي والطبراني والحاكم من حديث ابن عمر مرفوعاً، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وروى البخاري عن عائشة مرفوعاً: ((لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا)). وروى أبو داود أيضاً عن عائشة مرفوعاً: ((إذا مات صاحبكم فدعوه، لاتقعوا فيه)). وروى الطبراني عن سهل بن سعد بلفظ: ((ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحدهم فقولوا فيه خيراً)).

فاعجب أيها القارئ لمن يخوض في مخاضة مظلمة لم يأذن بها الله، ويناقض باستخفاف وترفع، هدي رسول الله، وهو يزعم أنه إنما يغار بذلك على الإسلام!!

ذُكّروا بعصاة ومسرفين على أنفسهم آلوا إلى الله عز وجل، لم يشكّوا في أنهم على موعد مع عذاب الله ومقته، اعتماداً على ظاهر ما كان يبدو لهم منهم، وتأملاً في أن يأتي حكم الله في حقهم تبعاً لما تهواه وتتمناه نفوسهم.

ولو سئل أصحاب هذه الأماني: أفكنتم على علم بسرائر هؤلاء الناس، وعلى اطلاع بأحوالهم الخاصة في بيوتهم، وفيما بينهم وبين ربهم، فعلمتم أنهم لم يرحلوا من الدنيا إلا مثقلين بالأوزار والعقائد الباطلة، وأيقنتم من ثَمَّ بأن الله عز وجل لم يدّخر لهم عنده إلاّ الخزي والعذاب؟ أقول: لو سئل أصحاب هذه الأماني عن ذلك لتلجلجوا ولخانتهم الإجابة التي يبتغون!...

فياعجباً لأناس يتألون على الله في حق أنفسهم أنهم المغفورون والمرحومون والمأجورون.. ويتألون على الله في حق أمثال هؤلاء الآخرين أنهم الممقوتون والمحرومون من صفح الله ورحمته، مع العلم بأن آدابنا الإسلامية التي نسجها لنا كتاب الله وسنة رسوله، تأمرنا بعكس ذلك: أن نَوْجَل من مقت الله وعقابه في حق أنفسنا، وأن نفترض العاقبة الحسنة في حق إخواننا الذين لانعلم شيئاً من سرائرهم، ولانعلم كيف آلوا إلى الله عز وجل، وكيف كانت عاقبة حياتهم.

* * *

ثم اعلم أن هذه القاعدة ليست خاصة أو محصورة ببداية الحياة ونهايتها، بل هي تشمل بداية أي شيء ونهايته في حياة الإنسان، فمن بدأ عمله الدراسي معتمداً على الله فيما يبذل من جهد، راجعاً إلى

الله في معرفة حكم دراسته ومدى موافقتها لشريعته وأحكامه، حالفه التوفيق في النهاية وأثمرت جهوده الغاية التي يسعى إليها.

ومن بدأ مشروعاً تجارياً أو صناعياً مستشهداً فيه بميزان الشريعة مستبيناً مدى مطابقة مشروعه لأحكام الإسلام، ثم سار فيه معتمداً على توفيق الله عز وجلّ، لابدّ أن يحالفه النجح الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله في النهايات.

ومن دخل في معترك سياسي، مدافعاً عن حق لأمته أو لوطنه أو محافظاً على القيم والمبادئ، راجعاً في ذلك إلى هدي الدين وميزانه، طالباً العون والتوفيق من الله عز وجل، لابدّ أن تكون عاقبة أمره النصر والتوفيق.. إلى آخر الأمثلة المشابهة.

كما يدخل في هذه القاعدة، الأعمال والمشاريع الغامضة التي يقدم أحدنا عليها وهو لايدري أخير هي أم شر، ولايعلم شيئاً عن النتائج والعواقب التي ستواجهه من ورائها.

والرجوع في مثل هذه الأمور إلى الله عز وجل، يعني أن يستخير الله عز وجل في شأنها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ، يصلي ركعتين بنية الاستخارة، ثم يدعو الله بالدعاء المعروف والمأثور عن رسول الله في باب صلاة الاستخارة، ثم يباشر الأسباب المشروعة للعمل الذي هو بصدده، متكلاً على الله ومستعيناً بقوته وتوفيقه. فإنه إن كان خيراً في علم الله عز وجل وسابق غيبه، يسّره الله له ونال من ورائه الخير الذي يبتغيه، وإن كان شراً في سابق علمه عز وجل، صرفه الله عنه من حيث يحتسب أو لايحتسب.

ومن المهم أن تعلم أن نتائج الاستخارة التي علمنا إياها رسول الله لاتتوقف على منام يراه المستخير صاحب المشروع، كما يظن كثير من الناس، وصلاة الاستخارة ودعاؤها، لايتضمنان طلباً أو دعاء من الله عز وجل أن يَرى المستخيرُ في رؤياه مايشير له إلى مشروعه الذي هو بصدده أينطوي على خير أم شر. وإنما يتضمن كل منهما الدعاء من الله عز وجل، بتيسير هذا الأمر إن كان خيراً وصرفه عنه إن كان شراً.

نعم، الرؤيا الصادقة ـ بقطع النظر عن الاستخارة ـ جزء من ثلاث وأربعين جزءاً من النبوة كما قال رسول الله ﷺ أي إن بوسع الذي يرى رؤيا أن يستبين تأويلها بواسطة من أوتوا علماً بذلك، على أن يعلم أن في الرؤى والأحلام ما لاتأويل له، وإنما هي انعكاسات وآثار لمشاعر نفسية.

ولعلك قد عرفت الجواب عن سؤال قد يطرحه بعض الناس عرضت له وأجبت عنه في شرح الحكمة السابقة التي جاءت هذه الحكمة تتمة لها. وسؤالهم هو أن المسلم ربما باشر عملاً التزم فيه بأوامر الله وتعليماته، واستعان فيه بالله عز وجل، ومع ذلك لم يحالفه النجح في النهاية.

لعلك تذكر الجواب الذي ينبغي أن أعيده الآن، وهو أن النجاح في العمل الذي يقدم عليه أحدنا، ليس محصوراً في المضيّ في حرفية العمل

ذاته، بل النجاح فيه يعني أن يكرم الله صاحب العمل بالهدف الذي يسعى إليه من ورائه، بقطع النظر عن الوسيلة التي يسخرها الله له إليه.

كم من متجه إلى مشروع تجاري يقتضيه بعض الأسفار البعيدة أملاً في ربح مالي يحصل عليه ابتغاء تحقيق أهداف محددة له، فحوله الله من ذلك المشروع، إذ أغلق سبيله عليه، ووجهه إلى سبيل آخر كان أقرب إلى الهدف الذي ابتغاه.

وكم من مصرّ على دراسة لعلوم ومعارف معينة أملاً في الحصول على أهداف اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية محددة، فلم يحالفه التوفيق في دراسته على الرغم من تكرار التجربة والحرص عليها، ثم اتضح له أن الدراسة التي ظنها سبيلاً إلى هدفه المرسوم لم تكن لو نجح فيها إلا عائقاً عن ذلك الهدف.

إنها حقيقة معروفة، يعامل الله بها عباده، لدى التجائهم إليه، وتوكلهم الدائم عليه.

ومن صدق مع الله في الاستقامة على أمره والاستعانة الصادقة به، والتوكل الدائم عليه، يعلم هذه المعاملة الكريمة من الله له... وأنا واحد من الذين تفضل الله عليهم، وعاملهم على هذا المنوال، حقق لي رغائبي على أحسن ما قد كنت أتخيلها، بأيسر وأفضل من الوسائل التي كنت قد حصرت نفسي فيها.

وانظر إلى كلمة ((في النهاية)) التي عبر بها ابن عطاء الله في هذه الحكمة، وتأمل فيها، تجد أنها تشير إلى الجواب الذي ذكرته لك.. إن العبرة بعواقب الأمور ونهاياتها ولن تأتي هذه العواقب إلا بما يتفق والقاعدة التي تعبر عنها هذه الحكمة. وتصدق هذه القاعدة، كالتي قبلها في حق كل من الفرد والمجتمع سلباً وإيجاباً.

فاتهم نفسك بالعجز عن إدراك مايسعدك، ولاتتهم مولاك وخالقك بالإعراض عن حمايتك وتوفيقك، أو بعدم الاستجابة لدعائك في تحقيق رجائك.

* * *

الحكمة السابعة والعشرون

((من أشرقت بدايته أشرقت نهايته))

أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى الإطالة في شرح هذه الحكمة، إذ هي تتمة، بل تأكيد للتي قبلها.

والمهم أن نعلم أن حسن الخواتيم في كل الأعمال والأعمار، رهن بحسن البدايات، كما سبق أن أوضحنا. والبداية المشرقة هنا، تعني التربية التي ينبغي أن يتلقاها السالك، في صدر حياته، عقيدة يغذي بها عقله، وتزكية يصلح بها نفسه. وإنها لمرحلة تأسيسية ذات أهمية كبرى.

فإن هو أقام هذا الأساس في صدر حياته، ونجح في ترسيخه، غدا سلوكه إلى الله عملاً آلياً، لايرهقه بأي جهد، وأصبح تعامله مع الناس دائراً على محور دائم من مراقبة الله عز وجل، وتلك هي ضمانة الأخلاق الرشيدة، وهل الحياة المشرقة أكثر من هذا، سير على صراط الله في اتباع أحكامه، ومراقبة لله في التعامل مع عباده؟!..

وإذا أشرقت حياة الإنسان بهذين الضياءين، ضمن لنفسه بذلك سعادة العاجلة والعقبى. ومن سلك هذا السبيل عرف صدق ما أقول.

ومرة أخرى أقول: إن هذه القاعدة كما تنطبق على الفرد تصدق بالقدر ذاته على المجتمع. إن المجتمع الذي يسمى إسلامياً، لاتشرق في حياته السعادة بكل ما هو معروف من أركانها ومقوماتها إن لم تأسس بدايته على تربية عقلية ونفسية تسري في حياة أفراده طبق منهج رباني يضبطه كتاب الله وهدي رسوله.

ولعلك تقول مرة أخرى: فهاهي ذي المجتمعات الغربية تتمتع بألوان من النعيم لاحصر لها، ويزدهر فيها التقدم العلمي والحضاري، دون أن تزدهر بدايتها بأيّ إشراق!

وبالإضافة إلى ما قد ذكرته من قبل جواباً عن هذا السؤال أقول: وهل وصلت هذه المجتمعات من سيرها إلى نهاية مشرقة، حتى يرد الإشكال؟

إنها اليوم تغامر وتسير... والمصائب التي تتحملها أكثر وأخطر من المتع التي تتنعم بها. والمستقبل الذي يحمل صورة النهاية، لايبشر فيما يقرره علماء الاجتماع بأي خير.

أنا لاأنكر أن عشرات الآلاف الذين ينتحرون كل عام في أمريكا وأوربا، إنما ينتحرون داخل بيوت فارهة، وضمن نظام تقنيات عالية، وتحت أشعة أنوار ساطعة. ولكني لاأستطيع أن أتذكر رفاهية المنازل وألق النعيم وفنون الترف، وأن أنسى الانتحار.

* * *

خاتمة الجزء الأول

أحمد الله في نهاية الجزء الأول كما قد حمدته في أوله، إذ منه الفضل كله، ومن ثم فله الحمد كله.

ولقد شاء الله عز وجل أن أكتب خواتيم هذا الجزء الأول من شرح هذه الحكم الجليلة، وأنا في مدينة فرانكفورت بألمانيا، أدركتني فيها الحكمتان: السادسة والعشرون والسابعة والعشرون، كتبت شرحهما خلال لقاءات مباركة فيما أحسب مع أخوة تبادلت معهم الحب في الله، والتناصح لله، والتواصي على أن لانتخذ من دون الله وليّاً ولانصيراً، وعلى أن يراقب كل منا قلبه فلايدع أي حظ للأغيار يسري إلى نفسه أو يهيمن على تصرفاته وسلوكه، حتى تغدو أفئدتنا أوعية لحب الله والانقياد لأوامر الله، والإخلاص لدين الله وحده، دون الركون إلى أي شريك من العصبية للذات أو الانتصار للنفس، أو إلى أيّ من أعراض الدنيا على اختلافها.

أما أنت يا أخي القارئ فادع الله لي أن يوفقني لإتمام سلسلة أجزاء هذا الشرح على نحو يرضيه قصداً وعملاً.

وإلى اللقاء على صفحات الجزء القادم، إن امتدت بي الحياة وحالفني التوفيق.

* * *

المحتوى

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
خطبة الكتاب:	٧
ـ كلمة عن كتاب (الحكم) وصاحبه	٨
ـ حكم ابن عطاء الله، والتصوف	١٠
ـ الإحسان وموقعه من الإسلام والإيمان	١٢
ـ فإذا جاء من يحذّر من البدع التي تسربت إلى هذا النهج..	١٧
الحكمة الأولى:	٢١
ـ الاعتماد على العمل، أهو في الشرع محمود أم مذموم	٢١
ـ حكم ابن عطاء الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام	٢٢
ـ مامعنى قولك: إن الله إنما يثيبني بعملي؟	٢٣
ـ معنى قول الله عز وجل: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾	٢٦
ـ معنى قول رسول الله: ((لن يُدخِلَ أحدَكم الجنة عمله))	٢٩
ـ قد يوسوس الشيطان بأن الطاعات ليس لها إذن أي دور في تفضل الله على العبد، فلا فرق إذن بين الطائع والعاصي	٣٢
ـ يجب على المسلم أن يعبد الله لأنه عبده ولأن الله ربه، أي سواء أثابه الله على طاعاته أم لا	٣٧
الحكمة الثانية:	٤٠
ـ معنى كلمتي: الإقامة في التجريد ـ والإقامة في الأسباب	٤٠
ـ خلاصة سريعة لمعنى هذه الحكمة، ثم البدء بتحليل الشطر الأولى منها: من أقامهم الله في عالم الأسباب.	٤١

الموضوع | الصفحة

- يقول بعضهم: لماذا أخضع لسلطان الأسباب؟ إنني مع المسّبِب!.. ٤٣
- العمل الصالح يتمثل في أعمال كثيرة شتى. ٤٦
- الانتقال إلى شرح الشطر الثاني من هذه الحكمة: من أقامهم الله في عالم التجريد. ٤٦
- عرض طائفة من التطبيقات المبصّرة بهذا القانون الشرعي الهام. ٤٩

الحكمة الثالثة: ٦٠

- هذه الحكمة ذيل وتتمة للحكمة التي قبلها ٦٠
- عود إلى بيان معنى القضاء والقدر ٦١
- علاقة كلام ابن عطاء الله هنا بالحكمة السابقة ٦٢
- هل في الأسباب الكونية فاعلية أودعها الله فيها؟ جواب مفصل ودقيق عن هذا السؤال ٦٥
- الجواب عن السؤال القائل: ففيم التعامل مع الأسباب إذن ٦٩
- بيان الأثر التربوي الذي يتركه التعامل مع الأسباب مع الاعتقاد الجازم بأن لافاعلية فيها ٧١

الحكمة الرابعة: ٧٣

- قد يرى بعض الناس تعارضاً بين هذه الحكمة والتي قبلها ٧٣
- بيان مفصل للفرق بين اتخاذ الأسباب، والتدبير الإلهي الذي تجند له الأسباب ٧٣
- هل من اليسير أن يتبرأ الإنسان من مزاعم التدبير مع واجب اتخاذه الأسباب وما العلاج؟ ٧٧

الموضوع الصفحة

- علاج ذلك الإكثار من ذكر الله ومراقبته ٧٨

الحكمة الخامسة: ٨٢

- جواب عن سؤال يقول: فإذا كانت الأسباب ليست فيها قوى أودعها الله فيها، فلماذا قال الله للنار التي أوقدت لحرق إبراهيم: يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم؟ ٨٢
- عود إلى شرح الحكمة: بيان الوظيفة التي ألزم الله بها الإنسان، والوظيفة التي ألزم الله بها ذاته العلية تجاهه ٨٣
- من أهم مايجب علمه أنه مامن مخلوق إلا وأقامه الله تعالى على وظيفة ٨٥
- غير أن الله قضى أن تمارس المخلوقات كلها وظيفتها بالاضطرار الخِلقي، أو بالشعور الغريزي، إلا الإنسان فقد قضى أن يمارس وظيفته عن طريق الحرية والاختيار ٨٥
- والعجب في حال الإنسان أنه بدلاً من يزداد إقبالاً على الوظيفة التي أقامه الله عليها عن طريق الحوار والاختيار، يتخذ هذه المزية ذاتها في كثير من الأحيان سبيلاً للتمرد على أوامره وحكمه ٨٧
- الغريب أن تجربة إعراض الإنسان عن الوفاء بعهد الله، يتجلى للعيان سوء نتائجها، ومع ذلك فمن شأن كثير من الناس الإمعان في هذا الإعراض! ٨٩
- تجربة الأمة العربية يوم كانت وفية بعهد الله ثم يوم أخذت تعرض عن الوفاء بعهده ٩٠

إذا كان ابن عطاء الله يحذرنا من الاجتهاد فيما ضمن لنا، فلماذا أوجب الله علينا التعامل مع الأسباب؟ جواب مفصل عن هذا السؤال ٩٢

الموضوع | الصفحة

الحكمة السادسة: ١٠١
- أولاً: تعالوا نتساءل عن معنى الدعاء وشروطه ١٠١
- الفرق بين الطلب والدعاء ١٠٤
- من عادة الله عز وجل لدى استجابته لدعاء عبده، أن يحقق له الهدف المطلوب بقطع النظر عن الوسيلة التي تعلق بها ١٠٥
- خطأ ثان يقع فيه الإنسان أحياناً، هو استعجاله الاستجابة ١٠٧

الحكمة السابعة: ١١٠
- في كتاب الله تعالى وعود كثيرة ألزم الله بها ذاته العلية دون اشتراط دعاء، قد يرى كثير من الناس أنها لم تتحقق وأن الواقع يخالفها، فما الجواب ١١٠
- النتيجة هي أن الله لايخلف وعداً قطعه على ذاته لمن أدوا شروط الوفاء به ١١٥
- على كل من يتعامل مع الله عز وجل أن يبدأ فيعلم سنن الله التي يتعامل على أساسها مع عباده ١١٧
- من هذه السنن قوله عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لاتصيبّن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ ١١٧
- ومن هذه السنن أيضاً ما يعامل الله به الطغاة الذين قطعوا آخر خيوط الصلة بمولاهم عز وجل ١٢٠

الحكمة الثامنة: ١٢٢
- انتقال الإنسان من أودية الضلال إلى صعيد الهداية يتم بأحد طريقين: طريق الإنابة، أو طريق الاجتباء، والتعريف بكل منهما ١٢٢

الموضوع الصفحة

- ابن عطاء الله يلفت النظر في هذه الحكمة إلى الهداية التي قد يكرم الله بعض عباده عن طريق الاجتباء ١٢٣
- نماذج من أخبار من هداهم الله إليه عن طريق الاجتباء ١٢٥
- مصدر الاجتباء فضل الله عز وجل، والله يؤتي فضله من يشاء ١٢٧
- ترى هل من سبيل لمعرفة صفات من قد يتعرضون لهذا الاجتباء الإلهي؟ ١٣٠
- الذي نملك أن نقوله هو أن كل من أضاف إلى شروده عن الله الاستكبار عليه، فهو محجوب قطعاً عن هذا الفضل الإلهي. فأما الضالون من غير المستكبرين عليه فكلهم معرض لهذا الفضل ١٣٠
- بيان الفرق بين الطاعات التي تعلو منك إلى الله، والأفضال التي ترد إليك من عنده ١٣٢

الحكمة التاسعة: ١٣٦

- الأحوال التي يتعرض لها الإنسان تنقسم إلى أحوال نفسية، وأحوال اجتماعية وبيان مفصل لكل منهما ١٣٦
- نماذج لأصحاب حالات نفسية متنوعة استلزمت تنوع الأعمال الصالحة على حسبها ١٣٧
- نماذج لأصحاب حالات اجتماعية متنوعة استلزمت تنوع الأعمال الصالحة على حسبها ١٤٢
- بيان الأثر التربوي الكبير الذي تحدثه معرفة هذه الحكمة والتعامل معها ١٤٧

الحكمة العاشرة: ١٤٩

- بيان الصلة بين هذه الحكمة والتي قبلها ١٤٩

الموضوع | الصفحة

ـ كل القربات التي ينال بها المسلم مرضاة الله مؤلفة من عمل وقصد ١٤٩
ـ بيان ضرورة القصد وأهميته، وأنه من العمل الصالح كالأساس الخفي من البناء ١٥٠
ـ إسقاط هذه الحكمة على أمثلة من أرض الواقع ١٥١
ـ صفوة القول أن الأعمال تابعة للقصد، وليس العكس، ومن هنا تنوعت الأعمال الصالحة المقربة إلى الله إلى ما لاحصر له ١٥٣
الحكمة الحادية عشرة: ١٥٦
ـ الفرق بين الخمول والكسل ١٥٦
ـ بيان أن كل شيء لايتكامل وجوده إلاّ بعد أن يبقى مدة في ظلمات الخفاء ١٥٦
ـ بيان وحدة هذا القانون في الوجود الإنساني والجامدات والوجود العضوي والاجتماعي للإنسان ١٥٧
ـ المستند الذي اعتمد عليه ابن عطاء الله، سيرة رسول الله ﷺ ١٥٩
ـ لكي ينهض الإنسان بواجباته الاجتماعية بنجاح لابدّ من أن يتحلى بثلاث خصال: العلم.. تزكية النفس.. تطهير القلب من التعلق بالأغيار ١٦٠
ـ لايمكن تحقيق هذه الخصال الثلاث إلا بالتزام خلوات جزئية منظمة ١٦١
ـ أمثلة على ذلك ١٦٢
ـ الخمول المطلوب هنا لايعني بالضرورة الخلوة أو العزلة التامة ١٦٤
ـ هذه الحكمة تعبر عن قانون لابدّ منه في كل من القضايا الدينية والدنيوية ١٦٥

الموضوع | الصفحة

الحكمة الثانية عشرة: ١٦٧
- المعاني التي تطلق عليها كلمة القلب ١٦٨
- المطلوب في هذا المجال التربوي عزلة جزئية لا العزلة الكلية الدائمة ١٦٨
- العزلة مع التفكر: أولهما يشبه الحمية للمريض. ثانيهما يشبه الدواء له ١٦٩
- بيان المراد بالفكرة التي هي بمثابة الدواء ١٧١
- مستند ابن عطاء الله في هذه الحكمة ١٧٢
- أثر العزلة الجزئية عندما يأخذ بها المسلم نفسه على صعيد الحياة السلوكية ١٧٤
- والآن تعال نتساءل: لماذا يكرم أحدنا عينيه باليقظة في أول الليل ليلهو بهما عن مولاه، ولايكرمهما باليقظة في آخر الليل ليكون بهما مع الله ١٧٦

الحكمة الثالثة عشرة: ١٧٩
- بيان معنى الشطر الأول من هذه الحكمة: ((كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته)) ١٧٩
- بيان معنى الشطر الثاني منها: ((أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته)) ١٨٦
- بيان معنى الشطر الثالث منها: ((أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته)) ١٨٧
- بيان معنى الشطر الأخير منها: ((أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)) ١٨٨

الموضوع	الصفحة

- قد نتساءل: كيف يتأتى للإنسان الذاكر أن ترى عيناه صور المكوَّنات، دون أن تستقر هذه الصور في الذاكرة وعلى صفحات القلب؟ ١٩٣

الحكمة الرابعة عشرة: ١٩٧

- هذه الحكمة حصيلة مكثفة لقول الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ ١٩٧
- النور الذي هو عماد وجود المكونات نوران: نور تراه العين، ونور يرصده العقل ١٩٨
- والعقل ذاته ليس إلا نوراً يشرق على الدماغ فيتم به إدراك الحقائق ١٩٩
- إذن فالنور هو سرّ الكون كله.. ولكن من أين انبعث هذا النور الذي أضفى سرّ الوجود على المكوَّنات؟ ٢٠٠
- النور من حيث هو لايخضع لرؤية الأبصار، والقاعدة العلمية هي أن كل ما كان وسيلة لرؤية الأشياء أو إدراكها فهو أبعد ما يكون عن إمكان رؤيته ٢٠١
- ألفت النظر إلى معنى علمي دقيق في قول الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ ٢٠٢
- إذن فالمادة وعاء لنور يسري في داخله، فمن أين جاء هذا النور فتغلغل فيه؟ جواب مفصل عن هذا السؤال ٢٠٥
- الذين متعهم الله بنور المعرفة واهتدوا به إلى الله، ثلاث فئات، بيان وشرح لكل منها ٢٠٧

الحكمة الخامسة عشرة: ٢١٣

- مقدمة بين يدي شرح هذه الحكمة بمثال مادي ٢١٣

الموضوع الصفحة

- إذا كان كل شيء منوراً بنور الله، فما الذي يحجبك إذن عنه؟.. ٢١٤
- قاهرية الله هي التي تحجب كثيراً من الناس عن الله بدون حجاب ٢١٥
- ولكن من هم الذين قهرهم الله بحجبهم عنه دون حاجب؟ هم المستكبرون الذين آثروا التعامل مع الحقائق بمشاعر استكبارهم بدلاً من موازين عقولهم ٢١٦
- هل تكون المعاصي وحدها سبباً لهذا الحجاب؟ ٢١٧

الحكمة السادسة عشرة: ٢٢١

- شرح الفقرة الأولى منها: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء)) ٢٢١
- شرح الفقرة الثانية: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء)) ٢٢٣
- ما الفرق بين المعنيين؟ ٢٢٣
- شرح الفقرة الثالثة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء)). ٢٢٧
- إياك أن تخطئ فتفهم معنى الحلول من هذه الفقرة ٢٢٧
- شرح الفقرة الرابعة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر لكل شيء)). ٢٣٠
- ظهور الله للعقلاء من الإنس والجن والملائكة معروف، ولكن كيف يكون ظهور الله للجامدات والنباتات ونحوها؟ جواب علمي مفصل عن هذا السؤال. ٢٣٠

الموضوع الصفحة

- شرح الفقرة الخامسة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء)) ٢٣٥
- بيان بطلان القدم النوعي الذي تطوح في القول به كثير من الفلاسفة، وقلدهم فيه بعض السطحيين من (المفكرين) المسلمين ٢٣٦
- شرح الفقرة السادسة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء)). ٢٣٨
- شرح الفقرة السابعة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء)) ٢٤٠
- بيان الفرق بين ((الوجود با لله)) و((الوجود مع ا لله)) ٢٤١
- شرح الفقرة الثامنة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء)) ٢٤٤
- هل جرى السلف على تأويل الآيات التي تثبت قرب ا لله من الإنسان وتؤكد معيته له؟ ٢٤٤
- شرح الفقرة التاسعة: ((كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود كل شيء)) ٢٤٨
- شرح الفقرة الأخيرة: ((ياعجباً كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم)) ٢٥٠

الحكمة السابعة عشرة: ٢٥٣

- خاطب ا لله عباده بأوامره ووصاياه، ثم تركهم أحراراً فيما يفضلونه من الوظائف والصناعات والتجارات والعلوم والمعارف ٢٥٣

الموضوع الصفحة

- إذن فهو أمر شرعي مقبول أن تجد الناس قد توازعتهم الوظائف والأعمال الكثيرة المختلفة ٢٥٤
- فإذا جاء من ينكر على الناس توازعهم بين هذه الأعمال باسم الدين، فهو من الجهالة بمكان ٢٥٤
- إنما يستقي ابن عطاء الله هذه الحكمة من هدي رسول الله ومن سيرة أصحابه ٢٥٥
- غير أن هذا التنوع الذي لابدّ منه يجب أن يكون تحت سلطان الدين وحكمه ٢٥٦
- المشكلة تكمن في أن جل الذين ينصرفون إلى وظائفهم وأعمالهم المختلفة، قد انقطعت صلتهم بالجذع الجامع لأشتات تلك الأعمال، فغدت أنشطتهم مفصولة عن قيادة الدين وحكمه ٢٥٦
- أمثلة لطائفة من المظاهر والسلوكات الدينية التي يطيل بعض الناس ألسنتهم عليها بالنقد، وبيان خطأ هذا النقد وخطورته ٢٥٩
- تعليق هام عن الأبدال والأحاديث الواردة بحقهم ٢٦١

الحكمة الثامنة عشرة: ٢٦٤

- معنى هذه الحكمة واضح ودلائل صدقها بدهية، ومع ذلك فهي تظل غائبة عن كثير من الأذهان ٢٦٤
- أمثلة لصور تسويف الأعمال عن مواقيتها من واقع مجتمعاتنا اليوم ٢٦٤
- علاج هذه المشكلة أن يتذكر الإنسان الوظيفة التي خلقه الله لأدائها ٢٦٦
- مثال يقرب إليك فهم هذه الحقيقة ٢٦٧

الموضوع	الصفحة
ـ تحليل أسباب هذه الرعونة وبيان علاجها	٢٦٨
ـ لابدّ من مزج الوظائف الدينية مع الأنشطة والأعمال الدنيوية حتى يحقق كل منهما الغاية المطلوبة	٢٧٠
ـ غير أن المشكلة تكمن في إصرار الكثيرين على فك هذا الاشتباك	٢٧١
الحكمة التاسعة عشرة:	٢٧٤
ـ عرض أمثلة حية لبيان معنى هذه الحكمة	٢٧٤
ـ مصدر الخطأ فيمن يخالفون هذه الحكمة عدة أمور	٢٧٦
ـ الأمر الأول ما يتخيله البعض من أن المثوبة منوطة آلياً بسبب مادي. مع أن الأمر ليس كذلك	٢٧٦
ـ الأمر الثاني ما يغيب عن بال الكثيرين من أن المصالح التي تدور عليها أحكام الشريعة كثيرة ومتنوعة جداً	٢٧٦
ـ الأمر الثالث ما يغيب عن أفكار الكثيرين من الانتقال من مجال اختصاص إلى غيره ليس شرطاً لابدّ منه للجمع بين وظيفتين أو مصلحتين في خدمة الأمة	٢٧٧
ـ مثال على ذلك: الفرية التي نسبت إلى عبد الله بن المبارك، إذ أنكر على الفضيل بن عياض العمل الذي أقامه الله فيه	٢٧٩
الحكمة العشرون:	٢٨٢
ـ بيان معنى الشطر الأول من هذه الحكمة	٢٨٢
ـ مكائد الشيطان للمسلمين الملتزمين تختلف عن مكائده للتائهين والشاردين	٢٨٢

الموضوع الصفحة

- يوسوس الشيطان للتائب الذي فرح بتوبته: ألا ترى كيف أصبحت الآن مقرباً من الله، في طاعاتك وجهودك؟ ٢٨٣
- العلاج أن يأخذ هذا التائب نفسه بنصيحة ابن عطاء الله هذه، فيقارن بين أعماله الطفيفة وقربات الصالحين الذين هم مضرب المثل في العبادات والتقوى ٢٨٤
- كلما ازداد الإنسان شعوراً بعظمة الله وعظيم حقه عليه، ازداد شعوراً بتقصيره في جنبه، وهذا علاج آخر ٢٨٦
- بيان معنى الشطر الثاني من هذه الحكمة: ٢٩٠
- تتبرج المكوَّنات للسالكين والمرشدين بمعنيين اثنين: ٢٩٠
- المعنى الأول انفتاح الدنيا عليهم وتكاثر النعم وأسباب المتع من حولهم، فيوظفهم الشيطان للركون إليها والتقلب فيها ٢٩١
- المعنى الثاني: تزايد الناس المستفيدين من حول أحدهم وتأثرهم به، فيشعر من ذلك بأن له قدم صدق عند ربه، وأنه قد غدا من أوليائه المقربين ٢٩٢
- من شأن هذا الذي ركبه هذا الوهم أن يظل يحدّث مريديه عن مناماته وكراماته، وأن يلفت أنظارهم إلى خوارقه ٢٩٣
- ربما ادعى أحدهم أنه يرى رسول الله يقظة وأنه يحدثه وأنه يسأله فيجيبه!! ٢٩٦
- ما يظنه بعض العوامّ من الناس، من أن الوليّ هو الذي تجري على يديه الخوارق والكرامات.. وبيان المعنى الديني السليم للولي ٢٩٩
الحكمة الحادية والعشرون: ٣٠٣
- شرح الفقرة الأولى منها: ((طلبك منه اتهام له)) ٣٠٣

الموضوع الصفحة

- مثال توضيحي قصة النمرود مع سيدنا إبراهيم إذ قرر حرقة بالنار ٣٠٣
- شرح الفقرة الثانية: ((وطلبك له غيبة منك عنه)) ٣٠٧
- شرح الفقرة الثالثة: ((وطلبك لغيره لقلة حيائك منه)) ٣٠٨
- بعض الأمثلة الواقعية على ذلك ٣١٠
- العبد الحقيقي هو من يعبد الله لذاته لالغيره من جنة أو نحوها. ورابعة العدوية مضرب المثل لهذه العبودية الصادقة ٣١٢
- شرح الفقرة الأخيرة: ((وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه)) ٣١٤
- ليس معنى الطلب من غيره تعاملك مع الأسباب، بل التعامل مع الأسباب مع الطلب من المسبب هو المطلوب وهو شأن المسلم ٣١٥

الحكمة الثانية والعشرون: ٣٢٠

- الشرح الإجمالي لهذه الحكمة وبيان مستندها من كلام رسول الله ٣٢٠
- ولكن ما القضاء والقدر؟ ٣٢٣
- الأسئلة التقليدية التي يطرحها المسلمون التقليديون حول القضاء والقدر ٣٢٥

الحكمة الثالثة والعشرون: ٣٢٧

- شواغل الدنيا لامطمع للتخلص منها، في أي من مراحل العمر ٣٢٧
- ولكن شأن كثير من الناس الاستسلام لشواغلها، على أمل أن يفرغ منها بعد حين، لأوامر الله عز وجل ٣٢٨
- العلاج اتباع هذه الحكمة التي يذكرنا بها ابن عطاء الله، مع البيان والتوضيح ٣٢٩

الموضوع | الصفحة

الحكمة الرابعة والعشرون: ٣٣٥
- لماذا قضى الله أن تكون حياتنا الدنيوية مشوبة بالأكدار؟ ٣٣٥
- الجواب أن لذلك حكمة تتجلى في حقيقتين اثنتين: ٣٣٥
- الحقيقة الأولى ٣٣٥
- الحقيقة الثانية ٣٣٧
- وانظر إلى فرق مابين المؤمن والكافر في هذا الأمر ٣٤١
- بقي أن تعلم أنه لا المتع التي تتسابق إلى الإنسان مصدر سعادته، ولا المصائب والأسقام مصدر شقائه ٣٤٦

الحكمة الخامسة والعشرون: ٣٤٩
- عرض إجمالي لمعنى هذه الحكمة ٣٤٩
- المستند الذي اعتمد عليه ابن عطاء الله في هذه الحكمة ٣٤٩
- أجمع كلمة دالّة على هذه الحقيقة «لاحول ولا وقوة إلا بالله» ٣٥٠
- الثمرة التي نعود بها إلى أنفسنا من معرفة هذه الحقيقة ٣٥٣
- ماقد يستشكله بعض الناس ٣٥٤
- الجواب الأول.. ٣٥٤
- الجواب الثاني.. ٣٥٥
- هذه القاعدة التي يذكرنا بها ابن عطاء الله تصدق على الفرد والمجتمع أمثلة من الواقع ٣٥٦
- ليس معنى هذه القاعدة إهمال الوسائل والأسباب ٣٥٩

الموضوع الصفحة

الحكمة السادسة والعشرون: ٣٦٣

- في الناس من يتصور أن العبرة من سلوك الإنسان هي ختام حياته وحدها ٣٦٣
- هذا التصور خطأ قتال وخدعة شيطانية ماكرة، إذ إن خاتمة حياة الإنسان صدى وثمرة لأولها ٣٦٤
- يقول بعضهم: ولكن حديث رسول الله ((فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة..)) يخالف ذلك ٣٦٤
- الجواب عن هذا على ضوء القرآن والسنة ٣٦٤
- مما ييسر معرفة هذا الجواب أن تعلم أن الرجوع إلى الله في البدايات ليس محصوراً في الأعمال الظاهرة ٣٦٧
- من ثمرات إدراكك لهذه القاعدة أن تكون كثير الأدب مع عباد الله جميعاً ٣٦٩
- إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب مطلوب، ولكن الترفع على العاصين والتسامي عليهم أمر خطير ومذموم ٣٧٠

الحكمة السابعة والعشرون: ٣٧٨

- هذه الحكمة تتمة وتأكيد للتي قبلها ٣٧٨
- هذه القاعدة تنطبق على المجتمع كما تنطبق على الفرد ٣٧٩
- يقول بعضهم: فهاهي ذي المجتمعات الغربية تتمتع بألوان من النعم لاحصر لها، دون أن تزدهر بدايتها بأي إشراق ٣٧٩

خاتمة هذا الجزء ٣٨٠





بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

موقع الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي
على شبكة الإنترنت
www.bouti.com



- مؤلفاته
- نشاطاته
- خطبه ومحاضراته
- فتاواه وردوده على تساؤلات الناس

دار الفكر

Microsoft Windows Compatible

الجزء الأول

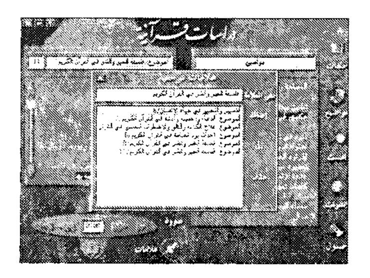
دراسات قرآنية

د. محمد سعيد رمضان البوطي

إصدارات دار الفكر الحاسوبية

جميع الحقوق محفوظة





برنامج متميز يضم عشرات الساعات الصوتية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
يتناول فيها مواضيع تتعلق بحياتنا اليومية وما يواجه المسلم من مشاكل وتحديات معاصرة كالتقدم وعوامله والثواب والعقاب و الخير والشر وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والفقهية و العلمية.

* فهرسة موضوعية دقيقة للحلقات.
* بساطة وسهولة في تشغيل البرنامج والاستفادة منه.
* إمكانات البحث عن الموضوعات والحلقات.
* إمكانية الوصل المباشر مع موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على الإنترنت.

www.bouti.com

كتب للمؤلف

يغالطونك إذ يقولون
أوربة من التقنية إلى الروحانية
الإسلام والعصر
كبرى اليقينيات الكونية
شخصيات استوقفتني
منهج الحضارة الإنسانية في القرآن
حرية الإنسان
الله أم الإنسان
مع الناس
مدخل إلى فهم الجذور
اللامذهبية
تجربة التربية الإسلامية
سلسلة أبحاث في القمة
فقه السيرة النبوية
ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية
سيامند ابن الأدغال
قضايا فقهية
هذه مشكلاتهم
هذه مشكلاتنا
تحديد النسل

من روائع القرآن
في سبيل الله والحق
المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام
دفاع عن الإسلام والتاريخ
من الفكر والقلب
حقائق عن نشأة القومية
حوار حول مشكلات حضارية
على طريق العودة إلى الإسلام
نقض أوهام المادية الجدلية
محاضرات في الفقه المقارن
الجهاد في الإسلام
المرأة
الإنسان مسير أم مخير؟
الحوار سبيل التعايش
السلفية
التغيير، مفهومه وطرائقه
ممو زين
هذا والدي
الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية
عائشة أم المؤمنين



دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

• **أسست** عام ١٩٥٧م.

• **رسالتها:**
- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مدّ الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
- احترام حقوق الملكية الفكرية، والدعوة إلى احترامها.

• **منهاجها:**
- تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
- تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار وما فات أوانه.
- تعتني بثقافة الكبار، كما تعتني بثقافة أطفالهم.
- تخضع جميع أعمالها لتنقيح علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
- تعدّ خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً، وفصلياً، وسنوياً، ولآماد أطول.
- تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.

• **خدماتها ونشاطاتها:**
- بنك القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي)
- جائزة دار الفكر للإبداع والنقد الأدبي
- ريادة في مجال النشر الألكتروني
- أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربي على الإنترنت:
www. Fikr. Com
- إسهام فعّال في موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية:
www. Furat. Com
- خدمة المستفتي بإشرافنا على موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:
www.bouti. Com
- إشراف مباشر على موقع الدكتور وهبة الزحيلي:
www. Zuhayli. Com

• **منشوراتها:** تجاوزت حتى عام ٢٠٠١ (١٥٠٠) عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة.

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ - ٢٢١١١٦٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

THE ATA'I'S APHORISMS
EXPLANATION & ANALYSIS

Al-Ḥikam al-'Aṭā'īyah
Sharḥ wa-Taḥlīl
M.Sa'īd Ramaḍān al-Būṭī

الحكم العطائية أقوال جليلة في تزكية النفس والارتقاء بها في مدارج الكمال والسمو، وقد تداولها أهل العلم على مرِّ العصور وشهدوا من نفحاتها الكثير، حتى قال قائلهم: ((لو جازت الصلاة بشيء غير القرآن، لجازت بحكم ابن عطاء الله)).

وها هو ذا الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي يعتمدها مرتكزاً لدروس طويلة في عدد من مساجد دمشق يبدأ بها منذ عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م وما زال مستمراً حتى الآن، وهو يستجيب اليوم لطلابه ومتابعي دروسه الذين ألحوا عليه أن يخرجها في كتاب يبقى للقراءة والتدبر، فكان هذا الكتاب الذي نطالع فيه شروحاً وتحليلات متألقة على كلام مركّز شديد التركيز..

www.bouti.com

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (775)-417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/



SROUR ALWANI 2000